المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

الابتسامة الأترورية

تأليف: خوسى لويس سامبيدرو

ترجمة: محمد عبد الكافى

مراجعة: محمود السيد على

تحرير: أسامة عرابى

1361

الإبداع القصصى

الابتسامة الأترورية

(رواية)

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة : خيرى دومة

- العدد : ١٣٦١
- الابتسامة الأترورية
- خوسى لويس سامبيدرو
- محمد عبد الكافى
- محمود السيد على
- أسامة عرابى

هذه ترجمة رواية :
La Sonrisa Etrusca
Por: José luis SAMPEDRO
© José luis SAMPEDRO

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة
شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٢٧٣٥٨٠٨٤
El. Gabalaya st. Opera House، El Gezira، Cairo

الابتسامة الأترورية

(رواية)

تأليف: خوسي لويس سامبيدرو

ترجمة: محمد عبد الكافي

مراجعة : محمود السيد علي

تحرير : أسامة عرابي

٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

سامبيدرو ، خوسى لويس
الابتسامة الأترورية (رواية) / تأليف: خوسى لويس سامبيدرو ، ترجمة : محمد عبد الكافى ؛ مراجعة: محمود السيد على؛ تحرير: أسامة عرابى
ط١- القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٩
٤٢٤ ص ، ٢٠ سم
١ ـ القصص الإسبانية
(أ) عبد الكافى ، محمد (مترجم)
(ب) على ، محمود السيد (مراجع)
(ج) عرابى ، أسامة (محرر)
(د) السلسلة
(هـ) العنوان ٨٦٣

رقم الإيداع ٢٠٠٩/١٤٩٦٨

الترقيم الدولى : I.S.B.N 978- 977-479-493-4

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز القومى للترجمة.

إهداء

إلى ميغال وإلى بيتا بافلو

مقدمة الترجمة

لا أحد يجهل أن نقل نص من لغة إلى لغة أخرى يتم بواحدة من طرق ثلاثة : النقل حرفيًّا كلمة بكلمة؛ وهذا ما أسميه ترجمة. أو نقل الفحوى ودلالاتها مع عدم الإخلال بالنص الأصلى وتركيبه، بقدر ما تسمح به اللغة المنقول إليها؛ وهذا عندى تعريب. والطريقة الثالثة هى فهم النص الأصلى وتحويله إلى اللغة الجديدة من دون تقيد؛ وهذا ما أسميه تعريبًا حرًّا أو بتصرف.

أما اختيار هذه السبيل أو تلك، فوقْفٌ على النص المنقول، وهدف الناقل المرتجى طبعًا.

ولما عثرت على هذه القصة الجميلة، وتمعنت فى جوانبها المتعددة، لم أجد مهربًا من سلوك السبيل الثانية، أى محاذاة النص الأصلى والسير على نهجه فى الحدود التى يقتضيها التحرير عربيًّا؛ وذلك لأسباب منها أسلوب الكاتب بجمالياته واختياراته الفنية، ولغة النص الوفية بضرورات نمو شخصياتها الدرامى، هذا بالإضافة إلى استخدام المؤلف المقولات والتعبيرات الخاصة والأمثال أو ما شابه، وإدراج مفردات وعبارات مستمدة من تراث غير إسبانى يتعلق بلهجة محلية إيطالية، هى لسان أهل كالابريا فى أقصى الجنوب الإيطالى.

أما من حيث الأسلوب، فالمؤلف يكثر من استعمال المضارع ولو تحدث عن الماضى، ويعمد إلى عدم إتمام الجمل أو كلام أحد الأبطال، ويقطع تسلسل كلامه ليشير إلى أن ذلك ما يدور بخلد البطل المعنى إذ ذاك. فبدل أن يكتب مثلاً : وقال مفكرًا، أو راح يفكر ويقول كذا وكذا، بدأ بسرد جزء من الأفكار المعنية ثم يتوقف ليضع – يفكر – وغايته من ذلك إبراز حالة معينة تصور نفسية البطل، فحافظت على ذلك ولم أتدخل فيه بالحذف والتعديل.

غير أن العبارات القليلة التداول أو ما شابه من الأمثال، فإنها لو نقلت حرفيًا لأحارت القارئ أو أضحكته، من ذلك قوله واصفًا امرأة : إنها امرأة قانون. لكن المعنى الذى تدل عليه العبارة، فهو أنها امرأة حقيقية لا مجازًا. أو قول بطله متحدثًا عن قسيس، إنه ميابيلاس أى يبول فى الأحواض، والمقصود بالحوض هنا، هو ذلك الذى يوجد فى مدخل كل كنيسة وبه ماء يُعدُّ مقدسًا، يرسم به المتدنيون شكل الصليب عند دخولهم المعبد. فكيف بقسيس أن يبول فى مثل هذا الحوض ؟ لكن المعنى المتوخى من العبارة، هو أن الراهب كثير التعبد والخشوع والتقوى، حتى أن بوله أصبح ماء مقدسًا يمكن صبه فى هذه الأحواض. وقوله : كوليرا دى لابرادور لو ترجمت حرفيًا لأدت إلى غضب حارث أو فلاح. لكن كلمة لابرادور لا تشير إلى من يحرث الأرض بل إلى فصيل من الكلاب شديد الغضب والهيجان.

بالإضافة إلى هذا، فقد أتخمت القصة، كما سبق وأن قلت، بالعبارات والمفردات الإيطالية وبلهجة كالابريا في جنوب إيطاليا؛ مما اضطرنى إلى الاستعانة بزميل إيطالى عجز بدوره فى معظم الأحيان؛ لأنه من الشمال؛ فالتجأنا إلى الحاسوب والإنترنت. بَيْد أننى حافظت على نهج الكاتب الذى أتى بنصها الإيطالى من دون ترجمة، وكتبتها كما هى بأحرف عربية بعد تعريبها؛ لإضاءتها وتيسير فهمها.

أقول كل هذا ليعلم القارئ الكريم أن أمامه قصة مغايرة لما درج عليه؛ وهذا ما جعلنى أختارها وأجازف بتعريبها، خاصة وأن مؤلفها واسع الشهرة وراسخ القدم، وهو من أكبر الكتّاب الإسبان المعاصرين.

فعلى القارئ أن يتمعن، ولا يجفل من المفردات غير المتداولة، وأن يتابع بدقة ليتمكن من الإحاطة بخيال البطل الغرائبى أحيانًا.

أرجو أن أكون قد وفقت ولو نسبيًا، وما توفيقى إلا بالله.

محمد عبد الكافى

(١)

فى المتحف الرومانى "بفيلا دجوليا" كان حارس القسم الخامس يواصل نوبة حراسته. وبانتهاء الصيف ومعه أفواج السياح تصبح الحراسة مملة. أما اليوم فإن زائرًا معينًا قد جلب فضول الحارس وحيرته، عاد بمزيد من حب الفضول إلى القاعة الصغيرة؛ حيث وضع تمثال "لوس إسبوسوس" (الزوجان). "ألا يزال هناك ؟" هكذا تساءل وأسرع الخطى حتى أطل من الباب.

موجود. لا يزال هناك على المقعد أمام الناؤوس(١) الأترورى الكبير المصنوع من الخزف والمتوسط أسفل القبة. هى تحفة المتحف معروضة، كما لو كانت فى قراب، بالقاعة الصغيرة المكسوة بلون أدنى إلى لون القبو الأصلى.

نعم. ها هو هناك، بلا حراك منذ نصف ساعة، كما لو كان هو أيضًا صورة جففتها نار القرون. فالقبعة البنية والوجه المدبوغ يشكلان تمثالاً نصفيًّا من صلصال، بارزًا من القميص الأبيض بلا أربة(٢) كعادة الشيوخ هناك وإلى الأسفل، بجبال الجنوب : أبوليا، أو بالأحرى كالابريا. تساءل الحارس :

"ما عساه يرى فى هذا التمثال ؟ "

---

(١) الناؤوس هو التابوت

(٢) رابطة العنق

ونظرًا إلى أنه لا يفهم؛ فهو لا يجرؤ على الانسحاب عسى أن يحدث شئ فجأة. فهذا الصباح قد بدأ كغيره، وها هو يصير مختلفًا كثيرًا. لكن الحارس لا يجرؤ كذلك على الدخول، يمنعه احترام غامض. ويواصل البقاء بالباب، ناظرًا إلى الشيخ الذى يركز نظره، بلا اكتراث لحضور الحارس، إلى الضريح الذى مال فوق غطائه الزوجان.

فالمرأة متكئة على مرفقها الأيسر، وشعرها يتدلى فى ضفيرتين على نهديها. تقوست يدها فى جمال مقربة إياها من شفتيها الغليظتين. وخلفها الرجل متكئ هو الآخر بلحيته المدببة تحت فمه الفونى (الشبيه بفم فاونون نصف الإله) وهو يحتوى القوام الأنثوى بذراعه اليمنى. إن لون الطفل المحمر فى هذين الجسدين يدل على خلفية دموية لا تبلى على مر القرون. وتحت الأعين المستطيلة الزائغة شرقيًّا، تزهر فى الوجهين الابتسامة نفسها التى لا توصف : ملهمة.. مبهمة.. وهادئة.. متنعمة. كانت بؤر نور خفية تنير بذكاء متقد ذينك الشكلين معطية إياهما جلاء وحدة وتملأهما بالحياة. وفى تباين من ذلك يبدو الشيخ الساكن فى شبه الظل تمثالاً فى عينى الحارس. "كما لو كان الأمر سحرًا"، يفكر الحارس من دون مشيئته. وكى يطمئن نفسه قرر إقناعها بأن كل شيء طبيعى : "إن الشيخ متعب، وبما أنه دفع ثمن تذكرة الدخول

فقد جلس هناك كى يستغلها. هكذا هم أهل الريف". وبعد فترة وبما أنه لم يحدث شيء، فقد ابتعد الحارس. طال غيابه فى مناخ القبو الخانق حول سكانه الثلاثة : الشيخ والزوجيْن، والوقت يقترب...

يقطع هذا الجو رجل شاب فيقترب من الشيخ : أخيرًا يا أبتاه ! هيا بنا. آسف على تركك منظرًا لكن هذا المدير...ينظر إليه الشيخ : مسكين هذا الطفل ! يسرع دائمًا ويعتذر... ومع هذا فهو ابنى.

– لحظة.. ما هذا ؟

–هذا ؟ الزوجان. ناؤوس أتروري.

– ناؤوس ؟ صندوق للأموات ؟

– نعم.. لكن لنذهب.

– أكانوا يدفنونهم هناك فى داخله ؟ فى هذا الذى يشبه المتكأ ؟

– هو سرير ثلاثى (تركلينيوم). كان الأترور يأكلون متكئين كما يفعل الرومان، ولم يكونوا ليدفنوهم فعلاً. كانوا يضعون الناؤوس فى قبو مغلق مطلى من الداخل كأنه منزل.

– مثل ضريح المركيز مالفاتى هناك فى روكاسيرا.. أليس كذلك؟

– بلى... لكن ستفهمك أندريا أحسن منى. أنا لست آثاريًّا.

– زوجتك ؟ حسن سأسألها.

ينظر الابن إلى أبيه بتعجب ويتساءل : "أله كل هذا الاهتمام ؟" ثم يعود فينظر إلى الساعة.

– إن ميلانو بعيدة يا أبتاه.. أرجوك.

ينهض الأب من المقعد رويدًا من دون أن يحول نظـره عـن الزوجين.

– كانوا يدفنونهم وهم يأكلون ! يهمس متعجبًا وأخيرًا وبالرغم منه يتبع ابنه.

عند المخرج يطرح الشيخ موضوعًا آخر.

– لم تجرِ الأمور مع المدير كما يجب، أليس كذلك؟

يُصَعِّر الابن فمه استنكارًا ويقول :

– طيب، كالعادة، أنت تعرف. يعدون ويعدون لكن... لكـن – والحق يقال – لقد مدح أندرييا كثيرًا. كان يعرف حتى مقالها الأخير.

يتذكر الشيخ أنه بعد انتهاء الحـرب بقليـل صـعد بـصحبة أمبروزيو ومقاوم آخر ("ما اسمه ذلك الألبانى الرامـى القـدير ؟... ملعونة هذه الذاكرة !") ليطالبوا أحد قادة الحزب بالإصلاح الزراعى فى منطقة سيلا الصغيرة.

– هل رافقك إلى الباب ضاربًا بكفه على كتفك ؟

– بالطبع ! كان عظيم المجاملة واللطف.

يبتسم الابن، ولكن الشيخ يعبس. كما كان الأمر سابقًا، كان من الضرورى موت ثلاثة أشخاص فى مظاهرة قروية بماليسا بالقرب من سنتا سافارينا، كى يفزع سياسيو روما فيقرروا القيام بشىء ما.

يصلان إلى السيارة فى موقف السيارات ويركبان. يهمهم الشيخ وهو يربط حزام الأمان. "عملية مربحة لعدد ما ! كما لو كان الواحد لا يمتلك حق الموت حسب رغبته". ينطلقان ويتجهان إلى مدخل روما. بعد دفع مُكوس الطريق بقليل، وبعد أن سارا فى الطريق السريع "أوتو سترادا دل صولى" يعود الشيخ إلى موضوعه وهو يلف فى بطء سيجارة.

– هل كانوا يدفنون الاثنين معًا ؟

– يدفنون من يا أبى ؟

– الزوجيْن، الأتروزيين.

– لا أدرى، قد يكون.

– وكيف ؟ لا يموتان فى وقت واحد !

أنت يا سيدى على صواب... حقًّا لست أدرى... اضغط هناك، فستخرج لك قداحة. – دعك من القداحات، وماذا عن ملاحة عود الكبريت ؟

- يحك الشيخ العود بقوة، ويشعل سيجارته بمهارة داخل الفراغ الذى كونه بكلتا يديه. يرمى بعود الكبريت إلى الخارج ويدخن على مهل. يسود صمت لا يمزقه إلا أزيز المحرك وهمس العجلات، وصوت بوق سيارة مزعج. ومن حين إلى آخر بدأت السيارة تفوح برائحة التبغ الأسود، مثيرة فى الابن ذكريات الطفولة الغضة. وهو يشرد بذهنه زجاج النافذة قليلاً. عندها ينظر إليه الشيخ : لم يستطع قط التعود على هذه الصورة الجانبية الرقيقة، هى ميراث الأم الذى يزداد إدراكه كل سنة. إنه يقود بجد وبانتباه إلى الطريق... "نعم لقد كان دومًا فتى جادًا."

لماذا يضحكان بهذه الطريقة الكثيرة... حسنًا، هكذا ؟ وفوق قبرهما !

- من هما ؟

- من سيكونان؟ إنها الأتروريان يا رجل، صاحبا الناؤوس. فى من كنت تفكر ؟

يا لله ! الأتروريان !... كيف أستطيع معرفة ذلك؟ ثم إنهما لا يضحكان.

- آه ؟ طبعًا ! ويضحكان من كل شىء ! ألم تر ذلك؟ بطريقة... بشفاه ملتصقة لكن يضحكان... ويا لها من أفواه ! المرأة خصوصًا مثل... ويتوقف كى يخفى اسمًا تذكره بحدة (سالفينيا).

يغتاظ الابن. "يا للهوس ! هل أخذ المرض يؤثر على عقله ؟

– لا يضحكان يا أبى، تلك هى ابتسامة غبطة.

– غبطة ؟ وما هى ؟

– مثل القديسين فى اللوحات عندما يتأملون الإله. تفلت من الشيخ قهقهة.

– قديسون ؟ يتأملون الإله ؟ هم، الأتروريون ؟ أبدًا.

– إن اعتقاده لا يقبل مراجعة. تسبقهم سيارة كبيرة وسريعة يقودها سائق يرتدى زيًّا وفى المقعد الخلفى صورة خاطفة لسيدة أنيقة. ويفكر الشيخ : هذا الابن ابنى، ترى متى سيصل إلى فهم الحياة ؟

– الأتروريان يضحكان، أقولها لك. كانا يتمتعان حتى فوق قبرهما. ألم تنتبه إلى ذلك ؟ يا لهم من ناس !

يأخذ نفسًا آخر من السيجارة ويواصل :

– ما الذى جرى لهؤلاء الأتروريين ؟

– احتلهم الرومان.

– الرومان يأتون دومًا بما يزعج.

يغرق الشيخ فى القصة القديمة، ذكريات الدكتاتورية والحرب، وذكريات السياسيين بعد ذلك، بينما السيارة تتجه نحو الشمال.

كانت الشمس تُنهى سباقها، ناشرة الدفء على المزروعات الخريفية، ومازال العنب يجمع فوق إحدى الربى، بينما أخذ العصير فى روكاسيرا يختمر. ولفت انتباه الشيخ عدم تساوى الأخاديد، ففكر قائلاً لنفسه : لو أن أحد فتيانى قام لى بعمل كهذا، لطردته من بيتى ركلاً". إن كل جزء من الأراضى له عنده معنى، ولو كان منظرًا طبيعيًا مختلفًا تمامًا، أكثر خضرة، أكثر طراوة، لكن أهل الشمال هؤلاء...

– كل هذه الأرض كانت أترورية. قالها الابن فجأة راغبًا فى التلطف.

– تبدو هذه الحقول للشيخ أكثر غضاضة، وبعد فترة أجهد نفسه فى طلب شيء.

– متى استطعت ؟ توقف برهة يا بنى. أحتاج إلى إنزال السروال. أنت تعرف، هى الدويبة[1] التى تتنقل فى داخلى.

– وتعاود الحيرة ابنه؛ من مرض أبيه العضال وهو سبب الإتيان به إلى أطباء ميلانو، ويلوم نفسه على نسيان ذلك فترة وهو

(١) اسم دابة صغيرة كابن مقرض، ويقصد بها السرطان الذى ينهش جسده.

منشغل بمشكلة الخاصة. فمن المؤكد أن احتمال نقل زوجته إلى روما يهمه كثيرًا، ولكن ما بأبيه هو النهاية. يلتفت نحو الشيخ بحنان :

– سنتوقف فى أول مناسبة؛ وسأغتنم ذلك لتناول قهوة جيدة كى أصحو وأنا أقود.

– استطيع الانتظار؛ فلا تتعجل خطاك.

يتمعن الابن فى صورة أبيه الجانبية. مازال الوجه نحيفًا طويلاً، ولو أن الجوزة فى رقبته هزلت؛ فبدت كحصاة غص بها، أما العينان فقد غرقتا. كم بقى له من الوقت ليصبح بمقدوره تأمل هذا الوجه المنيع، والذى أوحى إليه دومًا بالأمن ؟ لقد باعدت بينهما الحياة، حاملة إياهما إلى عوالم مختلفة، ومع هذا فهو سيفقد كثيرًا هذا الظل الواقى، ظل شجرة البلوط هذه. طعنة غم : لو تكلم لظهرت عليه الكآبة، وهذا لا يعجب الشيخ.

يتوقفان عند محطة بيع الوقود. يأخذ الابن السيارة للتزويد، وعندما دخل المقهى كان الأب قد عاد بعد، وها هو يرشف من فنجان تصاعد بخاره.

– لكن، أبتاه ! ألم يمنعك عنها الطبيب ؟

– وماذا يهم ؟ الحياة ضرورية.

– نعم، وهذا هو سبب المنع.

يسكت الشيخ ويبتسم مستمتعًا بقهوته، ثم أخذ فى لف سـيجارة أخرى.

يستأنفان السير، وبعد دقائق وهما فى الطريق السريع يقـرءان لافتة المدخل القادم تجاه أرتزو إلى اليمين.

– كانت مدينة أترورية كبيرة. قالهـا الابـن وهمـا يمـران باللافتة، تاركين إياها وراءهما.

أرتزو : يحتفظ الشيخ بالاسم.

(٢)

تعود السيارة إلى الطريق السريع بعد أن خرج المـسافران مـن خان؛ حيث تناولا عشاء خفيفًا. ينتشر الضباب فى سـهل نهـر "البـو" كطلائع أولى لليل اندغمت خيوطه، وتشابكت فى صفوف شجر الحور.

بدأ النـوم يداعـب الشـيخ شيئًا فـشيئًا : هـذه الأراضـى الرتيبة المضجـرة الطرية، والبـسـاتين المروضـة لا تـسترعى انتباهه. "مسكين" يفكر الابن متأملاً هذا الرأس المائل علـى ظهـر المقعد. "إنه متعب.. ترى أله أمل فى الشفاء؟... إن لم يكن كذلك فلم أتى ؟.. لم أصـدق أبدًا أنه يقبل ترك روكاسـيرا. لا أجـد تفـسيرًا لذلك". عندما فتح الشيخ عينيه، كان الليل قد جن : سـاعة الـسيارة

المضاءة بنور أخضر ضعيف تشير إلى العاشرة وعشر دقائق. يعود فيغـــمض جفنيه كما لو كان يقاوم نفسه، رافــضًا الاطــلاع. تثيـــره العودة إلى ميلانو. ففى المرة الأولى، كان حديث الترمل؛ فلم يستطع البقاء ولا خمسة عشر يومًا. أن الإبنيْن قد خططًا له ليمكث شهرين. كل شىء غير محتمل لديه: المدينة الميلانيــون، الــشقة الــصغيرة، الكــنة... ومــع هــذا فهــو الآن فى اتجاه ميلانو!... وهو يفكــر. كم أكون سعيدًا لو مت بمنزلى ! ملعون "كانتانوتى"! لماذا لا يمــوت ويريحنا؟"

– نومة لذيذة أليس كذلك ؟ وقال له الابن لمــا قــرر الــشيخ التحرك : ها نحن على وشك الوصول.

نعم، ها هما قد وصلا إلى الفخ. إن المدن عند الــشيخ، هــى دومًا شَرَك لصيد الرجال، وفيها يتعرض الفقير إلى ترصد الموظفين والشرطة وملاك الأراضى والتجار وغيرهم من الحشرات، وفم الفخ هو المخرج من الطريق السريع حيث البيت الصغير للمراقبة، وحيث يلزم التوقف وتسليم ورقة.

تبدأ ضواحى المدينة والشيخ ينظر مرتابًا إلى جهة وأخــرى، إلى الحظائر والمعامل المغلقة والمــساكن الرخيــصة، والأراضــى الصالحة للبناء والغدائر... دخان وضباب، قذارة وأنقاض، مــصابيح وحيدة وكئيبة. كل شىء غير إنسانى، بذئ وعــادى. عنــدما ينــزل

الزجاج يشعر ببخار رطب موبوء بالقمامة وفضلات كيميائية. يحـــل حزام الأمان فيشعر بالراحة؛ فيستطيع التصرف أمام أى خطر مهدد.

"الحمد لله أن الدويبة هادئة اليوم." هكذا فكر مسليًا نفـــسه. إن المرض الذى ينهشه يسميه دويبة، وهو اسم أنثى ابن مقرض أهـــداها إياه أمبروزيو بعد الحرب : لم يكن قط فى القريـــة أحـــسن منهـــا. "تحترمينني، آه، أيتها الدويبة. تفهمين أن المجئ إلى ميلانو صـــعب جدًّا فى حد ذاته. بالنسبة إليك أيضًا ؟ أعرف ذلك. لو لم يكن الأمـــر كما هو، لبقينا معًا هناك فى الجنوب، فى أرضنا. تأكدى مـــن ذلـــك أتذكرين (؟؟؟؟؟؟) الحنون الجيد لصائد الأرانب تلك والأنياب الشرسة التى تحته؟ قتلها كلب كانتانوتى." هذه الذكرى جعلت الشيخ يبتـــسم؛ لأنه، انتقامًا لذلك، قطع ذنب الكلب واجترع الآخر الإهانة. وإضـــافة إلى هذا، فإنه، بعد قليل، فض بكارة كونتشيتا ابنة أخى الخصم.

تضيق البيوت عليهما الآن من كل جانب. جدران مـــن كـــل الجهات، إلا جهة الأمام؛ وذلك لاصطياد السيارة أكثر فـــأكثر نحـــو أعماق الفخ. تصر أنوار المرور على تنظيم حركة تكاد تكون منعدمة فى تلك الساعة، والإعلانات المضاءة بإشارات. ومن حين إلى آخر، هناك مفاجآت مقلقة: صوت صاخب لجرس لا يفـــزع أحـــدًا، دوى مفاجئ لقطار مار فوق الجسر الحديدى الذى يسيران تحتـــه، خـــوار ورائحة روث لا معنى لوجودهما فى قلب مدينة.

– المجزرة – هكذا يوضح الابن مشيرًا إلى الأسوجة على اليمين – هناك نبتاع الأحشاء للمصنع.

"إذن هو فخ للحيوانات أيضًا".

يدخلان شارعًا. "ترى ما هذه الشعلة والنساء اللاتى يتحركن حول لهبها كالساحرات فى القفر ؟"

أوقفتهما إشارة المرور بنورها الأحمر إلى جانب إحدى النساء تحديدًا. تدنو هذه من السيارة، وتفتح جمازتها، وتعرض نهديها عاريين ويصيح فمها المطلى :

– أتتشجعان يا فتيان ؟ عندى ما يكفى الاثنان.. يتغير نور الملوح إلى الأخضر فتنطلق السيارة.

– يهمس الابن كما لو كان هو المذنب : يا للخجل!

– أما الشيخ فهو يفكر مسرورًا : كنهدين أراهما ثنائيًّا حسنًا.. إنهم الآن يضعون طعمًا أحسن فى الفخ.

– تواصل المتاهة الإطباق عليهما. أخيرًا يفرمل الابن، ويوقف السيارة بين أخريات نائمات جنب الرصيف.. ينزلان.. يقرأ الشيخ بتعجب لافتة فى الركن: شارع بيافى.

– هنا ؟ يعلق : لا أذكر شيئًا

- يشرح الابن وهو يفتح حامل الأمتعة : إن المنــزل الآخــر أصبح صغيرًا بعد ولادة الطفل، وهذا حى أرقى. فإن استطعنا تسديد ثمن شقة فيه ؛ فذلك لأن نوافذها تطل على الخلف، على شارع نينيو بكسيو. إن أندريبا مسرورة.

- "الطفل طبعًا!" يفكر الشيخ معاتبًا نفسه لعدم تــذكره. لكــن بموت زوجته وبعده مرضه الخاص، فقد شغلت عقله أشياء كثيرة.

- يعبران بهوًا به مقاعد ومرآة، ويتوقفان عند المصعد الــذى لا يعجب الشيخ ركوبه، لكنه عدل عن الصعود راجلاً؛ إذ يعرف أنها ثمانية أدوار : "سيصلح ذلك من حال الدويبة".

عندما يصلان إلى أعلى، يفتح الابن الباب بتؤدة ويشعل نــورا هادئًا موصيًا الشيخ بالصمت ؛ لأن الطفل نائم. يظهــر طيــف فــى الممر.

- ريناتو ؟

- نعم يا عزيزتى. نحن هنا.

يعرف الشيخ أنها أندريبا : فمها النحيف الجدى بين الــوجنتين البارزتين تحت النظرة الشهباء. لكن ألم تكن تحمل نظارات ؟

- أهلاً بك فى بيتك يا أبى.

- أهلاً يا أندريبا.

يعانقها فتلمس تلك الشفاه خده. نعم هى. لا يزال يذكر العظام فى ظهرها، ويذكر صدرها الأملس." وما تزال تناديني: أبى على طريقة النبلاء الكريهة!" هكذا يفكر الشيخ مستاء. لا يخطر بباله المجهود الذى بذلته للتفوه بعبارة الترحيب المقدسة.. لقد ألح عليها فى ذلك ريناتو.. وهى لا تنسى الأسبوعيْن القاسييْن اللذين قضتهما وهى عروس فى كالابريا المتوحشة؛ حيث كانوا يحللونها جميعًا كالحشرة تحت المجهر. فقد بلغت الجرأة بالنساء أيضًا حَدَّ الدخول إلى الفناء بعلل مفتعلة؛ كى يَرَيْن لباس "بنت ميلانو" الداخلى الرقيق منشورًا ليجف.

– كيف تأخرتما هكذا ؟

– يعرف الشيخ أيضًا هذه اللهجة القاطعة. يتهم ريناتو الضباب، ولكن أندرييا لم تعد تسمعه. تبتعد عبر الممر متأكدة أنهما يتبعانها. تشعل النور، وتفسح المجال للشيخ لدخول غرفته، دالةً ريناتو إلى الخزانة الحائطية؛ حيث تحفظ ملاءات الأريكة – السرير.

– لم أجد وقتًا لإعداد الفراش، فالطفل تأخر كثيرًا فى نومه... اعذرنى يا أبى؛ فغدًا سأعطى درسى فى الحصة الأولى... ليلة سعيدة.

يجيب الشيخ وتنسحب أندرييا، بينما يفتح ريناتو الخزانة. يطوف الشيخ فى هذه الزنزانة بنظره. ستائر صغيرة تحجب النافذة :

منضدة صغيرة عليها مصباح، ومطبوعة غير واضحة بهـا شـيء كالعصافير، وكرسى...

لاشىء يقوله فى كل هذا، ولكنه لا يندهش

يفكر أنه ضم كتفيه ويقول لنفسه : بما أنى لست هنـاك فـى الجنوب، فما الذى يهم ؟

(٣)

يستعصى فتح الأريكة – الـسرير. الابـن يجاهـد، والأب لا يعرف كيف يساعده، ولا يريد كذلك أية علاقـة بمثـل هـذه الآلـة المختلفة تمامًا عن سريره القديم. سرير الحياة كلها من يوم زواجه : مرتفع، مصمت، مهيمن على غرفة النوم، كأنه جبل قمته أعلى رأس السرير المصنوع من خشب القسطل المصقول، ومروجـه النـضائد الوثيرة، اثنتان من صوف فوق واحدة محشوة هلبًا، كما فى كل بيـت عصرى مجهز... مستدير، حاسم، يصلح للذة وللولادة والاسـتراحة والموت !... يستحضر أيضًا مضاجع أخرى من حياته المضطربة : حظائر رعوية شيدت على أرض صلدة، مملوءة بالتبن، ألقت الجاف فى جوال التبن، الأعشاب المطروحة فوق الصخر داخل الكهوف لما كان مقاومًا، نضائد القرويين المحشوة بتبن الـذرة الـذى يخـشخش كالجلاجل تحت الطرب الغرامى... عالم كامل أجنبى عن آلـة هـذه الزنزانة، آلة هجينة ذات نوابض قابعة كفخ الذئبان. وأخيرًا يستـسلم

الجهاز، وتنفتح قطعة الأثاث هذه دفعة واحدة تقريبًا، يفــرش الابــن الملاءات ويضع دثارًا واحدًا، ويتذكر بأن بــالمنزل تدفئــة. الأمــر متساوٍ بالنسبة إلى الشيخ؛ فقد جلب معه دثاره الأبــدى الــذى تآكــل باستعماله نصف قرن. إن تركه ممكن؛ فهو جلده الثانى.لقد حماه من الأمطار وعواصف الثلج، كدح معه فى أبهى ساعات حياته وأبشعها، حتى أنه وسم بثقب رصاصة، وسيكون كفنه.

هل تحتاج إلى شىء آخر ؟ يسأله ريناتو فى النهاية.

أحتاج، أحتاج.. لكل شىء وللاشىء ! بالإضافة إلى كــل مــا يراه، ومع هذا، فقد يبتغى أشياء كثيرة ! يشتهى، أكثر من كل شىء، جرعة نبيذ طويلة، طويلة، لكن من النبيذ الأحمر، مــن هنــاك فــى الجنوب، نبيذ قوى حامض يصلح لحنــاجر الرجــال، نبيــذ ميلانــو سيكون كيمياء خالصة... بماذا يستطيع إزالة هذا الطعم السيئ الــذى بفمه؟ بشىء يكون حقيقة... وتقفز له فكرة :

– هل عندك فاكهة ؟

– إجاصات جيدة، من يوغسلافيا.

يخرج الابن ويعود حالاً بإجاصتين جميلتيْن وسكين فى طبق يضعه فوق المنضدة الصغيرة، ثم يجعل أباه يطل على الممر؛ كــى يرى باب المطبخ. فى الثلاجة تجد كل شىء، وباب الحمام أبعد منه.

– حاول عدم الإكثار من الضجيج عند الاغتسال، بينما الطفل نائم؛ لأن غرفته ملاصقة... ستراه يا سيدى غدًا ألـيس كـذلك ؟ لا نوقظه الآن.. إنه جميل هكذا ! يشبهك يا سيدى.

– نعم، من الأحسن غدًا. يجيب الـشيخ مـستاء مـن هـذه الملاحظة الأخيرة التى تبدو إطراء. "ترهـات ! حـديثو الـولادة لا يشبهون أحدًا. فهم ليسوا إلا أطفالاً. لا شىء، سوى حزمة تبكى.

– ليلة سعيدة يا أبى، ومرحبًا بك.

يبقى الشيخ وحده، وحركته الأولى هى فتح الستائر : إنه يكره كل قطعة للزينة. يرى من خلال الزجاج فناء ويرى أمامـه جـدارًا آخر بنوافذ مغلقة. يفتح ويطل. ينظر إلى أعلى إلى هذه التى تـسمى فى ميلانو سماء ليلية : إنها مظلة منخفضة من الـضباب، ودخـان يعكس ضوء الشوارع البنفسجى الصادر عن مصابيح ونيـون. إلـى الأسفل بئر سوداء تصدر منها رائحة طعـام بـارد. ثيـاب مبللـة، مواسير، روائح زيت الوقود...

يغلق النافذة فيشعر أن فتحها كان شيئًا متأصلاً من أيام الحرب : التثبت من أن الفتحة قد تصلح للفرار، فكانت النتيجة سلبية. "كذلك كان الأمر مع الجستابو فى ريمينى... تلك الأيام على حافة الجـدار الكبير، حتى نجحت فى خداعهم فأطلقوا سراحى... بفـضل تحمـل" "بترونى " "التعذيب من دون أن يفوه ولو بكلمة. مسكين بترونى."

الإجاصتان فوق المنضدة الصغيرة : لا يوجد من هذا شــيء في سجن ريميني. يتناول واحدة ويخرج موساه متجـاهلاً. الـسكين. يشرع في تقشيرها. "رائحتها ليست رديئة ! " يذوق قطعــة : بــاردة كالثلج ولا طعم لها، هذه الإجاصة الرائعة المظهر. "تقتلهــا البيــوت المثلجة". يقشر الثانية من دون أن يذوقها، ليرى ريناتو القشور غــدًا ليس إلا. بعد ذلك يفتح النافذة، ويرمي بالفاكهة إلى البئر؛ فيصل من الأسفل صوت ضربتين على سقف معدني.

"لا يصدق أحد أنها يوغسلافية !" هكذا يفكر وهو يغلق النافذة؛ لأن اسم البلاد حَرَّك ذكرى "دونكا! كان جسمها حقًّــا مثــل فاكهــة، عذبًا" ولم يكن قط باردًا جلدها الدافئ، فهي ساخنة دائمًا، حية، رفيقة النضال والمتعة... آه يا دونكا، دونكا ! تبخرت صورتها في المــدة الأخيرة، ولكنها ساكنة قلب الشيخ دومًا، محركة إياه كلما عادت إلــى الظهور من الماضي...

يلامس الشيخ، ككل ليلة وهو يخلع ثيابه، الصرة المعلقة فــي عنقه وبها تمائمه ضد العين. يدخل الفــراش بعــد أن طــرح عليــه دثائره. يطفئ النور وينظم طي الدثار؛ كي يطوق به عنقه كما فــي أكياس النوم.

"أنا أيضًا حي يا دونكا. حي." وهو يتمطقها. وتضاف ذكــرى أخرى جديدة إلى ذكرى المرأة. "حي حقًّــا مثــل تمثــال الــزوجين

بالمتحف، هذا الصباح.. فكرة عظيمة هذا القبر من الطين المطبـوخ جدًّا بدل الخشب الذى يتآكل.. الديمومة كالزيت فى الدنانِ..."

تجزر صورة دونكا فى بحره الداخلى :

"فوق ديوان، لا، لكن فوق السرير. نعم تعشينا كذينك الزوجين، أنا وهى، بلا نور غير نور القمر بسبب الطائرات وجولات الجستابو.. القمر ينزلق فوق البحر كدرب مستقيم فى اتجاهنا... ما الفائدة من نور أكثر من هذا ؟ يكفى تلامسنا وتقبيلنا.. ! كم تبادلنا القبل يا دونكا، وكم قبلنا !"

وما زال سعيدًا بالذكرى عندما عانقه النوم.

(٤)

يصحو الشيخ كالعادة قبل طلوع النهار. هناك ينهض مسرعًا ليقوم بجولته الصباحية : يطأ الأرض التى ما تزال مشبعة برطوبة الليل، يتنفس هواء حديث الولادة، ينظر إلى الفجر وهو يعم السماء، يستمع إلى الطيور... هناك؟ نعم، لكن هنا...

فى هذه الساعة تنهض روزتا.. بكت كثيرًا أمس وهى تودع أباها، لكن لعل زوجها قليل الحياء قد تركها. يا له من رجل منقاد نينو هذا ! وهو أكثر غشًّا من الذهب الغجرى. ما الذى قد تراه فيه ابنتى حتى تهيم به كالغبية؟ النساء، النساء ! من حسن الحظ أنهما لم

ينجبا. وإلا لجعلا أبناءهما أشقياء لقد أنجبت لى قليلاً زوجتى روزا، لم تكن ولاَّدة؛ لأنها من جنس الأثرياء. إجهاض، نعم، كل سنة، لكن المحصول ثلاثة فقط، وفرنشيسكو لا يصلح لشيء، يعيش هناك في نيويورك. ليس لى سوى هذا الابن ريناتو. وهذا الصغير، كيف سيسمى ؟ لقد أرسلوا ببطاقة العمادة طبعًا، لكن لم أكن أنا لأتذكر، وأنا غارق فى خضم قضية "صوتو غراندى" ضد كانتانوتى... من المؤكد أن اسمه ماورتسيو أو جان كارلو أو ما شاكل ذلك من أسماء، اسم من أسماء السادة، حسب ذوق أندرييا.. حسن فهى فى الأقل، استطاعت إعطائى حفيدًا بينما نينو.."

وصل إليه من الممر بكاء طفل، كما لو أن أفكاره أثارته. لا يبدو عليه الغضب ولا النواح، بل هو بكاء موقع هادئ. ويفكر الشيخ:

هو تأكيد لوجود "يعجبنى. هكذا أبكى أنا لو بكيت يومًا." وهذه الخطى ؟ أندرييا.. ؟ لا، صوت آخر يترنم، هو ريناتو.. يا للعجب ! كل الشيوخ أصيبوا بالصمم، أما أنا فيستدق سمعى، أصلح الآن أن أكون ربيئا أكثر مما كنته وأنا طليعة فى الفرقة... ريناتو حاضن، يا للحياء فى ميلانو هذه ليس للرجال ما يجب أن يكون لهم، وأندرييا صيرته لى ميلانيًا"

تهدئه الدويبة متحركة فى جوفه. "أنت محقة يا روسكا، فكل شيء سواء... أنت جائعة، نعم، صبرًا ! كم كانت تخز روسكا الأخرى بأسنانها فى جسم الفقيدة ! لما يعود ريناتو إلى مضجعه؛ فسأذهب لأحضر طعامًا لكلينا. لعل الطفل يبكى من الجوع، ألا

تستطيع أندريبا النهوض وإعطاءه ما هو له. بالرضـــاعة الزجاجيـــة طبعًا، فهذه المرأة ليس لها شيء آخر."

ينقطع البكاء ويسمع ريناتو عائدًا إلى فراشه. يـنهض الـشيخ ويرتدى سرواله ويذهب إلى المطبخ. لا يشعل النور؛ كى لا يفـضح نفسه، فيكفيه نور الشارع المنتشر. يفتح الخزانـة : فـى مـستودعه بالقرية تهاجمه هبة من الروائح : بصل وزيت وثوم. هنا لا رائحـة. كلها قوارير وعلب وصناديق بملصقات ملونة، بعضها بالإنجليزيـة. يتناول طردًا يعد عنوانه بأنه أرز ظهرت فى داخله حبـوب جوفـاء نصف محمصة ومسلوقة. الجبن فى الثلاجة قطعة مـصفرة، طريـة وبلا طعم تقريبًا. فمن حسن الحظ أنه يستطيع أن يخلطه ببعض مـن بصلة وجدها فى صندوق من البلاستيك محكم السد..! النبيذ توسكانى وفوق هذا فهو مثلج... ومن نوع الخبز، خبز مصنع : "بـانيتو"... آه لو استطاع أن يضع يده على رغيف حقيقى، من مخبز ماريو ! يا له من حساء لبن!... وهذا الأسود فى الأسطوانة الشفافة لهذه الآلة هـو من دون شك قهوة، لكن كيف العمل لتسخينها ؟ نفير مفاجئ : منبـه فى غرفة النوم. يتحرك المنزل ويظهر ريناتو قائلاً بصوت خافـت: "صباح الخير". يشغل آلة القهوة ويخرج آلة أخـرى مـن الخزانـة، يواصلها بالكهرباء ويضع قطعتين مربعتين من البانيتو. يهرب إلـى الحمام فيسمع جريان الماء. تظهر أندريبا وتصرخ فى غير اعتدال :

– لكن، أبتاه ! ماذا تفعل عندما تستيقظ هكذا مبكرًا؟

– تقدم من دون انتظار الجواب، وتصطدم فى الممر بزوجها وقد همس كل منهما للآخر ببعض الكلمات. تتضاعف الأصوات : مبادل مفتوحة، خرير فى البالوعات، ضجيج آلة الحلاقة، مضخة الحمام... ثم الزوجان فى المطبخ وقد ضايق كلاهما الآخر وهما يحضران فطورهما. يقبل الشيخ فنجانًا من القهوة المائية ويذهب إلى الحمام ليغتسل بسرعة. بعد قليل يدخل ريناتو.

– يا أبى، إن لنا ماء ساخنًا للبيت كله !

– لا أريد ماء ساخنًا، إنه لا ينعش.

يعدل عن إفهام ابنه أن الماء البارد يذكره بجداول الجبل، وعن رائحة شعلة حديثة الإيقاد ورؤيا ماعز تأكل أطراف النجم التى ما تزال بيضاء بالجليد. فى هذه الأثناء، ينتقل الابنان جيئة وذهابًا، بين المضجع والمطبخ، ويرتديان ملابسهما وهما يعضان على الخبز المحمص الذى خرج من الآلة.

– تعال لترى الطفل يا أبى؛ فسنغير له قماطه، وتعطيه طعامه.

"أتدر حلمات أندريا حليبًا؟ "يتعجب الشيخ إذ لم يرهما يحضران الرضاعة فيفكر : "أتدر حلمات أندريا حليبًا ؟ "

يمضى خلف ريناتو وهو فى حيرة واضطراب إلى غرفة النوم الصغيرة؛ حيث أندرييا بصدد إنهاء تغيير ثياب الصغيرة فوق منضدة عليها فراش وثير.

يبقى الشيخ مذهولاً.. مشلولاً من المفاجأة.. لا أثـر لحـديث الولادة، بل هو طفل قادر بعدُ على الجلوس. طفـل حـائر بـدوره لظهور هذا الرجل. يرفض ملعقة الحساء التى تقدمها له الأم، ويسمر فى الشيخ عينيْه المستديرتين السوداويْن. ويطلـق همهمـة خفيفـة، ويصارع بيديه برهة، وأخيرًا يتفضل بفتح فمه للأكل. ويصيح الشيخ أخيرًا :

ما أكبره !

أليس كذلك يا أبى ؟ "وتفتخر الأم، وليس له إلا ثلاثـة عـشر شهرًا.

– يفكر الشيخ من دون أن يُفيق من المفاجأة." ثلاثـة عـشر شهرًا... حفيدى، دمى هنا، فجأة.. كيف لم أعلم ذلك قبـل الآن ؟... إنه جميل، أعتقد ذلك!.. لماذا ينظر إلىَّ بهذه الجدية، لمـاذا يحـرك يديه ؟ ماذا يريد أن يقول لـى ؟.. هكـذا كـان أولادى رينـاتو و الآخرون ؟.. هو الآن يبتسم : يا لوجه قليل حياء!"

– انظر إلى جدك يا برونانتيينو، لقد جاء ليتعرف عليك.

- بروناتينو ؟ يصرخ الشيخ وقد فاجأته الدهشة، فيرفـــع يـــده نحو صرة تمائمه فى عنقه؛ إذ هى التفسير الوحيد للمعجزة.. لمـــاذا سميتماه بروناتينو، لماذا ؟

ينظر إليه فى تعجب، بينما يطلق الطفل ضحكة. يسئ رينـــاتو تأويل ذلك فيعتذر :

- المعذرة يا أبى. أعرف أن المولود الأول يسمى باسم جـــده، وأردت تسميته سالفاتورى مثلك يا سيدى، لكن خطرت فكرة لأندرييا تحمس لها العراب، زميلى رنزو؛ لأن برونو أحزم وأكثر جديـــة... المعذرة، أنا متأسف.

- يقاطعه الشيخ ويقول باندفاع وصوته مختنق :

- أى أسف وأى عفو؟! فأنا الآن متمتع، لقد سميتماه باسمى !

تلحظه أندرييا مذهولة !

كان عليك أن تعرف ذلك يا ريناتو، فالمقاومون كانو ينادوننى بـــ "برونو". ألم يقصه عليك أمبروزيو مرات كثيرة ؟

- نعم، لكن اسمك سالفاتورى.

- ترهات ! فسالفاتورى قد أسمانى به أيًا كان. أما برونو فقد صنعته أنا لنفسى، فهو لى... بروناتينو ! يختم الشيخ هامسًا متمطقًـــا التصغير، ومفكرًا فى قوة نجمه السعيد التى ألهمت قرار أندرييا. قـــد

يبدو له الطفل الآن، وهو ينظر بعينيه الماكرتين، كما لو أنه يفهم كل شيء. ولم لا ؟ إن كل شيء ممكن؛ إذا ما نفخت فيه ريح الحظ الطيبة !يضع اصبعه بخجل على خد الطفل. لا يذكر أبدًا أنه لمس بشرة طفل فى هذا العمر إن كل ما يتذكره أنه قدَّم أبناءه لأصدقائه فى بعض المرات على عجل.قبضة اليد خفيفة، لكنها أشبه شيء بفرخ النسر فى العش، إذ يقبض على الأصبع الخشن، ويدنو به صوب فمه. يبتسم الشيخ متلذذًا :

– يا لقوة هذا الصعلوك !" يذهله اكتشاف أن للطفل عضلات وأعصابًا. إنها مفاجآت هذه الدنيا؟

صار إصبعه طليقًا والطفل متعلق بالشيخ، يتحاشى اللعقات.

– هيا يا كنزى، زد قليلاً – تطلب الأم ناظرة إلى ساعتها – من أجل جديدك.

اليوم صباح الاندهاش، فأندريا تتحدث بلهجة محببة ! لكن الطفل يُميل رأسه بقوة، وفجأة يتقيأ شيئًا أبيض. يقول الشيخ مذعورًا :

– هل هو مريض؟

– يا أبى من فضلك..يضحك ريناتو – إنها غازات تملأ بطنه، وترجُم معدته، ألا ترى؟ ها هو. يستأنف الأكل. كأنك لم ترزق أبناء يا سيدى!

"لا لم أرزقهم – يفهم الشيخ مكتشفًا أنه لم يعش قط ما يحياه الآن فنحن الرجال فى القرية، ليس لنا أبناء لكننا نتباهى بالأطفال لحظة تعميدهم فقط، خاصة إذا كانوا ذكورًا، لكنهم يصبحون مسئولية النساء بعد ذلك، ولا نراهم إلا عند حبوهم فى البيت، ثم يؤكدون وجودهم عندما يأخذون الحمال بالرسن ليسقوه ماء؛ إذا رموا العلف فى الحظيرة للدجاج، وتغمرنا محبتهم إذا لم يخامرهم الخوف من الحمار والديك... والبنات أسوأ من ذلك، لا يولدن لأحد حتى يشرعن فى الانحراف كل شهر؛ الأمر الذى يتعين معه السهر بمائة عين؛ كى يحافظ على شرفهن... إذن أنت أول ابن يابروناتينو، الكل متوقف عليك، حتى والداك نسيا سرعتهما.."

– أتريد أن تأخذه ؟

– هكذا ؟ فجأة ؟

– قبل أن يستطيع الشيخ إعداد نفسه، كان الطفل بين ذراعيه حملاً خفيفًا، ولكنه صعب الحمل. "مادونا (يا إلهى) كيف يحمل هذا ؟"

– ارفعه أكثر، هكذا (يجهزان له الطفل) أفْرِغ ذراعيك يا رجل ! (يشعر أنه أخرق جدًّا)... الرأس الصغير على كتفك.. (كما

فى الرقص، يلتحمان كخد إلى خد.) هكذا سيخرج الغـازات، وهـذه المنشفة فوق صدرك كى لا يلوثك.. بلا بكاء يا كنزى. نعم، وجـدك وهو يحبك كثيرًا... تحرك إلى الأمام وإلى الخلف يا أبى.. نعم، هكذا أرأيت كيف سكت ؟ يتأرجح الشيخ فى حذر. أندرييا غابت. رينـاتو يذهب. عاد إليهما إيقاعهما السريع والشيخ يشعر بنفسه حائرًا كما لم يَحرْ قط، ويتساءل عن العاطفة التى تمتلكه.. من حسن الحـظ أن لا أحد يراه من أهل القرية فلا يستطيعون السخرية منه، لكن ماذا يفعل رجل وحده فى مثل هذه الحالات ؟ يقرب خده من خد الطفـل، لكـن يبعد هذا الأخير خده، وكفت هذه الملامسة للتعرف على بشرة ألـين من بشرة المرأة. وهذا العبير الذى لا يوصف والذى يغمر الشيخ :

– لدن، لبنى، فاتر وبه قليل من الحامض الحلو مـن اختمـار حيوى، كما تفوح المعاصر عن بعد ! رائحة خفيفة، حلوة، ومع هـذا فهى مسكرة تأخذ بجماع النفس.

يفاجئ الشيخ نفسه ضامًّا إلى صدره هـذا الجـسم الـصغير الساخن والخائف، فيرخى ذراعه ؛ خوفًا من خنقه، ليعود إلى ضـمه ثانيةً كى لا يسقط منه... هذا الحمل لا يرتعش، لكنه ثقيـل كالطفـل عيسى فوق القديس كرستوبال، أحد القديسين القلائل الذين يعجبـون الشيخ؛ لأنه كان كبيرًا وقويًّا ويعبر الأنهار.

يركل الطفل بطن الجد ركلة مباغتة، باعثًا فيه ذهولاً خرافيًا؛ إثر ركلة فى مكان عضلة الدويبة. أيفهم الطفل هذا أيـضًا ؟ يـدير رأسه بسرعة؛ كى يتفحص الوجه الصغير، إلى ملامسة خد الطفـل، مثيرًا أنين احتجاج يسهم فى تكدير صفوه.

إنه خدك يا سيدى. هكذا يقول صوت مجهول، بينمـا تريحـه يدان من الثقل الطرى. أنا أنونسياتا المـساعدة المنزليـة. إن الـسيد والسيدة قد ذهبا الآن.

تريح المرأة بمهارة الطفل فى مهده.

– يداعبه النوم، سينام حالاً... وبإذنك، سأواصل التنظيف.

– شىء فاجأ الشيخ... هذا هو ! كيف لم يهتد إليه من قبل ؟

– أينام الطفل هنا ؟ وأمام الإنعام الصامت يلح فى أثناء الليـل أيضًا... لكن – ينفجر حانقًا – ألا ينام هؤلاء الأطفال الـصغار مـع والديهم هنا فى ميلانو ؟ من يعتنى بهم إذن ؟

– هكذا كان الأمر سابقًا، لما حاضنة. الآن لا يأمر الأطبـاء بتركهم ينامون وحدهم.

– يا للوحشية ! وإذا بكوا، أو أصابهم مكروه ؟

– فى هذا العمر، لا ! اسمع، لا أحد يحسن العناية بالطفل خيرًا من السيدة أندرييا. فهى تقيسه، تزنه، تأخذه إلى أحسن طبيب.. ولها كتاب مملوء بالصور يشرح كل شىء !

"كتاب؟ يفكر الشيخ باحتقار، بينما تخرج المرأة من الغرفة – إذا كان الأمر يحتاج إلى الكتب، فكيف تكون قد ربت أولادهن كل الأمهات الأميات؟ واضح: لهذا يربينهم أحسن، ولا يرمين بهم بعيدًا قبل الأوان !

تملؤه الآن شفقة الوجه الصغير النائم، ويده الصغيرة متشبثة بطرف المفرش بحركات اضطراب فجائية... "هكذا يتركانه أعزل فاقد الحماية !"

يمرر يده على خده، إنه فعلاً يخدش.

"المسكين يترك وحده طول الليل ! إنه لا يتكلم بعد!... ولا يسمعه أحد إذا بكى، وماذا لو أصابه مغص وليس معه أحد، أو اختنق بالملاءة ؟ وإذا ما عضه جرذ أو حية، كما وقع مع أكبر أبناء بيكوليتى؟ حسنًا، هنا لا توجد الأفاعى؛ فهن لا يحتملن ميلانو، لكن تحدث أشياء كثيرة..! ساحرات، قد يكون هذا المكان ضاجًّا بهن، أو ضائقًا بوجودهن. مسكين هذا البرئ المهمل !"

يسمر عينيه فى هذا اللغز الراقد فى هدوء. كل هذه السنين، وثلاثة أبناء فى المنزل و يعلم الله، كم منهم فى أعشاش أجنبية، والآن فقط يولد له أول طفل... ما الذى سيحدث الآن ؟

يفتح فجأة بروناتينو أجفانه، ويرمى بنظرة حادة جـــدًا." أهــو قارئ لأفكارى ؟ هذه ترهة ولكن هذا الطفل..." إن الكرتين الدكناويْن تخجلان الشيخ؛ فيتقلص كأنه تحت إصبع القدر. ثم تنغلــق الأجفــان رويدًا، بينما تشرق ابتسامة على الفم الصغير. إن الطفل وقــد أمــن نفسه لدى هذا الرجل، راح يستسلم فى النهاية لنوم هادئ.

يتنفس الشيخ عميقًا. يستعيد يقظته من أن أنــدرييا لــم تكــن تعرف شيئًا، ومع هذا، ومن بين أسماء كثيرة، اختارت هذا الاسم... يهمس :

– إذن اسمك بروناتينو، وستصبح برونو.

(٥)

فى اليوم الموالى يرمى الشيخ بنفسه إلى الشارع.

– أتعرف كيف تعود يا أبى ؟ تذكر ٨٢، شارع بيافى.

لا يهتم بالإجابة. أتحسبه ريفيًّا ؟ تضيع هى قبلى فى الجبل !

يصل إلى نهاية الشارع. ميدان كبير به حركة مرور شــديدة. من الجانب الآخر حدائق. من هناك لا يجد ما يبحــث عنــه. يعــود أدراجه متنقلاً فى شوارع أصغر وواعدة. عاد الرعاة إليــه، لافتاتــه تحصره فى الجزئيات. نوافذ واسعة، أبوا، لافتات. كى يتذكر الطريق

الذى مر منه؛ لأن الشمس فى ميلانو لا تشرق طويلاً فتهدى النـــاس. يجد أخيرًا حلاقًا فى شارع صغير، شارع روسينى. اسم يبشر بخير. لقد أعطت طريقته نتيجتها.

نعم، نعم، بشارة خير، بل بالعكس تمامًا. هـــا هى فخامة التجهيزات تضعه فى حذر، وتجعله متشائمًا من كثرة الكـــلام الأنيـــق الفـــارغ، عندما عرضت عليه مواد التجميل، وعلى الرغم من رفضه لها كلها. فعند نهاية الخدمة طلب منه ستة آلاف ليرة لمجرد الحلاقة.

ستة آلاف ليرة، ومن دون ثبات يدى آلدو فى روكاسيرا، الذى يمرر لك أيضًا حجر الشبة بربع القيمة، ويترك لك وجهًا كاليـــشب(١) كل أربعاء وكل سبت.

– ها هى خمسة آلاف وزيادة – يقولها بلهجة جافـــة طارحًـــا الورقة المالية على منضدة المراهم – لا أنتظر الباقى؛ كى لا أبقـــى ولا دقيقة أخرى بين لصوص. ليت الأمر كان بين الشياطين، فهناك، فى الأقل، من يقامر بالحياة!... هل من مطالب ؟

– اسمع أيها السيد.. يشرع العريف، ولكنه يسكت عندما يرى الشيخ يدخل يده فى جيبه بحركة حازمة.

---

(١) حجر كريم، مختلف الألوان.

- دعه يا عريف... يهمس شاب متأنق يرتدى طيلساناً أخضر. يسود صمت طويل حول الشيخ الجامد، وهو محط نظرات تصطدم به فترتد. أخيرًا يخرج ببطء، ويتجه نحو منزله.

- يشترى فى طريقه آلة حلاقة بسيطة. عرض عليه ريناتو آلة حلاقة الكهربائية، ولكنه يعرف أن هناك من صعق بهذه الآلة فى غرفة الحمام. ثم إن آلته هذه لا تصدر صوتًا، وهو يريد أن يحلق ذقنه يوميًّا من دون أن يوقظ أحدًا.

يا له من إخفاق فى دكان الحلاقة ! واضح ! فاليوم قد بدأ سيئًا.

كان الشيخ منفردًا بريناتو وهما يتناولان الفطور، وكانت أندريا تستحم فسأله : لماذا لا ينام الطفل معهما، كما ينام الأطفال دائمًا ؟ يبتسم ريناتو متلطفاً:

- الآن يشرع فى تربيتهم مبكرًا. يجب أن يناموا وحدهم عندما يبلغون هذا العمر يا أبى؛ كى لا تتكون لهم مركبات.

- مركبات ؟ وما هذا ؟ شيء معد من الكبار ؟

- يحتفظ ريناتو فى شفقة بجديته، ويشرح بكلمات بسيطة، تمشى مع عقلية الريفيين. الخلاصة هى وجوب النأى عن وصاية الوالديْن.

ينظر الشيخ مركز النظر

لمن تبعيتهم إذن؟ فهو لا يمـشى بعُـد، ولا يـتكلم، ولا يستطيع القيام بنفسه.

للأبوين طبعًا، لكن من دون مغالاة.. هيا لا تشغل بالك يا أبى. الطفل معنى به كما يجب، لقد درسنا الأمر جيدًا أنا وأندريبا.

– نعم، فى ذلك الكتاب طبعًا.

– وهو كذلك، وفوق هذا فالطبيب يوجهنا.. هكذا الأمـور يـا أبى، يجب عدم إثارة الكثير من العطف فى هذا العمر.

يسكت الشيخ. نصف عطـف ؟ وأى عطـف يكـون هـذا ؟ مراقب، متحفظ ؟ لا ينفجر؛ لأنه يرى أنهما على الرغم مـن شـىء الأبوان. ولكن هكذا بدأ هذا اليوم سيئًا، فجعله غاضبًا طوال صباحه، ولو أنه أفرج عن نفسه طبعًا إزاء السرقة فى دكان الحلاقـة. لكـن ومن حسن الحظ، فقد صالح محل آخر بينه وبين الحـى. إنـه فـى شارع سالفينى، شويرع آخر تجذبه إليه لافتة دكان بقـال متواضـع، دخلته امرأة ينم مظهرها عن ذكائها فى الشراء. كل شىء ينبىء بأنه محل كما يجب.

فعلاً، فما إن دخل حتى غمرته روائح البلاد : ألوان من الجبن الرائع، زيتون فى جرار، أعشاب وأفاويه، فواكه عارية بـلا أغلفـة شفافة ولا عناوين ولا ورق مقوى مُعد جيدًا كى يطفف الميـزان...

وكما لو لم يكن هذا كافيًا، فامرأة، ويالها من امــرأة وراء واجهــات السلع، يا لها من امرأة !

في الأربعين. أنضج عمر.. طرية كتفاحاتها. تعتذر لزبائنهــا الواصلين للتو، أمينة من دون شك، وتبتسم للمشترى الجديد بعينــين متقدتيْن بالذكاء أكثر مما تفعله بفمها الشره.

– ماذا يريد السيد ؟

– وصوتها ؟ أعجوبة حقًّا لمهرة جيدة.

– أريد ؟ كل شيء يبتسم بدوره مشيرًا حوله.

– لأن المتجر كنز : به كل ما يبحث عنه وأكثر بكثير. ما لم تره واجهات عرض أخرى. فيه حتى الخبــز الحقيقــى : مــستدير، عصى، حلقات وحتى الخاص الذى يمــلأ بمقلــى مــرق الطمــاطم المتقاطر والذى يفيض عند عض الخبز. كمــا يقــول المثــل فــى كاتنزارو: بالمورزدهو تأكل وتشرب وتغسل وجهك".(١)

---

(١) المورزدهو أكلة شعبية مكونة من لحم بقر وبصل وفلفل لاذع وجبن غنم مطحون.

إن العبارات الكالابرية فى قصتى مأخوذة من كتاب catanzaro dăltiri tempi الذى يسرنى أن أعبر لمؤلفه Dominico pitelli عن شكرى عنها وعن متعتى كأحد قرائه. فالكتاب يحتفظ فى صفحاته لا بأريج مدينة نبيله، بعادتها حية ؛ فلتمنح آلهة كالابريا القدامى جزيل الثواب للسيد "بيتالى"

تخرج السيدة من وراء واجهات السلع لتخدمه. ردفان حسنان بلا سمنة. ربلات متناسقة، لكن الكعب نحيف. وهذه اللهجة المؤثرة التى تدفعه إلى السؤال :

– أنت يا سيدتى من الجنوب، أليس كذلك ؟

– مثلك أنت يا سيدى ومن تارنتو.

– طيب، أنا من ناحية كاتنزارو، من روكاسيرا فى الجبل.

– تساوى الأمر ! تضحك. أبوليا وكالابريا ؟ مثل هذا وهذا.

تجمع، بحركة تعبيرية، بين سبابتيها وهى تغمز. هذه الحركة التى تجمع بين منطقتين تبدو كأنها تجمع بينهما أيضًا فى مشاركة ملتبسة.

يختار الشيخ مؤونته فى هدوء. يناقش الأنواع والأثمان. وهى تعتنى به وتجاريه فى مزاحه، لكن من دون أن تمنحه ثقة بالغة، وتنظر إليه محتارة حتى لم تعد تستطيع السكوت :

– كيف تقتنى بنفسك المشتريات ؟ أتعيش وحدك؟

– لا، أعيش مع حفيدى !... أعنى مع أبويْه.

– أضاف الجملة الثانية فى خفة، وعاد يفكر فى تلك الكلمات الثلاث : "أعيش مع حفيدى". من المؤكد أنه لم ينطق بها أبدًا قبل الآن. "فيدهش – هو حفيدى وأنا جده nonnu...

– لا شك وأن الطفل جميل جدًّا – تقول مادحة وناظرة إليه تعايره.

"جميل ؟ هل هو جميل بروناتينو ؟ حيرة امرأة. بروناتينو شيء آخر. بروناتينو هو... الطفل وكفى."

– عجبًا... – يجيب مراوغًا وهو يفكر، هذه تعرف كيف تتبع. لو غفلت لأعطتني ما تريده، ولكني سأعطيها ما يتعبها. فأنا لا يخدعني أحد بالتودد. طبعًا، هذا ما عليها، فهي تعيش بالناس."

يتذكر زوجة بيبو في المقهى وهي تقدم المشروبات متباهية بصدرها الحسن."أنت تبيع بنهدي زوجتك"، يقول الأصدقاء المقربون للزوج وهو يفتعل الغضب كي يساير المزاح؛ لأن دجولياتا شريفة جدًّا والكل يعرف ذلك : فالجملة تقال من دون سوء قصد. علاوة على ذلك فهذه حقيقة. فالرجل قد سعد حظه في هذا، كما سعد حظ آخرين في شيء آخر. لكن هذه المرأة في المتجر أكثر رقة. رقيقة نعم. يا لهما من يدين تلفان البضاعة وترجعان الباقي. !

"هل هي شريفة كما هي رقيقة ؟ يشك الشيخ الذي يصيب دائمًا في مثل هذا الموقف. هنا في المدينة حياة أخرى.." لكن يطفو في ذهنه موضوع آخر متسلط فيسأل فجأة :

– اعذريني عن سؤالي، يا سيدتي، لكن من أجل حفيدي : إلى أي عمر نام معكما أبناؤكما الصغار ؟

– آى، لم نرزق أبناء !.. لم يهَبنا الله منهم أحدًا.

"فى أى شىء يفكر الله وأمامه هذه الأنثى ؟" يتأمل الشيخ وهو يعتذر مرتبكًا. تزيل هى الأهمية... ولكى تقطــع الــصمت، تغيــر الموضوع :

– أنا آسف لعدم تمكنى من إرسال الطرد إلى بيتــك. عنــدنا صبى لهذا الغرض، لكنه اليــوم مــريض وزوجــى خــرج ليــأتى بالبضاعة. امرأة تهتم بالجزئيات : فهى تعرف أنه من غير الجــدير بالرجل حمل الطرود فى الشارع. يودعها الشيخ :

– فى رعاية الله يا سيدتى.... سيدتى...

– مادالينا فــى خــدمتك، لكــن لا وداع، بــل إلــى اللقــاء arivederci لأنك ستعود يا سيدى، أليس كذلك ؟

– بكل تأكيد، ومن لا يعود لكى يراك arivederci؟

وصل الشيخ إلى الشارع، والابتسامة لا تزال على فمه. "لكن كيف لا تنجب هذه المرأة وهى بهذا اللحم، ومن الجنــوب ؟.. فــى النهاية، ليس الأمر من شأنى وحُسن العلاقات بيننا، ثم إن لــى فــى المتجر من كل شىء، وبأثمان مناسبة. من الآن فــصاعدًا ســيكون إصباحى على ما يرام.

لقد اتخذ قرارًا منذ أن أخرجت أندرييا مــن الخزانــة جبنــة، الماعزى وبصلة اللذين يفطر بهما – "يا إلهــى، يــا أبــى، الغرفــة موبوءة." صاحت هكذا وهى تزعم دفنهما فــى صــناديق كالتــابوت داخل الثلاجة. فكان قراره، إذن، إخفاء مؤونته تحت الــسرير، بــين حديد الدرع المعقد، بعد أن يضعها فى أكياس من البلاستيك؛ كــى لا تخرج الرائحة، وهذا يساعد أيضًا على إخفاء السيجارة؛ إذ إن أندرييا تتحمل تدخينه عندما لا يكون الطفل موجودًا من حسن الحظ. حاســة الشم ضعيفة عند كنته وعند المساعدة : حياة ميلانو تقتل الحواس.

بهذه الطريقة، ومن الآن ستعدو الروائح والطعوم مادة لفنائهم، ومستخدمًا موساه فى قطع الخبز والمغمس بنبيذ أحمر يسد الحلق. لم تجد أندرييا عذرًا كى تطرده من المطبخ.

أتحرر فى الصباح، فى الأقل، من البنيتــو، ومــن عجيــنهم المجهز للتسخين ومن مجمداتهم ومن كل مخلفات المصنع..." ! أنــا وأنت يا روسكا سنأكل طيبات الأرض، ولو مرة واحدة فى اليوم. !"

يجلس على مقعد بالميدان الكبير، ويشرع فى لف سيجارة؛ كى يدخن خارج المنزل. بعض المارين ينظرون إليه متطلعين. ولما أراد تمرير لسانه على حافة الورق المصمغة أربك حركة يده فى الهواء :

"إذن قد تكون أندرييا على حق فــى هــذا، فالــدخان يــضر بالطفل... ماذا ترين أنت يا روسكا ؟ الحال هى أن الدخان يهــدئك،

ولكن الطبيب يقول إنه لا يصلح لى. والآن علاوة على الكانتـــانوتى، فإننى أحتاج إلى البقاء من أجل برونـــاتينو...! اعترفـــى بـــذلك يـــا روسكا، الدخان مضر له، ولو أننا لا ندخن إلا فى حجرتى فقط."

يبل الورق، يلف السيجارة، ويشعلها بعـــود كبريـــت. يتـــنفس بعمق، لكن طعمه ليس معتادًا. يشعر بأنه يقترف ذنبًا إذا دخن : إنها خيانة لبرناتينو.

(٦)

إن التخلى عن التدخين شيئًا فشيئًا تضحية، لكن هناك مقابـــل ذلك، متعة الفطور السرى، وخاصة الفطور بعد ثلاثة أيام من التوقف عن الأكل. سيأخذون بعضًا من دمه على الساعة التاســعة للتحليـــل الذى وصفه الطبيب الشهير، الذى رافقته أندرييا البارحة إلى عيادته. لقد وصفته فى الحقيقة تلك المساعدة أو تلك السمينة، مقارنة بنحافـــة أندرييا، لكن حديثهما واحد؛ إذ بعد استقبال كبيـــر مـــنظم وممـــرات وطقوس أخرى تمهيدية لم يصلوا إلى دخول معبد الطبيـــب. الـــشيخ يضحك مفكرًا فى أندرييا، وكيف سيعجبها عندما تنهض، وتظهر فـــى المطبخ فتلاحظ بأية وداعة يمتنع عن الأكل.

"إن فكرة عدم الفطور قبل التحاليل – يفكر وهو يتناول جبنـــة مع البصل والزيتون – ما هى إلا ترهات الأطبـــاء. مـــسرحية كـــى

يجنوا مالاً أكثر. تحاليل، لماذا ؟ ففى كل الحالات، ستكون النتيجة سيئة، أليس كذلك يا روسكا ؟ ستتكفلين أنت بذلك !"

إنهم لا يستخرجون الدم فى العيادة الشهيرة، لكن فى المستشفى الكبير. يأخذه إلى هناك ريناتو فى سيارته؛ فالمستشفى فى طريقه نحو المصنع فى منطقة بوفيزا الصناعية. يوقف السيارة، يدخلان، ويدله عبر الممرات وشبابيك موظفى المستشفى حتى قاعة الانتظار نفسها؛ حيث يعيد عليه مرة أخرى تعليماته :

– تذكر يا أبى، عند الخروج، خذ عربة أجرة عند الباب نفسه لتوصلك إلى المنزل.

يستمع الأب بانتباه، لكن ابتسامته تصير هازئة عندما يبتعد ريناتو. "كم كنت أتمنى أن أرى هؤلاء فى الفتيان أثناء الحرب، هاربين من الألمان خلال مدينة مجهولة أستقل عربة أجرة ! وفى هذا أفكر، عشرة آلاف ليرة فى الأقل!"

لقد شرحت له السيدة مادالينا بالأمس – تلك المراة التى تحل كل المشكلات – أن الحافلة رقم ٥١ تمر أمام المستشفى، ولها موقف فى ميدان بيانكامانو، ومن هناك مرورًا بشارع موسكوفا والحدائق يصل رأسًا إلى منزله. لهذا صم أذنيه عن ريناتو، وجعل مريضًا آخر فى سنة قد اطلع على كل شيء؛ فينظر إليه بعد ذلك بعينيْن متواطئتيْن.

إن الشيخ، لو ترك حسب إرادته لذهب فى الحال مـن دون أن يتعرض للوخز، لكن الطبيب الشهير سيطالب بالتحاليـل كـى يتبـع قواعد عمله المعهودة. رتابة ومهزلة، هذا ما يغضبنى... أيظنـوننى شيخًا خرفًا؟ أيظنون أنى جئت للتداوى ؟ ملعون ! لو لم يكن من أجل ابن العاهرة كاتانوتى الذى ما يزال يتنفس، يا للعنة، لم أكن لأوافـق على الخروج يومًا ما من القرية؛ حتى أقضى نحبى فى متعة فـوق فراشى، بين الأصدقاء، وجبلى أمام ناظرى، "لافيميناموريتا" الهـادئ تحت الشمس والسحاب."

لأن الكانتانوتى ما يزال يتنفس، ولو أنه لا يقف على رجليـه؛ فهو مقعد مشلول حتى الحزام. لكنه ما يزال يلهث، وهـو بنظارتـه السوداء فاشستى حقيقى كان على الشيخ أن يواجه هذا المنظـر يـوم سفره؛ لأن اللعين أنزله أبناؤه على كرسى إلى الميدان مـا إن بـزغ الفجر. وهناك لحقت به مجموعة من المتملقين، وأجروا محادثة عنـد باب الكازينو؛ حتى يجئ وقت التمتع بالعرض الكبير.

العرض الكبير هو توديع الشيخ الـذى يـستيعده الآن، وهـو ينتظر نداء الممرضة. الميدان كما فى صورة قديمة صـفراء، فـى وسطه سيارة رينانو يحيط بها الأطفال، ويحدد أرضه غير المـستوية مستطيل غير سوى بواجهاته المتطلعة بأبوابها ونوافذها، التـى وإن بدت مغلقة، فهى مراصد لا ترحم تطل على الحياة المحليـة، وهـى

ترقب فى ذلك اليوم رحلة الشيخ سالفاتورى النهائية. الجانبان الكبيران للمستطيل، متناكران كالعادة : جانب الكنيسة والكازينو، يرأسه الكانتانوتى، وجانب مقهى بيبو مع البلدية، أرض الشيخ ورفاقه مع منزل سالفاتورى نفسه، بجانب المقهى وهو منزل قد ورثه من حميِّه.

بدأ نور الصباح يشق طريقه بوضوح، بينما الشيخ يحاول ربح الوقت، مع الأمل المجنون بأن يتصاعد شل العدو على نحو فجائى كسدادة المشروب الغازى، إلى أن يخنق القلب البغيض : لكن من دون جدوى. يلمس صرة تمائمه من فوق قميصه، راجيًا هذه المعجزة. أخذ الشيخ دثاره وموساه، بعد أن عاند ابنته بشأن أخذه "لالوبانا" أيضًا، وهى بندقية قديمة كانت أول سلاح نارى يمتلكه فى بواكير دخوله عالم الرجولة. فقد ريناتو صبره، وهو يتذكر ما أوصته به أندرييا فى روما؛ مما أدى إلى تأخيرهما. ولما بدأت الشمس تبزغ فقد احتماله :

–أبتاه ! أليس من الأجدر أن أقرِّب السيارة من خلف البيت عند باب الحظيرة، ولنخرج لتونا ؟

إن هذا الاقتراح المعيب جعل الشيخ، الذى صعق ابنه بنظرة، يتخذ قراره. ترك "لالوبانا" وقبَّل روزيتا ووجه إلى ختنه حركة من يده وصاح بعنف :

هيا بنا، لكن من الباب الكبير. وأنت يا روزتا لو بكيت من الشرفة لعدت صاعدًا، ولطمتك لطمتين. إن لم تستطيعى التحمل فلا تشرفى.

نزل الشيخ مرة أخرى الدرجات مدوية خطاه، وخطا مولى وسيد ثم برز من ظل البهو منتصبًا أكثر من أى وقت مضى، فجاءه الأصدقاء من المقهى منتهجين نهج الرجال، وهم كذلك: كانوا كلهم جاهزين بابتساماتهم ومشروعاتهم إلى ما بعد عودة سالفاتورى وقد تعافى. جلس ريناتو أمام المقود منتظرًا فاقد الصبر.

وأخيرًا تحرر الشيخ من ناسه، وتوجه وحده نحو السيارة فاقترب هكذا من الكازينو.

تقدم ناظرًا بثبات إلى العدو الجالس، إلى ابنيه الواقفين بجانب الكرسى وإلى جماعة الموالين العابسة.

- الوداع يا سالفاتورى ! أطلقها إذاك بسخرية الفم البالى من تحت النظارات السوداء.

تسمر الشيخ فى الأرض، منتصبًا وساقاه متباعدتان قليلاً وذراعاه على استعداد.

- ألا زلت تستطيع الكلام يا دومينيكو ؟ أجابه بصوت ثابت. زمن طويل وأنت لا تنبس ببنت شفة.

- كما ترى من له حياة له كلام.

- إذن كنت ميتًا لما قطعت ذنب كلبك "توستيرو"؛ لأنك لم تنعق!

-أجاب المشلول مضحكًا مؤيديه : لقد تكلمت قبل قتلك مع دوبيتك روسكا. ذكية بما يكفى هى. نعم، يا سيدى!

- وكنت كذلك ميتًا لما اعتديت على ابنة أخيك كونشيتا! ميت وعفن كما أنت الآن؟! بصق الشيخ غاضبًا، ممسكًا بالموسى داخل جيبه. تمنى فى ذلك الوقت لو أنه أنهى الأمر هناك نهائيًّا، ويموت حاملاً الآخر أمامه.

إن الصمت المفاجئ الذى ساد الميدان يمكن قطعه بالسكين فى الهواء. لكن الكانتانوتى كان قد وضع فى الوقت المناسب يديه فوق ساعدى ولديْه اللذين بدا تعصبهما، وختم قائلاً، بحركة احتقار من يده الغليظة المختمة(١) : إن الزمن قد أصلح شرفها، أحسن مما يستطيع الأطباء إصلاحه فيك... اذهب، اذهب، سفر طيب!

لم يحدث أكثر من هذا.

يفكر الشيخ فى بارق : " لقد قيل كل شىء، فهنا يعرف كل منا عن الآخر كل شىء، إن الكونشيتا تزوجت بمالها من تاجر السوق السوداء إبان الحرب، وهى الآن سيدة فى كاتنزارو، وإن سفرى سينتهى بى فى المقبرة، وسفره لن يتأخر عن النهاية نفسها، وإنه لا

---

(١) الحاملة عددًا من الخواتم.

يزال لدى من الوقت ما يكفى لأسمر فيه الموسى، فأحس بموته تحتها، بينما يطعننى ابناه... ما الفائدة ؟ لقد قيل كل شىء.

ثم إن سلبية الفريق الآخر أمام تحديده؛ أعطاه الفرصة فى ركوب سيارته بشمم وهدوء، فاقلعت مثيرة سحبًا من الغبار نحو كانتانوتى، والشيخ يهنئ ولده راضيًا:

- أحسنت صنعًا يا ريناتو ويعجبنى أنك ترجلت تحسبًا، لكنى أكفى نفسى أمام هذه السلالة السيئة.

ومع هذا، فهناك شىء لم يكن كما يجب، وهو ما يحزنه: إنه تغيب أمبروزيو غير المفهوم بين مودعيه. لم يكن لدى أحد تفسير لغياب المقاوم الأخوى الذى انتشله من مياه كراتى؛ حيث كان يفقد دمه من جراء العملية ضد الألمان فى جبل "كاسيليو".

لكن أمبروزيو كان فى موقعه، وكيف لا يكون هناك ؟ فى أول منعرج أسفل الجبل إلى جانب شجرة الدردار التابعة للدير، كان منتظرًا بعموده الأخضر الأبدى فى فمه. أوقف الشيخ السيارة وترجل صائحًا فى سرور :

- أخى ! يا له من أمبروزيو !... أتأتى أنت أيضًا كالجميع لتسألنى : لماذا أسافر ؟

- متى كنت غبيًا ؟ أجاب أمبروزيو مفتعلاً الغضب من الواضح أنك لا تريد أن يسير الكانتانوتى فى جنازتك، إن أصابك سوء الحظ ! ثم أضاف وهو يقوم بحركة "القرن" بيده اليسرى، طردًا للعين وللشيطان:

انفجرا فى قهقهة.

-الآن. أضاف أمبروزيو فى وقار : عليك أن تتحمل كى تحصل على لذة مرافقتك إياه فى جنازته، وبعدها قد يبلغ الأمر حتى أن أدعوك إلى جنازتى.

عوج فمه فى حركته المضحكة المعتادة - حركته العصبية فى غمار المعركة - وكرر :

- تحمل كما فى تلك الأيام يا برونو، فأنت تعلم.

- فوعده الشيخ : سأبذل كل ما فى استطاعتى، كما كنت أفعل فى تلك الأيام.

وفى اندفاع مفاجئ تعانقا، واضعًا كل منهما صدره فى صدر الآخر حتى قبلا بقلبيهما. شعرا بخفقانهما فأفرجا عن بعضهما بعضًا، ومن دون كلام ركب الشيخ السيارة. تعانقت النظرتان مرة أخرى، عبر الزجاج، بينما يحرك ريناتو السيارة.

رفع أمبروزيو يده قابضًا إياها، وشرع فـــى التـــرنم بنـــشيد المقاومين الحماسى، بينما توارى خياله إلى الوراء.

وعندما أخفته هضبة، استمرت كلمات النضال والأمل شـــادية فى صدر الشيخ.

(٧)

الثلج يتساقط. يقفز الشيخ من فراشه مغترًا كالطفل الـــصغير : الثلج فى أرضه أعجوبة ولعب. وعد بمراعٍ خصبة وغـــنم ســـمين. وعندما رأى ندفات الثلج أطل من النافذة، لكن لم يجد بياضًا فى قـــاع الفناء. المدينة تفسده، كما تفسد كل شىء؛ فتحوله إلى غدران ملوثـــة بالوحل. خطر له أن لا يخرج، لكنه غَيَّر رأيه : لعل الثلج قد خثـــر. ثم إنه بخروجه يتحرر من آنونسياتا، التى تـــأتى اليـــوم بـــاكرًا؛ لأن أندريا ستلقى دروسها باكرا. هذا لا يعنى أنه لا يتفاهم معهـــا، لكـــن آنونسياتا مهووسة بالنظافة وتعميمها على الغرف على نحـــو يـــذكره بالألمان. فهى تدفع مكنستها الكهربائية أمامها كالدبابة ! فالشيخ يأخذ فى الانسحاب من غرفة إلى أخرى، حاملاً معه أيضًا مؤونته السرية من الأشياء المخبأة تحت السرير، بينما هى تنظف حجرته. وفوق هذا

فهى لا تترك الأشياء كما كانت، بل تنظمها حسب ذوقها. إنها ، من حسن الحظ، قليلة الكلام؛ فهى تفضل الاستماع إلى المذياع الصغير الذى تحمله إلى كل مكان.

"وكم من ترهات يتفوه بها هذا الجهاز ! – يفكر الشيخ وهو يرى من نافذة الحجرة الصغيرة الثلج يتساقط. الطفل نائم. ومن حسن الحظ أنهما يكادان أن لا يتفاهما باللغة الإيطالية الحكومية هذه. واضح، هى لغة الإذاعة المرئية نفسها، هناك فى مقهى بيبو، لكن بالشاشة لا تهم اللغة؛ لأن الأشياء تفهم برؤية المؤولين".

أسوأ ما فى آنونسياتا مع ذلك، هو مراقبتها المنافقة كى تبعد الجد عن الطفل. الشيخ يشك فى أن هناك تنبيهات من أندريا ضد عدوى محتملة من مريض مدخن. يغضب ويقول لنفسه : "لكن أنا أقلل من التدخين كل يوم ! حسناً، إن الطفل النائم لا يوقظ، لكنه الآن وقد أخذ يتحرك ويحرك يديه فاتحًا عينى الثعيلب..."

تظهر أنونسياتا فجأة بالباب وتحذره : لا تأخذه يا سيدى، رونكونى لا يعجبها.

– لماذا ؟ الشيخوخة لا تنقل العدوى !

– سيدى ! ماذا تقول يا سيدى ! الأمر هو أن الأطفال يجب عدم حملهم فوق الذراعين. يتعودون، أتعرف ذلك ؟ هكذا يقول الكتاب.

– وبماذا عليهم أن يتعودوا ؟ على أن لا يمسهم أحد؟... كتب! أتعرفين يا سيدتى من أين أمررها هذه الكتب ؟ بالضبط يا سيدتى، من هناك بالضبط !... كتب! حتى الجديان، الذين يتوجهون وحدهم إلى الضرع حين ولادتهم، تلعقهم الأم طول النهار، هذا مع أنهم حيوانات.

– أنا أتكلم بما أؤمر به. تنسحب المرأة غاضبة.

يستكن الطفل بين هاتين الذراعين، ويحاول ضاحكًا القبض على الشعر الرمادى المتجعد. يضم الشيخ هذه الحياة النابضة، وكلها خفقان طافح على سطح البشرة.

كان فى الأيام الأولى يخشى تشويه هذه اللحيمات، أما الآن فهو يعرف أن الطفل ليس لينًا كما ظنه. صغير، نعم، ويحتاج إلى المساعدة كذلك. لكنه عصبى عصبى على الانقياد. عنده من الطاقة عندما، ينفجر فجأة، بصيحات شديدة الحدة، فيركل ويذرع بعنف. شيء يبهت، هذه الإرادة الكاملة، وهذا التصميم الغامض، يكشف الحياة هذه.

إن الشيخ عندما كان "ثاغالييو" (راعيًا)، كان يأخذ بين ذراعيه "لامبرينو"، لكن تصرف ذلك الخروف الصغير المفضل لا يأتى أبـدًا بما يفاجئ. أما الطفل فهو على النقيض من ذلك، يفاجئ فى كل حين؛ إنه لغز أبدى. لماذا يرفض اليوم ما اشتهاه بالأمس ؟ لماذا يهمه الآن ما احتقره من قبل ؟ إنه يحقق فى كل شىء ويتطلع إليـه : يتلمـسه، يديره فى يديه الصغيرتين، يأخذه إلى فمه، يحاول مقاومته، يـشم... بل يتشمم كالكليب وبلذة وبلذة شديدة أيضًا.

الطفل باحث دومًا. إذا ما شعر بأن لا أحد يهتم بـه، فـسيظن قطعًا أن العالم فوضوى ويرفضه. لهذا يعانقه الشيخ بحنـان، يقبلـه، يشمه بنهم حيوانى شديد، كما يتشمم الطفل نفسه، وينصهر فى الطفل ذاتيًّا"، ويقال إن الكتب لازمة لتربيته...! لا تلقن الحياة هكذا، بل تلقن باليدين وبالقبلات وباللحم وبالصراخ... ! وباللمس، اللمس!... انظر يا بنى، كنت أحتضن الحمل كما كانت تضمنى أمـى. لقـد تعلمـت الضرب، بعد أن أوسعونى ضربًا !... "يبتسم متذكرًا امتهانًا آخـر :" وبعد ذلك لاطفت كما لاطفونى وقد صادفها معلمات ماهرات. أنـت كذلك سينتهى بك الأمر إلى الملاطفة، أتعهد أنا بذلك."

تؤلمه اليد الصغيرة التى تكشط شعره بجذبة إرادية، والـشيخ يضحك متلذذًا : "هكذا، هكذا أرأيت كيف تتعلم ؟ هكـذا بالـضربات وبالملاطفات. هكذا نحن الرجال غلاظ وعشاق... أتدرى مـا الـذى يردده تورلونيو ؟ إن أحسن حياة يا برونو هى التقدم بالطعنات نحـو

الأنثى." يشعر بتوتر الجسد الصغير – إن هذا الطفل يفهم !" – يبلغه التوتر ويهزه. إنه لا يستطيع التفكير فيه، وأقل من ذلك التعبير عنه، بل يستطيع أن يعيش مليًّا هذا الوقت بلا حدود بين الجسدين، هذا التبادل المبهم الذى يشعر فيه بنبض حديث صادر عن الغصن الأخضر الذى بين ذراعيه، بينما يسكب هو فيه أمن الجذع العتيق الثابت الجذور فى الأرض الأبدية.

(٨)

وصل به الأمر حتى أنه نسى الروسكا، وهو تحت تسلط الفكرة التى تدفعه إلى الرغبة فى صيرورة هذا الطفل رجلاً، هذا الذى لا يرعونه الرعاية الحسنة. يجب أن لا يصبح واحدًا من هؤلاء الميلانيين قليلى الثبات على الرغم من تباهيهم، الخائفين دومًا مما لا يعرفون ما هو، وهذا هو الأسوأ : خوف من الوصول متأخرًا إلى المكتب، من أن تداس تجارتهم، من أن يشترى الجار سيارة أحسن، من أن تطالبهم الزوجة فى المضجع بما لا يطيقونه، أو أن يفشل الزوج بينما ما تزال هى شديدة الرغبة... إن الشيخ يدرك ذلك بطريقته الخاصة : ليسوا أبدًا بلا عقل هم دومًا فى منزلة بين المنزلتين. لا هم ذكور ولا إناث بالكامل. لا يبلغون الكبر، ولكنهم ليسوا أطفالاً – هكذا يصدر حكمه مقارنًا إياهم بأبناء بلده – فهناك يوجد من هو ضعيف، أى نعم، لكن الرجل منهم رجل بحق، وأعنى ما أقول.

واضح ! لا أحد يستطيع أن يكون رجلاً من دون أن يُعجم عوده، وتختبر إرادته، قوارير الصيدلية المخصصة للطفل، هى أدوية خالصة، على الرغم من تسميتها "عجلا" أو "دجاجًا" ! وهذا اللبن الذى لا قشدة له أبدًا ! وهكذا كل شىء...

لما سأل الشيخ أندرييا إن كانوا يعطون الطفل أحيانًا نقيع القسطل فى نبيذ التوت، الذى ينظف المعدة وينمى فتوته، هالها الأمر هولاً كبيرًا. لأول مرة اشتدت نظرات عينيْها الرماديتين ولم تفلح فى إيجاد عبارات." ومع هذا فحتى الصبيان يعرفون بأن الذكر الصغير يجب إعطاؤه نصيبه من عرق التوت؛ كى لا يشعر بالإحباط. على أن يكون من عرق التوت الأصيل، لا بضاعة صيدلية أبدًا."

"لا، لم تجد أندرييا كلامًا مع أنها لم تعدمه قط، بل بالعكس فهى تتخم الطفل كلامًا، دائمًا بإيطالية المذياع، التى لا علاقة لها باللغة السائدة، " مثل ذلك المعلم الشاب الذى يتذكره الشيخ الآن، والذى عين فى روكاسيرا عندما توفى "دون بيارو" الرجل الطيب. لم يفهمه الأطفال. طبعًا لم تكونوا يهتمون كثيرًا بحكايات قدماء الملوك أو عن بلدان لا تزار. لكن مادة الحساب، نعم، يجب معرفتها معرفة جيدة؛ كى لا يخدع المرء من سيده أو فى الأسواق. لكن من حسن الحظ أنه لما يأتى الصبية سلوكًا معيبًا – وفى ذلك يبرع الشيخ عندما يستطيع الذهاب إلى المدرسة فى الشتاء – يوبخهم المعلم الجديد باللهجة المحلية أيضًا، وإذاك يفهمونه فعلاً؛ لأنه كان من ترتزينو

قرب ريدجيو، ولو أنه كان يخفى ذلك لبلاهته وشدة حماقته. فالطفل طبعًا مع كثرة الكلام بهذه الإيطالية الرخوة، ينام كما يفعل الآن. عندما تكون أندريا راضية فتجلس إلى مكتبها، وتحتمى بكتبها، وتشعل مصباحها وتكتب، تكتب، تكتب. بلا نظارات؛ لأنها، كما استطلع الشيخ آنفًا، قد تخلت عن استعمال العدسات.

يغتنم الشيخ الفرصة ليذهب فيجلس بجانب المهد متأملاً. بعد قليل يدخل ابنه الشقة ويظهر فى المضجع الصغير، فيقبل الطفل وينسحب إلى غرفته؛ كى يرتدى ثياب البيت. يتبعه الشيخ فى ضيق من فكرته المتسلطة، وإن كان يتحاشى دخول هذا المضجع الزوجى. لكن عليه أن يلح، أن يقنعهما، فإن ابنه سينتهى إلى فهمه.

يتعجب ريناتو الذى كان بصدد ارتداء الروب لما رآه يدخل :

– هل تريد يا أبتاه شيئًا ؟

لا شىء... لكن، انظر هناك بالتحديد لديكم مكان صالح لوضع المهد.

يبتسم ريناتو وهو فى حالة بين نفاذ الصبر وضبط النفس.

– ليس الأمر أمر مكان يا أبى، إنه لصالحه.

– صالح من ؟

– صالح الطفل طبعًا... لقد سبق لى أن أفهمتك ذلك فـــى مــا مضى. وبهذه الطريقة تتجنب المركبات. إن الأمر نفسى، فى الرأس، يجب ألاَّ يكون للأطفال حنين مرضى، أتفهم ؟ يجب أن ينطلقــوا، أن يكونوا أحرارًا... إن هذا أمر معقد يا أبى لكن، صدقنى : إن الأطباء أكثر معرفة.

كل كلمة تحدث فى الشيخ رفضًا. هل هو "معقد؟"، لا، بل هو بسيط جدًّا : تكفى الإرادة. "أحرار" ؟ لكن إن كان الميلانيون هــؤلاء يعيشون فى جبن !... "أكثر معرفة" ؟ يا لها من معرفة هذه التى تمنع الحنان عن الوالدين ! إذن، مَنْ يتعين عليه أن يحب أكثــر ؟ أو هــل أصبح الوالدان اليوم لا يرغبان فى أن يحبا ؟"

بالرغم من سخطه، لم يكن لديه وقت لرد الهجوم. فقد صـــحا الطفل، ثم إنها ساعة استحمامه... الاستحمام، إنـــه العيــد اليــومى المفرح !

شعر الشيخ فى المرة الأولى بضيق، كما لو كانوا قد أشـــركوه فى هجوم على أسرار حياة خاصة. بعد ذلك اكتشف أن الطفل علاوة على تلذذه بالماء، يعجبه كثيرًا أن يكون بطل الحفل. ثم إنه من يــوم أن أخذ يحلق لحيته كل يوم ويقلل من التدخين، صار الطفــل يقــدر تلطفه ويتركه يقبله أيضًا؛ وذلك عندما يقدم الشيخ على ذلك فى غياب الأم. غير أن الحمام كشف – فى النهاية – للشيخ أن بروناتينو لا يكتفى

بأن له عضوًا تناسليًا واعدًا، بل هو يحس بانتصاب حقيقى فــيلامس نفسه، إذ ذاك، ويشم أصابعه بابتسامة مغتبط "مرحى يا برونــاتينو ! قال لنفسه الشيخ عند قيامه بهذا الاكتشاف الكبير: إنك ذكر كجدك !"

لهذا السبب نفسه؛ يزداد خوفه من أن تنتهى هذه الكتب بإفساد الطفل، وهؤلاء الأطباء الذين يأمرون بنفيه ليلاً، تاركين إياه وحيــدًا أمام أحلام مزعجة وحوادث أو قوات عدوة... "إذا ما واصل هــؤلاء الناس تقدمهم؛ فسينتهى بهم الأمر إلى القول بأن على الرجل والمرأة أن يفترقا عند النوم كى لا يتحابا"...

آى يا بروناتينو العزيز !... إنك فى حاجة إلى امرأة من هنــاك لها عضلات مفتولــة وتكــون خبيــرة بالرجــال. أمــى نفــسها، أو "لاطورطوريلا" التى أنجبت أحد عشر، أو العمة بانغاناتا التى تزوجت ثلاثة رجال... لكن لا تجزع، إن خسرتها فأنا هنا. سلم لى قيادك، يــا طفلى الصغير ! أنا سأضعك على الدرب السوى؛ كى تصعد الحيــاة، وهى صعبة كالجبل، ولكنها تملأ قلبك لما تكون فى القمة !"

(٩)

- أرأيت يا سيدى رونكونى ؟ أرأيت يا سيدى ؟

يترك الشيخ الطفل فوق البساط بجانب المهد، ويلتفت نحو آنونسياتا المنتصرة والشديدة الثبات بالباب.

- تزيبو رونكونى ! تذكرى ذلك.. وماذا على أن أنظر ؟

- إن السيدة على حق، إنه يجب عدم حمل الطفل فوق الذراعين... هو نفسه كان يريد النزول منذ قليل، فقد رأيته !

هو كذلك. فمن ذراعى الشيخ، كان الطفل يشير بإصبعه الصغير بإلحاح نحو الأرض كالإمبراطور الرومانى ويصرخ : "آ، آ، آ،" وهو يصارع كى يفلت.

هاهو الآن على الأرض أليس كذلك ؟

هو كذلك... وتضيف مشددة : وهذا يعنى أن السيدة على حق!

- لا، هذا يعنى ما كان يردده دون نيكولا، القس العفيف الوحيد الذى مر من روكاسيرا، والذى لم يدم طويلاً لعفته.

هل جرت ترقيته كهنوتيًا فى كنيسة أخرى ؟ لأن أى مكان آخر أفضل له.

ينفر الشيخ من هذه اللمزة.

- لا، علق ثوبه المميز؛ لأنه غير قادر على فهم البابا، فذهب إلى نابولى يتكسب رزقه من عمله فى معهد.

الطفل، وهو جالس على البساط، يتمتع بهذه الأصوات وينتبه، كما لو كان يفهم الجدل الودى الذى يجرى فى صباحات كثيرة.

- نعم... وأية بشاعة كان يبدو عليها مثال العفة هذا فى قوله؟

إنها - لاشك - من الإنجيل، تلك التى تقول : "لهم أعــين ولا يرون. لهم آذان ولا يسمعون" أو كلام شبيه بهذا وهو ما تعانيه كنتى وأنت... وأناس كثيرون مثلكما، أطباء أو غير أطباء!

تحار آنونسياتا وفى النهاية تجيب، مشددة على اللهجة التهكمية:

-لا يقدر عليك أحد يا تزيبو رونكونى.

تنسحب كمنتصرة مكرمة.

أما الطفل فقد قلب فى هذه الأثناء صندوقًا طالته يــده، وراح يركز الاهتمام فى اللعب المبعثرة هكذا أمامه : قطع تربويــة يمكــن تركيبها إلى بعضها بعضًا وهى مصنوعة من البلاســتيك الملــون، حيوانات من قماش، ودمية تقف على رجليها وبها جلاجل، وحصان يتأرجح اشتراه له الشيخ وقد نال نجاحًا سريعًا، ثم طواه نسيان الطفل وإهماله، وعاد الآن ليصبح اللعبة المفضلة؛ وهذا ما يثلج قلب الــشيخ الذى يجلس بجوار الطفل ويهمس له :

- واضح أنه لا يقدر علىَّ أحد ! ماذا ظنتا نفــسيهما هاتــان الاثنتان؟... الآنونسياتا امرأة طيبة، يا بروناتينو، وتحبــك بطريقتهــا كعانس، لكنها لا تفقه شيئًا، مثل أبويك... يظنــون أنــك لا تفــضّل

ذراعى والأمر غير ذلك : فبفضل فهمى وضمى لك منذ قدومى، أراك تزداد ثباتًا وأمنًا، تصير رجلاً بجانبى، وطبعًا تزداد جرأة يا ملاكى الصغير، فدس الأرض وتحرك.

– هكذا جرت الأمور خلال الأسبوعين الأخيرين. بروناتينو يظهر أكثر حماسة فى توسيع مجال تجربته. فلما يجلس فى المهد وتعطى له اللعب، ينتهى به الأمر إلى إلقائها بقوة خارج المهد ثم يشير إليها؛ لا رغبة فى أن تعاد إلىَّ، كما كان من قبل، بل لوضعها مع بعضها بعضًا. وأحيانًا يبلغ به الأمر إلى التشبث بحفاضة المهد، ويطل بطريقة تجبر على الانتباه إليه؛ حتى يختل توازنه، فيسقط على الأرض.

– ويواصل الشيخ : – قد تقول أمك إنك تقلل من تبعيتك لهم... المسكينة ليس الأمر هكذا !... بما أنها لا تعرف أننى أعلمك كيف تدافع عن نفسك، فهى لا تفهم أن تُقَدِّمك، يعنى أنك سائر فى تعلمك الأشياء الأساسية فى الحياة، يا طفلى الصغير : الأمر هو إما أن تكون قويًا، وإما أن تداس رقبتك. ولهذا أكرر لك لما آخذك بين ذراعى : اغتنم العيش، ولا تترك نفسك لعبة فتندفع أنت طبعًا هناك لتطبيق ما قلته لك... احفظ هذا جيدًا : كن فظًّا لكن تمتع بالعطف والمحبة، كما يفعل حملى لامبرينو: يعثر ويرضع.. غير أن المسكين كان خروفًا، فلا يستطيع أن يصبح قويًا، لكن أنت رجل !

الطفل يطبق فعلاً، أكثر فأكثر. فبفضل المحاولات ها هو يستوى على يديه وركبتيه فيحبو متنقلاً فى الغرفة أو فى المكتب.

والآن بالذات هو آخذ فى التحرك، يجلبه سروال الشيخ، فإذا بصوت ميكانيكى ملح ينطلق فيرفع الطفل رأسه بنظرة منتبهة.

"إن سمعه دقيق مثلى – يفكر الشيخ وهو قد تعرف على مكنسة آنونسياتا الكهربائية – كيف يبدو وجهك يا بنى ! تذكرنى بجبين" تيرى" المجعد، ذلك المساعد العسكرى الإنجليزى الذى رمى إلينا بالمظلة، تذكرنى به وهو يتأمل من أين يحسن القرب ليلاً من مواقع الألمان. ما أغلظ حاجبى ذلك الرجل ! "يحبو الطفل مصراً إلى الباب ويطل برأسه الصغير. ينظر يمنة ويسرة : لا بد أن الممر بدا له كنفق بلا نهاية. لكنه لا يفزع ويستأنف السير نحو الصوت الساحر، متبوعًا بالشيخ الذى يشارك فى المغامرة متلذذاً، فيطل على الغرفة حيث يبرز ظهر آنونسياتا عند الباب، وهى تنظف البساط.

"هكذا يا طفلى الصغير هكذا يكون التقدم ! فى صمت مثل القطط، مثل المقاومين ! المفاجأة، دائمًا ! المفاجأة ! "عدو مفاجئ، عدو مدحور" هكذا كان يردد الأستاذ.. حسناً إنه كان يقول : "عدو منهزم "؛ لأنه كان مثقفاً. لكن رنينها أجمل بطريقتنا، أليس كذلك ؟ هو ذاك، الآن، اهجم !"

– آى !

تنطلق قهقهة الشيخ مع صرخة الخوف الأنثوية؛ عندما شعرت آنونسياتا باحتكاك فى كعبها : إنها يد الطفل. ترتمى فى حركة خائفة إلى جانب، وتفلت مقبض المكنسة الكهربائية الذى يبقى جامدًا من دون أن يكف عن ضجيجه.

بعد أن أزال الحاجز الإنسانى الدفاعى، يتقدم الطفل رابط الجأش نحو هدفه، ويعانق بابتسامة سعيدة الآلة المرتجة.

- سيحترق، سيؤذى نفسه ! هكذا تصيح أنونسياتا جارية لإطفاء المحرك. الصمت المفاجئ يجعل قهقهة الشيخ أكثر صخبًا، بينما هو يضرب بيديه على فخذيه مصفقًا؛ تعبيرًا عن طربه؛ مما زاد من غضب المرأة.

يتأمل الطفل الآلة مذهولاً، ثم يلوح على وجهه تعبير عن خيبة، فيضرب بيده الصغيرة على الآلة. بدا فى برهة كأنه سيبكى، لكنه فضل التسلق حتى ركب باستهتار ظهر الآلة الملساء، ضاربًا إياها ليثيرها.

يأتى الشيخ إلى مقبض الآلة ويضغط على المفتاح. عودة الضجيج تفزع الطفل قليلاً وكادت تسقطه، ولكن يصيح حالاً فى سعادة ويضحك فوق مركبته المهتزة، خاصة عندما أمسكه الشيخ من كتفيه كى لا يسقط.

-أوقفها يا سيد رونكونى ! أنت مجنون يا أستاذ ! - هكذا تصيح آنونسياتا، لكن عليها أن تمتثل فترة بالرغم من مطالبتها فى كل حين باسترجاع الآلة. يضجر بروناتينو - فى النهاية - من لعبته الرتيبة، فيترك نفسه ينزلق إلى الأرض وينتقل نحو هدف آخر. ينزل الشيخ أيضًا على يديه وركبتيه ويخاطبه وجهًا لوجه :

– ما أكبرك يا بنى ! غلبت الدبابة، حاصرتها ! أتدرك قيمة انتصارك ؟ مثل طورلونيو بقواريره المشتعلة وقنابله اليدوية. ما أكبرك ! يكاد الشيخ ينفجر فخرًا، بينما آنونسياتا تستمع إليه مبهوتة. أما الطفل فبعد أن توقف قليلاً أمام ذات الأربع الجديدة، تسلل بين ذراعيها ووضع نفسه تحت صدر الشيخ الذى أبدل إذذاك ذكرياته : هكذا، الآن هنا، اهدأ، مثل الحمل مع أمه، فكما كنت أقول لك: اعثر وارضع ! لكن الطفل يواصل تقدمه فيخرج من الخلف مارًّا بين ساقى الشيخ الذى تعود ذاكرته إلى الحرب، بينما الطفل يجلس أخيرًا ليستريح راضيًا عن مآثره.

–يا لها من ضربة نهائية ! هكذا، تسلل كما كنا نتسرب فى الغابات ! هكذا حقًّا، يكون المرء مطوقًا، ثم يفلت من الشراك!... أنت الآن تعرف كل شىء! هكذا –نحن الرجال– استطعنا التغلب على الدبابات والطائرات!... بين رجالنا، أنت مقاوم كامل، هاجمًا ومنسحبًا !... ويختم بصيحة :

– عاش بروناتينو !

وفجأة يلهم :

– إنك تستحق السير فى استعراض راكبًا حصانًا !

يأخذ الطفل ويرفعه أعلى من رأسه، مثيرًا منه صرخات خوف وسرور، ويجلسه من دون توازن على كتفيه. يتشبث الطفل

بالشعر المتجعد بكلتا يديه الصغيرتين، والشيخ يمسكه من ساقيه، ويخرج من المكتب مع تأثر آنونسياتا البالغ، فيثنى ركبتيه عند الباب خوفًا من المفاجآت غير المبهجة، كما يفعل فى الكنيسة عندما تخرج أو تدخل "سانتا كيارا."

يمشى الشيخ ويجئ فى الممر بخطوات واسعة، والطفل فى عَلٍ، مغنيًا نشيد النصر الشهير :

– بروناتينو يعود منتصرًا... بروناتينو يعود منتصرًا...!

(١٠)

كان الشيخ جالسًا على مقعده أمام النافذة، موليًا هكذا ظهره ركن أندريا. "المقعد الصلب" كما تسميه آنونسياتا. هى لا تفهم أن الشيخ يفضله؛ لأنه قطعة أثاث فلورنسية مصنوعة من خشب الجوز، وهى غير منجزة ولها ظهر مستقيم وذراعان. إن الشيخ لا يعجبه المتكأ؛ لأنه يغرق فيه وهو مع ذلك فاقد الصلابة. إنه يناسب رخاوة أهل ميلانو.

– تعجبك ناطحات السحاب أليس كذلك ؟ سألته أندريا لما رأته يجلس هناك لأول مرة. إنها رائعة !

بدأت تضاء بعض الفجوات من الأدوار التى لا تحصى فى ناطحات السحاب بميدان الريبوبليكا، وفى البيرالى الشهير ذى الجانب

الشبيه بصدر سفينة. لكنها لا تعجبه فى شىء ألبتة ! كيف يمكن أن يقارن هذا المنظر بجبله وهو يراه ضاحية روكاسيرا ؟ جبل جليل، حنون، متقشف، جبله "لافيمينا مورتا" (الأنثى الميتة) المتغيرة ألوانه حسب الفصول والسحب.

يقرع باب الشقة. يدخل ريناتو حذرًا؛ كى لا يوقظ الطفل. يحيى أباه ويواصل حتى يبلغ أندرييا، يقبلها فى عنقها. يسمع الشيخ مع همس الزوجين خشخشة ظرف يفتح. هى تحاليله الطبية، أكيد. مر ريناتو بالمستشفى ليأخذها. يعرف الشيخ، من دون أن يلتفت، أنهما يوجهان إليه نظرات مشفقة. يبتسم : هذان الصبيان. إنه يرى فيهما اللطف والظرف.

يقترب ريناتو من أبيه. يلمح عفوًا إلى التحاليل ويشرع، مبالغًا، فى التشكى من حركة المرور، بينما أندرييا تذهب إلى الممر لتهاتف من هناك بدل القيام بذلك من منضدتها.

"إنهما خائفان – يفكر الشيخ – تكفى مشاهدتهما وهما يحاولان التستر... ما الذى كانا ينتظرانه من التحاليل ؟ يا لهما من ثنائى شقى!"

تعود أندرييا معلنة أنها حصلت على موعد مع الطبيب ليوم الخميس، اليوم الذى يمكنها فيه مرافقته. تتحول ابتسامة الشيخ الهادئة إلى أخرى ساخرة أمام حرج الاثنين. بكاء الطفل المفاجئ ينقذ الموقف

تخرج أندرييا مسرعة لتحضر له حمامه ويرافقها ريناتو. يتبعهما الشيخ متأنقًا إلى هذا الحفل اليومى الكبير الذى سيكون اليوم استثنائيًّا.

يفهم الشيخ وهما يجففان الطفل الذى، كالعادة، يعابث عضوه الصغير، الذى هو انتفاخ وردى شبيه بثمرة القسطل فى الربيع آنذاك. تأتى مفاجأة كبرى ! قبل أن يرفع أصابعه الصغيرة إلى أنفه، يهدى بروناتينو الباكورة للشيخ، مبتسمًا له مستدعيًا، بينما ينفذ فيه بنظرة بعيدة الغور كأنها نظرة كهرمان أسود.

– أنت يا طفل ! يصيح ريناتو متكلفًا الاستغراب.

– فتعلق الأم فى رصانة: دعه ! إنه يجتاز المرحلة الشرجية(١).

لا يعير الشيخ اهتمامًا لهذا الكلام الفارغ. وعلى النقيض من ذلك، تذكره حركة الطفل بأساطير قطاع الطريق الذين يخلطون دماءهم كطقس من طقوس الأخوة لديهم ؛ ولهذا استطاع الشيخ أن يترجم فى الحين رسالة الطفل. ينحنى على اليد الصغيرة ويتشمم القربان متأثرًا. يلمع نور فى نظرة الطفل، الذى يشم بدوره أصابعه الصغيرة المدهونة. هكذا تمت، حسب فهم الشيخ، المعاهدة السحرية.

---

(١) يشير هنا إلى التقسيم الفرويدى – نسبة إلى فرويد عالم النفس النمساوى الأشهر لمراحل الطفولة : المرحلة الفمية – الشرجية – القضيبية .

يسوده بعد ذلك هدوء كبير وهو مضطجع فى فراشه، إلى أن هاجمه النوم. فالطفل أصبح يعرف، وقد وضع ثقته فى الشيخ.

لم يبق شىء يقال؛ فكل شىء أخذ طريقه.

(١١)

لهذا يفتح الشيخ عينيه قبل أى فجر آخر. لقد استطاع الصحو دومًا فى الساعة المرغوبة : فى الحرب كما فى الصيد أو فى التهريب أو فى الحب.

دقات جرس الدومو تؤكد أنها الساعة الثالثة. لقد نظف الثلج سقوط الثلج الأخير جو المدينة؛ فصارت تسمع الأجراس أحسن من ذى قبل. ينظر الشيخ عبر النافذة، الحائط المواجه فى الفناء شكله قمرى. "ضوء غير صالح لكمين كالكمائن التى كنا نقوم بها، لكنه مناسب لهذه الحرب... لقد فهمت سريعًا أنى رفيقك يا طفلى الصغير!"

يلبس بتؤدة جواربه الغليظة ويأخذ دثاره. لا برد فى الشقة المدفأة، ولكنه من دون دثاره يشعر بأنه غير مصون. لقد رافقه دائمًا فى المهمات الكبيرة وهذه إحداها: إنقاذ الطفل من الوحدة.

يتقدم فى الممر بخطى كأنه هِر، ويتوقف عند باب غرفة النوم الصغيرة نصف المفتوح. ينقلب من الفجوة نور محمر هو نور الفراشة الكهربائية المثبتة فى المقبس. يتساءل ويده على القفل إن كانت مفصلات الباب تحدث صريرًا، لكنها وقد دارت فى صمت

فهى تثبت له أنها تنضم إلى المعاهدة. يدخل الشيخ ويغلق الباب فى صمت. النافذة كلها قمر. الأرض بحيرة فضية : المهد وظله جزيرة حجرية. فوق الوسادة التى صارت مرآة تنعكس صورة القمر، وهو هذا الوجه النائم الدافئ الذى تلاطف أنفاسه وجه الشيخ الذى انحنى ليشمه، ليحسه الدفء وليبعث الحرارة فى هذه الوجنات المسنة.

يهمس الشيخ : "أرأيت ؟ ها هو برونو لديك. لقد انتهى تقدمك وحيدًا وانتهى ضياعك.

فإلى الأمام أيها الرفيق، أنا عارف بالدروب !".

يملأ الطفل الليل من مهده بتنفسه وبنبض قلبه الصغير. يجلس الشيخ على الأرض وظهره إلى الحائط وينفتح على هذا الحضور كشجرة تحت الأمطار الأولى؛ فبمائها تبرز ذاكرته، ذاكرة الرجل الطويلة، فيتفتح ماضيه كبذرة تتفاعل فى الأرض؛ فتنشر على المهد ثورة من الذكريات والحالات المعيشة كمظلة واقية.

إن الدقائق كطقطقة المكوك تنسج الشيخ مع الطفل فى نول الحياة. إن المكان المحصن قمر وظل لهما وحدهما، لقد حدده الطفل فى الحمام، بأصابعه الصغيرة المدهونة، كما يحدد الخنزير البرى أراضيه. لقد رآه الشيخ يفعل ذلك فى الربيع، ناشرًا رائحة منه أصيلة على الحجارة وعلى أرض اللاذن[1].

---

(١) اللازن هو نبات يستخرج منه صمغ يعلك، ويستعمل عطرًا ودواء.

ماذا يجرى ؟ ما الذى يتبلور فى هذه الدقائق ؟ لا يعرفه الشيخ ولا يفكر فيه، لكن يعيشه فى باطنه. إنـــه يـــسمع التنفــسيْن، القــديم والجديد، يجتمعان كاجتماع الأنهار ويتشابكان كالثعــابين العاشــقة، يهمسان كما تهمس فى النسيم ورقتان متجاورتان. شعر بهذا قبل أيام، لكنه الآن طقس تلقائى يجعله مقدسًا يلامس تمائمه بين شعر صــدره ويتذكر؛ كى يفسر لنفسه تأثره، شجرة البق اليابسة قــرب الكنيــسة : مدينة بخضرتها الوحيدة لخضرة الحلبلاب(١)

الذى يعانقها والذى بدوره لا يستطيع النمو نحــو الــشمس إلا بفضل الجذع القديم. الخشب والخضرة، الجذور والدم، الشيخ والطفل يتقدمان كرفيقين فى درب، عبر هذا الوقت الذى يجمع بينهما. إنهمــا متكاتفان فى طرفى الحياة المتقابلين، وبينهما القمر يتحــرك ملاطفًــا إياهما بين دوران الأنجم البعيد.

(١٢)

- رونكونى سالفاتورى،... تفضل.

ينهض الشيخ من على المقعد فى قاعة الانتظار الأنيقة. تمسح أندريا على يده بأصابعها وتطالعه بابتسامة مشجعة. "غباوات نساء". بعد أن اجتاز الباب تتركه ممرضة أخرى أقــل شــبابًا فـــى غرفـــة

---

(١) نبت تدوم خضرته فى الصيف، وتسميه العامة اللبلاب.

صغيرة ؛ كى يخلع ثيابه تمامًا – نعم تمامًا، طبعًا وهذه الصرة التـــى فى العنق كذلك – ويرتدى طيلسانًا أخضر تلتصق أطرافه إلى الوراء وحدها، وهو ما اكتشفه الشيخ بعد أن بحث عبثًا عن الأزرار : "هكذا كان لزامًا أن يلبسوا الطفل !".

من هناك يتوجه إلى غرفة بهــا آلات عــدة وطبيــب شــاب يضجعه على سرير الفحص. يتابع الشيخ فى البداية هــذا الفحــص بحب استطلاع، لكن سرعان ما بدأ يقلق فيجيــب آليًّــا : "نعــم، يؤلمنى هناك" أسفــل من ذلك لا يؤلمنى"، "إنه كما لو أن دويبــة تتجول بداخلى وتعض أحيانًا". يضحك الطبيب عنــد ســماعه ذلــك ويهتف : "مرحى أيها الصديق !" بينما يلقى إلى الممرضــة نظــرة تواطؤ.

يمرون به من تجربة إلى أخرى، من طبيب إلى زميله، مــن قاعة بنوافذ مضاءة ملمعة، إلى أخرى غارقة فى شبه ظلمة؛ حيــث يفحصونه بالأشعة – عجبًا ؟ لك هنا رصاصة ! ألا تؤلمك ؟

– لا، هى تذكار احتلال كوزنتسا.

يبقى بلا حراك نصف ساعة ؛ كى يأخــذوا لــه عــددًا مــن الصور، فيكاد ينام. لقد نسى حتى رغبة التدخين، فهو كالفارغ مــن نفسه، ولو أن شيئًا يثقل عليه فى الداخل، ذلك الحساء الــذى تناولــه صباحًا؛ وهو ما يجعله يزداد كرهًا لتوليفات أو تركيبات الــصيدليات

التى تعطى لبروناتينو المسكين. ذلك الصباح بالذات، رفض تمامًا الملاعق المزعجة، فانتهى الأمر بآنونسياتا إلى العدول والعودة إلى تنظيفها. اغتنم الشيخ ذلك ليعطى الطفل خفية قطعة من النانينو المغمسة فى النبيذ، فالتهمها بشراهة وهو ما أبهج الجد.

كان لطفًا من أندرييا مرافقته فى سيارتها إلى مصحة الأستاذ دالانوتى. وتشريفًا بلا شك للطبيب النابغة، تزينت، وارتدت تنورة. فى جلستها بالسيارة تطل ركبتاها باديتى العظام، وفى العسيب[1] تبرز أطنابها[2] عندما تضغط على الدواسات. يفكر الشيخ : "إنها بالسروال أفضل". أما هى فقد أساءت ترجمة النظرة فمددت من تنورتها حياء.

– قال لى ريناتو إنك اهتممت كثيرًا فى روما بناؤوس "الزوجين". إنها قطعة رائعة بكل تأكيد.

– نعم، كانا يبدوان حيين بشكل...!

فاجأ التعليق أندرييا، لكن شرعت بهدوء فى محاضرة معممة. بدأ الشيخ مهتمًا، ولكن بما أنها كانت تعبر بإيطاليتها، فقد انتهى به الأمر إلى عدم الإصغاء إليها، ولو أنه شكر لها حديثها غير المنقطع؛ مما لا يجعله مجبرًا على محادثتها.

---

(١) العسيب هو ظاهر القدم.

(٢) أعصاب الجسد.

– انظر – قاطعت أندريبا نفسها، مشيرة إلى بناءات لجامعة الكاثوليكية – هناك ألقى دروسى، وكذلك الأستاذ دالانوتى. لا تظن أنه يستقبل أيًّا كان، لكن بما أننا فى التدريس...

نعم، لقد كانت المرأة لطيفة – يعترف الشيخ وهم يعينونه على النهوض من وضعيته غير المريحة بعد انتهاء التقاط الصور بالأشعة. يستأنف إذذاك الجولة الاستطلاعية، ومن جراء الممرات والغرف المبلطة بالقيشانى الأبيض، والأجهزة الملونة وحصص الإلكترود ضد الجسم، والأضواء فى حدقة العين والأسئلة والجس انتهى طافيًا كالفلين المسوق على غير هدى، فاقدًا الاهتمام بما يحيط بنفسه أو يكاد.

لهذا عندما تملّوه ثانية ورأى نفسه فى مرآة كبيرة، بدا له وكأنه يشاهد جسيمًا غريبًا. هو ليس هذا الجلد ناتئ العظام الصدرالمشعر المدبوغ، وإليته وأردافه البيضاء. إنه من المهين أن يعرضوا صورة الشيخوخة هذه لهذا المجرب الملتذ الذى اشتهته وعانقته إناث كثيرات. ولو أنه شىء مهين ولا هذا. إن البشر فقط يشعرون بأنهم أهينوا. وفى السلسلة الطبية، التى تجزئ كما يجرى فى المجزرة، يصبح البشر مجرد نسيج وأحشاء وآذان، وأعضاء. وفوق كل هذا هناك النفاق : كلهم هناك كثيرو والمداهنة متفائلون كاذبون.

يا له من فرق بين هذا وفحص "دون غايتانو" ! يرتدى الشيخ ثيابه من جديد ويتذكر قمة الطب فى كاتنزارو الذى لا يناقش وهو فى عيادته بالكورسو. "هناك يدخل المرء كما هو فعلاً، ويخرج أحسن مما كان." شعوره الغاضب ضد العيادة الميلانية يسمح له باسترجاع نفسه قبل أن يخرج من الغرفة الملبس.

وأخيرًا وبعد آخر باب تفضل سموه باستقباله قابعًا وراء مكتب كأنه مذبح. أندرييا الجالسة أمامه، ترق على شفتيها ابتسامة تلقائية عند ظهور الجد الذى يعرض عليه الطبيب مقعدًا بعد أن وقف له.

– متشرف يا أستاذ. يحيى الشيخ ثم يضيف عن قصد: كم لى رغبة فى لقائك ؟

– لقد سبق وأن تعارفنا أيها الصديق رونكونى، لكن كانت قاعة التصوير مظلمة؛ فلم تستطع رؤيتى. أما أنا فقد فعلت وبتعمق.

– حسنًا إذن – يسالم الشيخ – ظننت أنك ستصرفنى مكتفيًا بالأوراق فقط." فالأستاذ أمامه التقارير مطروحة على المكتب. يدخل مساعد فيتبادل الطبيبان بعض الكلمات. جمل ألغاز وحركات نفى أو إيجاب، بين مقاطع تدل على الشك فى أثناء الفكير. وأخيرًا يكتب سموه شيئًا ويعطى تعليمات للمساعد فيخرج هذا الأخير لينفذها، ويشبك الآخر وينظر مبتسمًا إلى الشيخ وأندرييا.

– حسنًا يا صديقى رونكونى، حسنًا. لك يا سيدى بنية رائعة ووضع عام تحسد عليه بالنسبة إلى عمرك، باستثناء المشكلة التى أتت بك إلى عيادتى طبعًا... لكن من هذه الناحية، فالحق لا مفاجأة. أستطيع تأكيد ذلك لك. الخلاصة، معبرًا عنها بلغة دارجة، الوضع هو أن السيد رونكونى له بوادر...

وبما أن اللغة الدارجة التى يستعملها هى لغة المذياع إذا عمم، فالشيخ يتسلح بالصبر، ملتقطًا بعض العبارات فقط : "تسق مرضى"، "وسائل العلم"، "تقدم عصرى"، "اختيارات علاجية"...

أما أندرييا فهى، خلافًا لذلك، قد قدمت فى نهم رأسها، وجعلت ترشف العبارات المحكمة بمتعة فكرية حقيقية، وإرضاء أيضًا للعلاقة كانت تسرِّب أسئلة توحى ببحوث فنية كبيرة." هل لكل هذا صلة بى ؟ يتساءل الشيخ فى هذه الأثناء؛ لأنه مع "دون غايتانو" كانت تكفى الطريقة التى ينظر بها؛ كى يعرف المرء أن الأمر إيجابى أو سلبى. وفى النهاية يوجه له الأستاذ ابتسامة أخيرة ساحرة فيقول :

– هل فهمتنى يا سيدى العزيز ؟

"يسخر منى أو ماذا ؟" يتفاعل الشيخ ويرد الهجوم من دون هوادة كما فى الحرب.

– لا، لم أفهم. ولست فى حاجة.

يتوقف برهة متمليًا الحيرة فى وجه الطبيب ويواصل :

– إن الشيء الوحيد الذى أريد معرفته، يا أستاذ، هو متى سأموت.

الجو الرقيق الذى يغمر هواء المكتب المفعم بالكياسة والتفهم والفاعلية، يفتش كالمنطاد. العلامة وأندريبيا يتبادلان نظرة. يبدو على أندريبيا الخجل :

– ما هذا الذى تقوله يا أبى ؟

يمعن الشيخ فيها النظرة مسرورًا بأثر ما فعل. الأستاذ يدخل بعض الجمل حول تطورات غير متوقعة، وتطورات غير عادية وآمال... لكنه فقد ثقته. يقاطعه الشيخ :

– أسابيع ؟ أشهر ؟ من يدرى ؟ لعلها سنة ؟ لا إننى أرى أن العام فترة طويلة.

– أنا لا أؤكد شيئًا أيها الصديق العزيز ! – يقول الدكتور مندفعًا – إن كل تكهن مغامرة فى هذه الحالات، ونظرًا إلى بنيتك القوية، فمن الممكن أن يحدث...

– لا تجهد نفسك يا أستاذ. لقد فهمت. لندع الكلام. فبعد كل شيء أنا أفضل روسكتى على الشلل الذى يسمر فى كرسى أحد معارفى. لقد بلغ شلله الخصر، وقريبًا يصعد إلى القلب؛ وعندها يتحطم. أليس كذلك؟.. قل لى يا أستاذ، هلاّ يتصاعد هذا الشلل بسرعة؟... النتيجة ! من الأفضل أن يترك المسكين المعاناة، خير من قضاء حياته على كرسى !

– كيف تريد أن أجيبك من دون أن أرى هذا المريض ؟ إنك تسأل يا سيدى عن أشياء...! – يتملص الطبيب وهو فى حالة دفاع كامل. لقد أسقطه هذا الشيخ من كرسى الأستاذية.

– الأسئلة التى تهمنى. إن موتى ملكى يا أستاذ... وموت المشلول أيضًا ! نصيبه أن يموت قبلى !... انظر، سأشرح لك مرضه، وسيكون الأمر كما لو كنت قد رأيته. كان لا يزال يمشى فى شهر يونيو، لكن فى أغسطس...

يسرد الشيخ كل ما يعرفه عن الكانتانوتى وعن أعراضه، لكن الأستاذ بعد الاستماع إليه بنفاد صبر، يرفض الإدلاء بتدقيقات وينتهى بالوقوف كياسة وهو يعلن إرسال التقرير إلى المنزل، ومعه المواصفات والعلاج. فَضَّل العلامة، أمام ذلك الشيخ، التخلى عن خطبته المعتادة الباعثة على الأمل، واكتفى بتحية زميلته أندرييا بكل حرارة، وبلماحية نَفَّاذة حيًّا المريض مودعًا إياهما عند باب مكتبه.

لم تعرف أندرييا كيف تبدأ، وهما عند الباب الخارجى، لكن الشيخ سبقها وقال مؤكدًا ثم تنهد :

هذا لا يعرف شيئًا عن الشلل، ومن سوء حظى أن ماتت لى "مارليتا" فى يناير الماضى. صديقة حميمة لى! تعنى جيدًا بموضوع كانتانوتى تتابعه فعلاً، لكن...

– عمن تحدثنى يا أبى ؟

مع "مارليتا" ساحرة "كامبودون" ي. أبرع "ماغارا" (عرافـــة) فى كامل كالابريا.. وكل إيطاليا. لا يفوتها شىء. لتستقبلها المادونـــا فى جنتها.

(١٣)

وأخيرًا تحصل عليه : حوضه الصغير، أو المبولة كما يقــول أصحاب الذوق من أهل ميلانو. كانت أندرييا ترفض طبعًا.

– هذا لم يعد يستعمل يا أبى.

– هل لا يبول الناس ليلاً هنا ؟

– نعم لكن فى دورة المياة. لا كما هى الحال فى القــرى. لا حاجة للنزول إلى الحظيرة.

أندرييا تحتفظ بذكرى أليمة عن المرحاض فى روكاســيرا. إذا ما عبرت الفناد لم تعدم قط فلاحًا ولا صبية يراقب لها الوقت، ويتنبأ بمشروعاتها.

– دورة المياة لا تناسبنى. فالذهاب هنــاك يــوقظنى فيتــأخر نومى بعد ذلك. أما بالقصرية فأتكئ على جنبى وأبول وأنــا نــصف نائم، ويالها من لذة.

لم تتنازل أندرييا. وفى يوم مــن الأيــام، ســمحت لرينــاتو بشرائها." فهم الشيخ السبب – واضح الأمر. فقد قال لهما الطبيب إنه

لم يبق لى إلا القليل، فليتحملا أى تصرف منى. هذا أحسن من لا شىء فقد أتى فحص الأستاذ بفائدة. لكنهم مخطئون : سأعيش أكثر من كاتانوتى. ولن أعطى هذا التيس فرحة السير فى جنازتى!"

حصل إذن على قصريته، فلماذا يخفونها ؟

– يصيح غاضبًا: سيدتى آنونسياتا، سيدتى آنونسياتا!

– تأتى المساعدة .. لا تصرخ، فالطفل نائم.

– أين أخفيت مبولتى ؟ – يسأل بصوت خافت وهو خائف من أن يكون قد أيقظ بروناتينو.

– أين يمكن أن تكون هذه الجوهرة ؟ تحت فراشك!

– أحقًّا ؟ انظرى، ليست هناك.

– من الجانب الآخر يا سيدى : يا إلهى من هذا الرجل؟

المرأة صادقة.

– يهمهم – إلى الجانب الآخر، الجانب الآخر...! – ولا تتاد علىَّ يا سيدى. لقد سبق أن قلت لك ذلك. أنا "تزييو" (العم) رونكونى. لماذا فى الجانب الآخر؟ أريدها هنا. أنا أقبض عليه دائمًا بيدى اليسرى، وأخطئ التسديد باليد اليمنى.. طيب، فهمتنى طبعًا.

– تقول السيدة إنها فى الجانب الآخر لا ترى من الباب.

– ومن يا ترى يطل من هذا البـــاب ؟ أنـــت فقـــط وأنـــت تعرفينها. لعينة هى النساء !

– وعدت آنونسياتا بالطاعة وهى تنسحب مهمهمـــة غيـــر أن الشيخ يعرف أنها لن تفعل. ستتركها حيث شاءت ككل شيء تنظمه.

بينها وبين أندرييا يفقد صوابه... فقد أنقذ بالصدفة دثاره رفيق حياته، وهو الآن يخفيه نهارًا فى قاع الخزانة. وعند وصوله، أرادت أندرييا أن ترمى بالدثار وتمنحه جديدًا. استسلمت أمام غضب الشيخ، لكنه سمعها تقول لزوجها إن تلك الخرقة لها رائحة الماعز. "ليت هذه العينة قد فاحت بالحياة بقوة كما تفوح الشياه!"

بعد استعادة مبولته، يجلس الشيخ على الفراش ويقاسى الرغبة فى لف سيجارة؛ كى يهدئ الروسكا التى تمشى اليوم هائجة وتبـــدو شاكية فقد ترك الشيخ عادة التدخين. كان قد أخرج بعض الورق لمـــا أنقذه بكاء الطفل، وراح يجرى نحو المهد ناسيًا الدويبة.

كانت آنونسياتا قد وصلت بعد وها هى تهمس مسلية، ولكـــن الطفل لا يهدأ. تطلب المراة المعونة من الشيخ : لاحظت هى أيـــضًا أن الصوت الخفيض يهدئ الطفل. لعله يريد أيضًا العودة فى أقـــرب وقت إلى مكنسته الكهربائية. مهما يكن الأمر، فالجد أخذ يدندن أغنية قروية هادئة. لكن – وهذا غيب – يواصـــل برونـــاتينو الـــصراخ، ويحرك قبضتى يديه الصغيرتين، ويحتقن كما لو أصابته نوبة... بلغ

به الأمر حَدَّ خلع خفيه الصغيرين، مُسندًا حذاء كل رجل بالخلف لقدم الأخرى. حيلة جديدة تعلمها أخيرًا، كى يمارس سلطته الطفولية مجبرًا امرءًا على إلباسه إياه؛ لأنه، حسب أندرييا، "يريد الاستبداد بهم". لكنه الآن يجعل من ذلك حركة عدوانية راميًا إلى الهواء بالحذاء كما لو كان قفاز تحد.

- تقول آنونسياتا وهى خارجة : قد يكون فى حاجة إلى تغيير لباسه.

تعود بسرعة بجفنة بها ماء دافئ، ومعها إسفنجة وتلك الأكياس البلاستيكية وقطن، كأشياء لا بد من توافرها للأطفال فى ميلانو. كل شىء محكم وفُقد. "بهذا لا يمكن أن تنمو له الرجولة نموًّا حسنًا !"

يجب تغيير لباسه، شىء مؤكد، لكن يمكن أن يكون غاضبًا لأمر آخر ؟

يلقى الشيخ بالسؤال :

- اسمعى ! ألا تُشْعَل هنا المصابيح فى البيوت ؟ لأن اليوم يوم الأموات.

- تلك العادات قد أتى عليها الزمن.

- نعم، ولكن هل أتى كذلك على منح اللعب للأطفال؟

– فى يوم الأموات ؟ من يخطر على باله مثل هذا؟

– على بالنا نحن أهل الميتزو دجورنو (الجنوب) كما تقولون. نعم فالأموات يأتون باللعب إلى الأطفال.

– يا لها من عجائب. هنا لنا ملك الشرق أو باب نوويل !

– عجائب العجيب هم هؤلاء الملوك أو النوويل هذا. ما لهم والأطفال ؟ ثم إنهم أكذوبة بعكس الأموات فهم حقيقة، هم لنا ألا تفهمين؟ هم أجداد الأطفال ويحبونهم؛ لأنهم من دمهم.

"هم حقيقة – يكرر الشيخ لنفسه؛ فرحًا بدفاعه عن الأموات، مقدمًا لهم هذه الإتاوة فى يومهم – انظر، يقول بعضهم لبعض، لقد تذكرنا هذه السنة فى ميلانو... آه.. واضح جدًّا فهو برونو روكاسيرا."و علاوة هذا سيشعل لهم شمعة فى غرفته، معه واحدة فى حقيبته، لأن النور الكهربائى يتعطل عندما نكون فى أشد الحاجة إليه. والأموات يجب إضاءتهم كى يجدونا عندما يزوروننا.

وضعت بعد آنونسياتا الطفل على منضدة المغطاة بفرش، وأخذت فى تعريته. يفكر الشيخ مستنكرًا : "لا تعرف كيف تفعل ذلك فوق تنورتها، وهى جالسة فوق كرسى منخفض، كما يفعل ذلك فى كل الأزمان".

نعم ! كان الطفل فى حاجة إلى التغيير. يبتسم الآن وهو مغسول بليل، بينما يدهن ببرهم ضد الالتهابات. "كما لو كان إسته

وجه صبية ! هكذا يفكر الشيخ غاضبًا، خاصة أن المرأة مررت إصبعها الدسم بين إليتيه كتوقفه فى الوسط – هناك لا يمس الرجل !"

من حسن الحظ أن الطفل كى يشعر أن مثل تلك اللمسات لا تنقص من رجولته، يعود فيظهره فى جسارة. "لا يمكن نكران أنه حفيدى!... أحسن الناس القول بأن الأطفال يشبهون أجدادهم، أكثر من شبههم لآبائهم.. "لكن المنظر النشيط سطع مرة أخرى بعدة البلاستيك غير الرحيمة. "يا للفظاعة !".

تدخل آنونسياتا الساقين الصغيرتين فى ساق المنامة[١] وتدير الطفل كى تزررها له من خلف. يواجه الشيخ بإصرار الزر الأعلى، لكنه لم ينتهِ منه بعد، بينما آنونسياتا كانت قد زررت البقية. "اتركه، له تقول له، ولكن الشيخ يجعل من المهمة مسألة شرف. غير أن الدائرة الصغيرة تنزلق دائمًا بين أصابعه الخشنة. ونظرًا إلى إلحاح الشيخ، بدأ بروناتينو فى الهمهمة، فيعترف الشيخ بهزيمته، مخمدًا فى صدره لعنة متأوهة.

تزرر آنونسياتا الزر فى الآن ذاته، وها هو الطفل ممدد فى مهده. يجلس الرجل عند قدميه ويستأنف الدندنة، كما كان يفعل قرب خرفانه قبل نصف قرن. لحن حزين؛ لأن فشله أمام الزر الصغير لا يزال يثقل عليه، فراح يتروى. "إذن، لو كنا نعيش وحدنا لما استطعت إلباسك كى لا تزكم. لا. لن يلفه فى الدثار، هذا لا يجدر بطفل."

---

(١) بالعامية البيجامة.

غرق الشيخ فى أفكاره، فلم يشعر بوصول أندريا، التى تستقبلها آنونسياتا فى البهو.

- يُنيمه الجد يا سيدتى. الرجل متخم بالعجائب، لكن يمكن تركه مع الطفل . إنه يجلس عند المهد ككلب الحراسة.

تقترب أندريا على كل حال من الباب نصف المفتوح، وتتشمم؛ لأن حماها، هذا المنطوى على نفسه قادر على التدخين. لا عن سوء قصد؛ بل لأنه لا فكرة له عن الصحة ولا عن تربية الأطفال... لا تشم شيئًا من حسن الحظ، لكن تدعو الحاجة إلى الصبر مع هذا الرجل!

داخل الغرفة، سكت الشيخ لما نام الطفل. النور الضعيف يخترق الفجوة بين الستائر، ويقع رأسًا على يدى الشيخ. يتأملهما وقد استحوذت عليه أفكاره : ظهراهما، كفاهما. قويتان عريضتان بعروق ضاربة إلى الزرقة، أصابع كجفن الكرم، أظافر صلبة وقصيرة، بقعة بنية صغيرة بين الزغب...

يتأملهما : هذان المخلبان اللذان يعرفان كيف ينحران ويلاطفان. استقبلا خرفانًا فى الحياة الدنيا وكبحا الخيل، ورميا بالديناميت، وغرسا أشجارا وأنقذا الجرحى وروَّضا نساء... يدا رجل، يدا رجل لكل شيء : الإنقاذ والقتل.

كل شيء، إنه الآن غير متأكد. والزر ؟ وحمل الطفل جيدًا ؟ هل تصلح يداه لهذا ؟

إن فشله الذى سبق قبل حين غمه. وهذه الأصابع التى يحركها أمام عينيه... معقدة، خشنة... لا تصلح لهذه البشرة الحريرية. هـل هذا ممكن ؟ لأول مرة فى حياته لا يفخر بيديه ! "إن بروناتينو فـى حاجة إلى أيدٍ أخرى. له يدا آنونسياتا... لكن، ما هذا الجنون الـذى أفكر فيه ؟ أنا أحسد امرأة كالميلانى !؟ لا لا، يداى كما هما: هاتـان يداى أنا !"

يحتاج إلى وقت لتهدئة نفسه، ليغفر لنفسه خطيئة كهذه ! لكـن لا يعنى هذا أنه تخلّى عن الأناة. "هل القـوة معرقلـة ؟ أن تكـون صالحة ! للأزرار الصغيرة أيضًا، لتغيير لباسه، لأى شـىء كـان ! بعيدًا يا نساء ! وطفلى بروناتينو، لا غير حتى يصير رجلاً" .

الاثنان وحدهما. هذه الفكرة تروقه. هكذا لن يفـسدوه. لكـن، إذن... حاضن ؟ الاختناق المفاجئ يجبره على تمرير سـبابته بـين رقبته وبنيقه(١) القميص. يتخدر، ثائرًا ضد تخيلات كهـذه؛ فيـشعر بالدم يتدفق فى وجنتيه. "لا ؟ أنا سأكون شيئًا آخر ! معلم، هـو ذاك، معلمه ! "لكن الخوف من الخطأ لا يغرب. "يا للحياء ! الدويبة أكلـت شجاعتى !"

---

(١) رقبة القميص.

يتأمل هذا البياض المستدير فوق الوسادة، بلون الشفاه اللطيف والعقصة[1] السوداء على الجبين. نوبة شديدة من الحنان تقتلع منه زفرة صامتة، وتقود يده نحو هذا الوجه الصغير. يلمسه بإصبعه ويتراجع فجأة كما لو أنه احترق؛ وذلك لأن هذا الخد قد أيقظ في ذاكرة الإصبع اللحمية لمسة ملاطفة لدونكا. اليد تتذكر، وتطلق انفجارًا من الذكريات فى هذا الرجل. دونكا ! تلك الأيام، وتلك الليالى!... دونكا نائمة بجانبه. خد دونكا مثل هذا الخد.. أم أن الأمر بعكس ذلك : يد دونكا فى وجه الطفل أو فى وجه الشيخ ؟.. مشاعر غائمة، بلبلة اللمس، غموض.

يتجه النور مرة أخرى إلى اليدين والنظرة العجوز مسمرة فيهما. لكن أى يدين ؟ يندهش لاكتشافهما مختلفتين، لاكتشاف هاتين اليدين المدمجتين فى معصمه : بيضاوين، رقيقتين، أنثويتين ؟ كيف وهما مفعمتان بالقوة! وبعد ؟ دونكا، هى أيضًا قد قبضت برجولة على الرشاشة القتالة !

تنقلب دهشة الشيخ إلى غم. "هل أصبت بالعين؟ الرجاء أيها الأموات المقدسون : أريد يدى ! ويضغط على صرة تمائمه...

يهدأ الزلزال الداخلى وتعود الحياة إلى نظامها. يعيد الشيخ لملمة شتات نفسه وتجذيرها، فيدرك المكان والساعة.. هل أخذه النوم أو لعله كان يحلم ؟ يلهث ويحرك رأسه نافضًا أشباحه، كما ينفض الكلب المبلل الماء. يعاين يديه : هما كما كانتا دائمًا.

---

(١) خصلة الشعر.

... إلا أنه يشتاق... لو كانتا أيضًا يــدى دونكــا ! للاطفتــه ولمست جبينه محررة إياه من سطوة السحر... يعيد الحياة فى داخله إلى أغنية عاطفية كانت شائعة قبل أربعين سنة وكانت تــسهم فـــى غمار الحرب فى نسيان طلقات النار... وفـــى مـــساء أحـــد الأيـــام بريمينى، كانا يدندنانها معًا وهما نازلان نحو البحـــر، مـــن معبـــد، "ملاتستيانو" الذى يدهشها كثيرًا... المنزل بالحى البحرى وفى فنائـــه الدالية القديمة فوق رأسيهما وعنب ناضج على ملمس اليد... دونكـــا مضطجعة وقد اتكأت على مرفقها وانتزعت عنقودًا و... هـــو ذاك، بالضبط، السيدة الأترورية!.

نشيج عميق يتجمد فى الـــصدر العجـــوز، تقمعـــه رجولتـــه المستكرة... لكن الحنان يغمره فى بحر هادئ؛ حيث – كدلفين غير منتظر – تقفز هذه الكلمات :

– برونانتينو، ما أنت فاعل بى ؟

همس هذه الكلمات باللهجة الدارجة، وبها سأل أيضًا دونكـــا، مستسلمة. أربعون عامًا إلى الوراء... يعيش من جديد فى شفتيه طعم القبلة التى استقبلها إذذاك كجواب وحيد.

قلقان، عمران، وقتان حيويان يندمجان فى صـــدره منتـــزعين هذا التوسل، هذا الأنين، هذا الاعتراف، هذا الاستسلام...

– ياطفلى برونانتينو !

(١٤)

أندريا لا تذهب إلى الجامعة أيام الأربعاء فتتفرغ "لمراجعة منزلية" يعرف الشيخ ما يعنيه هذا : أن آنونسياتا تكون قد قامت منذ وقت بالتنظيفات المطلوبة، عندما تخرج أشياءه من غرفة النوم متداخلة. سروالها مصنوع من القطيفة الخضراء. تلاعب الطفل إن كان صاحيًا، تقوم بجولة تفقدية مدلية ببعض الملاحظات، وتنتهى مختفية وراء كتبها فى ركن من المكتب كما تسمى قاعة الجلوس. تنزل من حين إلى آخر فجأة كما ينزل الصقر منقضًا؛ حيث تقدم خدماتها أو باحثة عن الشيخ، الذى اعتاد أن يلتجئ إلى كرسيه بالمطبخ. تنظر إليه بصبر مقدس وأحيانًا تقول له :

– يا أبى، ما الذى تفعله هناك ؟ مكانك بالمكتب على مقعدك الفلورنسى !

إن الشيخ يفضلها بالنظارات كما كانت من قبل ؛ فهى تعطيها هيئة بسيطة كالمعلمة. أما بالعدسات فهى تبدو امرأة أخرى، أكثر غرابة.. "لو لم يكن الأمر أنى لا أريد أن أهدى جنازتى للكانتانوتى..! مادونا ميا (يا عذرائى) إعطنى حياة لشهر واحد أكثر من ذلك التيس ! ما يكفى للعودة هناك !... إنه الدعاء اليومى.

للمرة الثالثة تطل أندرييا على المطبخ. "دروسها غير ناجحة اليوم " يفكر الشيخ – لذا لما سمعها تأمر آنونسياتا بشراء فاكهة وخبز، عرض أن يشتريها بنفسه كى ينأى عن المكان.

– واضح أنى أفرق فى الكمثرى ! فأنا رجل ريف!

تقبل أندرييا وبعد فترة طويلة، يعود الشيخ منتصرًا بمشترياته. ويتبجح ضاحكًا :

– خى، خى...! أرادت أن تخدعنى بإعطائى من تلك الملفوفة فى البلاستيك؛ كى لا أستطيع جسها... لكن، نعم، نعم، مهملة تركتها!

– من هى يا أبى ؟ تتزعج أندرييا.

– الفلانة التى بمتجرك. لتأكلها هى ! السارقة ! انظرى إلى الإجاصات التى أتيت بها،وبنصف الثمن.

– تفتح آنونسياتا الطرد وتسأل :

– والخبز ؟

– آه، الخبز، طيب.. لا تكلمينى عنه ! أهذا تسمونه خبزًا ؟ أنا خبير فى أنواع الخبز، لكن لا أفهم هذا الشىء. وبما أنى نسيت الصنف الذى تريدينه..

أصناف كثيرة من الخبز فى ميلانو ! وكلها واحدة: اصطناعية. تنظر إليه أندرييا بيأس كالضحية.

- لكن انظرى يا امرأة، انظرى إلى هذه الإجاصات ! إنها طبيعية، لا كالأخريات، متساوية بدرجة تجعلها وكأنها من شمع... أضيفى إلى ذلك تلك الحيلة التى تمنع حتى من شمها، ولكى تدفعى وزن الورق المقوى.. طيب، لو ذكرتنى بالصنف لنزلت مرة أخرى من أجل الخبز.

- لا يا أبى، لا تشغل نفسك. فعلىَّ شراء بعض الحاجات الخاصة بى... بعض العطور، نعم، هو ذاك.

إن نظرة أندرييا ولهجتها تفصحان عن غضب، فيقرر الشيخ الذهاب هو أيضًا، بعد انصرافها؛ لأنه لا يريد البقاء فتجده عند رجوعها. إنه سيضجر يومًا ما، فيبعث بكل شىء إلى الجحيم...

لما خرج الشيخ، كانت أندرييا قد وصلت إلى دكان فاكهتها المعتاد، وكانت تعطى بالشروح إلى صاحبته المستاءة جدًّا من تصرفات الشيخ. تجهد أندرييا النفس فى تهدئتها.

- لقد وصل به الأمر إلى نعتى بالسارقة، يا سيدة رونكونى، أمام زبائنى ! سارقة أنا ؟ أنا التى أدقق فى الأسعار وأدقق، كما يعلم الحى كله.

- اعذريه يا سيدة مورانتى، إنه مُسن ومريض. ثم إنه من الجنوب، ريفى، أنت تفهمين ذلك... لو عرفت ما أتحمله منه ! اعذريه من أجلى.

– أعذره من أجلك؛ لأنك سيدة حقًّا.. أما هو فلا عودة من فضلك... ثم ألم يرد تمزيق بلاستيك الأوعية كي يلمس الفاكهة ؟.. إنه جلف قروى، واعذرينى، بلا فكرة عن النظافة ! ثم تحامل على ميزانى الأوتوماتيكى، أحدث ميزان : مصرًّا على اختباره بمثاقيل حقيقية، على حد تعبيره... شاكًّا يا سيدتى، شاكًّا ! ميزان من طراز فيريتاس مختوم من قبل دوائر المحافظة...! ثم هات المناقشة والمساومة، بينما الدكان ضاج بالناس ينتظرون... لكن، ما لا أغفره له هو عدم الثقة. لنا ثلاثون عامًا، ولم يشتك منا أحد أبدًا !

تتحمل أندريبا الوابل مفحمة كى لا تقع فى نكبة ؛ إذ إن الدكاكين الأخرى بالحى هى أدنى من هذا، وطبعًا لم يخطر لها على بال قط دخول دكان أهل "تارنتو"؛ حيث اقتنى الشيخ فعلاً مشترياته. تلين صاحبة الدكان فى النهاية:

– لا يصدق أنه أبو زوجك بوجاهته اللافتة. وأنت سيدة كاملة، يا دونيا أندريبا، بنت عضو بمجلس الشيوخ، وأستاذة جامعية كما يجب...

بينما تفتخر بائعة الفاكهة بمهارتها أمام الشاريات الأخريات، تواصل أندريبا القيام بدورها كضحية :

– ما الذى يمكنك قوله لى يا سيدتى، فأنا التى أتحمله ! من أجل الطفل لا أنعم بالاستقرار. لا أحد يدرى ما الذى قد يحدث لهذا الرجل. فهو يبدو، فى بعض الأحيان، كأنه غير عاقل.

– كان لزامًا عليه أن يكبح جماح نفسه، بما أنه يسكن في منزلك... كيف يسمح زوجك بذلك ؟

– لا نستطيع فعل أى شيء، فهو متهالك.

– من حموك، على الرغم من هذه العفرتة وهذه الأخلاق ؟ – تندهش بائعة الفاكهة.

– سرطان.

تصيب هذه الكلمة المشؤومة الحاضرين بالوجوم، وتدعهم في حال لا يحسدون عليها.

– مسكين !

ويستحق. يعالجه الأستاذ دالانوتى، بما أنه زميلى بالجامعة..

– دالانوتى ؟ إنه قمة ! إنه علامة.

تشرح أندرييا كيف يفعلان المستحيل كى يجنباه الآلام، لكنه يُصعِّب كل شيء كثيرًا بهوسه..! وتنتهى طالبة كيلووين من فاكهة كما يجب : مصونة، محفوظة صحيًّا ومُغلَّفة بالبلاستيك :

– مظهرها حسن تلك التى هناك.. كيف هى ؟

– من أحسن صنف. مثل اليوغسلافية التى اقتنيتها مرات أخرى، والتى لم يبق منها. تلك يونانية.

– نعم، نعم، من اليونان !

افترقت بائعتا الفاكهة راضيتيْن لحصولها على الاعتذارات أمام الجمهور ثم وبعد كل شيء، لا يمكن لأى مسيحى حقيقى أن يكون مُلحًا أمام السرطان. وأندريا، لأنها حسمت الخلاف؛ فهى لا تريد مشكلة مع هذه المرأة التى تبيع غاليًا، لكن يتردد عليها الوجهاء. وهكذا، وبرأس شامخ، تعود أندريا إلى منزلها شارية فى طريقها البانيتو (الخبز المكعب الشكل).

فى هذه الأثناء، كان الشيخ جالسًا على مقعد بالحدائق محتميًا من البرد بسترته الجلدية، ومدخنًا فى سلام سيجارته الوحيدة التى يسمح بها لنفسه طول اليوم، باستثناء سيجارة ما بعد العشاء بعد دخوله غرفته. إن عقله يجتر الدهشة التى اعترته عند التعرف إلى زوج السيدة مادالينا عندما ذهب لشراء الإجاص. رجل طويل القامة، نعم، ولكنه مترهل، بوجه منافق وشعر مفروق مفلطح، وصوت حاد جدًّا !

– والسيدة ؟ – سأله الشيخ مجاملاً.

– ذهبت إلى المحافظة بخصوص التراخيص. هذه المسائل تعالجها هى... من المفروض أنها رجعت الآن، يضيف ملقيًا نظرة على الساعة المعلقة وراء منضدة العرض:

– أبلغها تحية رونكونى، وهو من كاتنزارو.

"لماذا رماني الرجل بنظرة شزراء إذن ؟ -يستحضر الشيخ صورة المرأة – "لا، هذا الرجل لا يليق بالسيدة مادالينا؛ تلك الأنثى الحقيقية تحتاج إلى شيء آخر يا لها من قطعة فريدة.

وأنظر من أين تزيح ميلانو الغطاء مرة أخرى عن صندوق مفاجآتها ؛ لأنه لما وصل الشيخ إلى كورسو فينيتسيا، ودار بالمتحف، لمح قبالته بالضبط، فى منعرج شارع سالفينى، سيارة تتوقف جنب الرصيف. يلفت انتباهه أولاً لونها الأخضر المعدنى، وعندما وقفت لفتت انتباهه أيضًا صورة السائق الجانبية المعقوفة وسباله[١] وبشرته الداكنة. يراه يودع بقبلة أحدًا جالسًا إلى جانبه وعلى وشك النزول. يتغير لون نور المرور ويشرع الشيخ فى عبور الكورسو، بينما السيارة تتحرك بسرعة تاركة راكبها على الرصيف. إنها امرأة، طبعًا، ولا غير السيدة مادالينا، منتصبة على الرصيف بشكلها الجميل، حسنة الثياب ومودعة بيدها المرفوعة السيارة المبتعدة. بعد ذلك، ومن دون أن ترى الشيخ وراءها، تدخل من شارع سالفينى متجهة إلى دكانها.

يبتسم الشيخ ابتسامة عريضة : "انظر، انظر، انظر السيدة مادالينا...! يفهم كل شيء إذن.

---

(١) الشعر فوق الشفة العليا = الشارب .

(١٥)

كان الشيخ متجولاً فى ما وراء الحدائق، فوصل إلى ميـدان كبير فى وسطه نصب تذكارى : تمثال لفارس يعلـو قاعـدة هائلـة برموز برونزية فى جوانبها. "هذه القبعـة وهـذا العثنـون... هـو غاريبالدى ! يا له من حصان ! حسنًا، قد فعل الميلانيون شيئًا ففـى الأقل قد تذكر أهل الشمال بغاريبالدى وهم الذين تركوه مرميًا. ولمـا انتهى من ملوك نابولى... كم كان يحسن تفسير كل هذا ذلك الأسـتاذ فى فرقتنا. كما رموا بنا، نحن المقاومين، لما قضينا علـى الألمـان. عاد البارونات إلى التدخل فى ما لا يعنيهم، وحكـامهم المـستبدون يحكمون من روما كالعادة...!"

يواصل السير إلى الأمام تحت أشجار شارع آخـر، ويتوقـف ثانية عندما لمح فى آخر الشارع السور الأحمر الذى يحيط به.

"يا له من برج ! حصن حصين بكوى للرمى ! يقاوم كقلاعنا. هذا لم تستطع تدميره ولا طـائرات هتلـر... فهـو يحـتفظ حتـى بالكامبانيلى (برج الأجراس) فى أعلاه !"

يتوقف عند كشك. تسحره واجهات المجلات، فتجذبه الـصور كما تجذب الأطفال. "يا لها من أعجاز، يا لها من نهـود ! أصـبحوا الآن يعرضون كل شيء. يلذ هذا؛ لأن العيـون لا تـشيخ... لكـن يغضب أيضًا. كلها كذب فهى من ورق لا غير ! تثيـر ولا تلمـس. يجب أن يكون المرء باردًا كالميلانيين كى يتحمل هذا."

تجعله الصور ينظر بنظرة أخرى إلى المارات "كيف ترتدى نساء اليوم، ماما ميا (يا أماه)" يلبسن القصير؛ مما يجعله يشعر بالبرد مكانهن على الرغم من سترته الجلدية؛ فيسرع الخطى بعد أن أشعل سيجارة يومه. يلاحظ بالقرب من السور لافتة سياحية تعلن بشتى اللغات : قلعة سفورتسيسكو. متاحف ! مرحى متحف يظهر صدفة، بينما هو لا يعرف إلى أين يذهب حتى تدق ساعة الغداء. يقرر الدخول، وبه رغبة طارئة لمشاهدة ذينك الأترورِيين مرة أخرى.

إنه لم ينسهما. من ذلك أنه سأل أندريا فأقرضته كتابًا سميكًا، ملحة عليه العناية به عند استعماله.

– إنه كتاب فن يا أبى، يجب ألا تفتحه أبدًا أكثر من تسعين درجة. أعنى : هكذا.

مُتْخم بالأترورِيين هذا الكتاب، فعلاً، لكن لم يؤثروا فيه. كانوا مثل أعجاز الكشك ونهوده : كذب على ورق. "هؤلاء الناس، بكثرة الكتب، تلتبس عندهم الصور بالأشياء."

لهذا يتمنى لو يرى الآن أترورِيين من أولئك. لكن الحارس الأول الذى سأله فى الداخل ينبهه بأن لا أترورِيين هناك.

– وكيف لا ؟ – يغضب – هذا متحف أو ليس بمتحف؟

– نعم يا سيدى، لكن لا أترووريون قدامى لدينا. فذلك تجده فى روما وفى الجنوب.

"واضح فالأتروريون هم أكثر فى الجنوب، أيها اللعين لم يكونوا هنا ليضحكوا قط كما يضحكون ! لكن أى متحف هو هذا المتحف ؟.. لما أقول إنه من روما إلى الشمال ليست إيطاليا.. ولا حتى روما نفسها !"

يبرر الحارس فى هذه الأثناء مجموعاته :

– عندمنا قطع بديعة. بعضها من أحسن ما يعود إلى عصر النهضة. من كل شىء : رسم زيتى، نحت، سجاد، أسلحة...

"أسلحة ! خير من لا شىء، بما أننى قد دفعت..."

إن الأسلحة تستحق المشاهدة طبعًا. وتؤثر فيه.

"أولئك الناس كانوا رجالاً حقًّا ! متقلون بالحديد ومع هذا يقبضون على سيوف كبيرة كأنها رماح. وهذه الدبابيس ! ما أجمل الصوت الذى تحدثه فى الخوذة عندما تستحق رأسًا.. لو تركوا لنا دبوسًا لى وآخر لكانتانوتى، لقضيت على غمى. أكون موثوقًا إلى كرسى طبعًا : كل شىء بنزاهة... مثل أولئك الرجال، يا لهم من محاربين! بأناس كهؤلاء كان يمكن تشكيل أحسن فرقة حطابين. خلافًا لذلك فإن ميلانيى هذا الزمان... فاسدون !"

الأسلحة تستحق المشاهدة. نعم، لكن البقية لا قيمة لها. لوحات قديسين، زهيرات، مادونات (عذارى)، صور نبلاء وأساقفة... أحياناً، امرأة بارزة النهدين، لكن لا أكثر من ذلك... والأطفال، لا أحد منهم يستحق المشاهدة ! وجوه ممتلئة الخدين، أذرع من زبد كالطفل عيسى. "واضح أن الطفل عيسى له أن يكون كذلك. فبما أنه كان ليِّن العريكة، سمح بأن يصلب، لكن لو كنت مكانه وكنت آتي بالمعجزات، حسب ما يدعون... لكن هؤلاء الأطفال، لا شيء. هكذا يصبح هؤلاء الميلانيون إذا كبروا. من حسن الحظ أن برونـاتينو يجدني أنا، علينا أن نتحمل إلى أن يتكلم، اصبري يا روسكا، اتركيني مدة أطول كي أعلمه كيف لا يكون مثل هؤلاء... ها هو يتعلم شيئًا فشيئًا...

"هل لاحظته البارحة، لما رجعت إلى غرفته وهم نيام ؟ لأن الليل لنا كما في الحرب. كان نائمًا، أتذكرين؟ وفجأة فتح عينيه، وأراد إخراج يده الصغيرة، أو البكاء لا أدري، لكن رآني بجانبه فابتسم هادئًا. هل لاحظت أية ابتسامة هي ؟ كأنها قبلة... أغمض عينيه لكنه كان يسمع كل كلماتي، حتى تلك التي لا أكاد أفكر فيها، ومن دون أن أنطق بها. إنها تدخل حشاياه يا روسكا، هذا الطفل ساحر. إنه يفهم كل شيء. تدخله كلماتي هذه التي لا تفهم هنا. إنها كلمات رجال ينطقون بوضوح!".

لا، لا يجد فى كامل المتحف طفلاً يستحق الاهتمـــام. بعــض اللوحات أثارت حتى الضحك، كتلك التى بها طفل مع قطيــع شــياه. "أين رآها هكذا هذا الرسام غير الموهوب ؟ بوجــوه كالأرانــب أو كتلقيح كلب وأرنب ! تغضبه إحدى اللوحــات. "رعــاة هــؤلاء ؟ – يزمجْر ناظرًا إلى زائر يتسلل أمام هذا الصوت المهــدد – لــو رآه "موروندنترو" الذى هو راعٍ بحق..! فحتى فى أركاديا تلــك، لــست أدرى أين وضعتها الشياطين، لا يمكن لراعٍ أن يكون بهذه الجوارب البيضاء، وهذه السراويل ذات الأحزمة وهذه الأكمام !... وما هــذه النصاحة الملونة فى المحجن[١] وتلك الراعيات بتنورات كالمناطيــد ؟... قليلو الحياء ! إن هذا عيد المرافع (كرنفال). كل هذا يغرى بأن تخرج الموسى فتشق كل الوجوه فى هذه اللوحة، لوحة المخنثين !... رعاة.... باه!

دفعه غضبه إلى الذهاب مسرعًا فى الخطى نحو المخرج. لكن يوقفه فجأة تمثال منحوت :

ليست فيه أية لدونة. بل العكس. يبدو وكأنه لم يكتمــل بعــد، لكنه مع هذا مفعم بالتعبير، حتى أن صلابته، الأقوى مــن الكمــال، تصبح صيحة ونداء للشيخ، صوت نفير.

---

(١) عصا معقوفة الطرف الأعلى.

هذان الشكلان المنحوتان بعشوائية، المتحدان فصارا واحـدًا، يذكر أنه بمنحوتاته القروية فى الهراوات والجذور. لمّا كان راعيًـا، هناك فى أعلى الجبل، كان ينحت بموساه فى ظل شـجرة قـسطل، ونتيجة لكثرة الطعن والقطع كان يخـرج بعـض الأشـكال : رأس بقرون، صفارة، امرأة بصدر ناهد، ولم يكن ينسى فيهـا شـقًا بـين الساقين.. كانت النتيجة مرة صورة أبى كانتانوتى. عرفـوه بحدبـه فكلفه ذلك لطمة من كبير الرعاة، ولو أنه نحت ذلك من دون قصد : من أين له أن يتكهن بخلافات تنشأ بعد سنوات ؟ إلا أن ذلك الجـذع كانت به جدعة بارزة فى المكان المناسب. لعل ذلك أتى نتيجة عـين أصاب بها الكانتانوتى الشيخ.

لكن الأمر الآن ليس أمر عصا خشنة، بل هـو أمـر جـدير بالاعتبار. يدهش الشيخ : نحات جدير بالمقاتلين بالـدبابيس. ليـست هذه صغائر. يقوى التأثر فى الشيخ. ذلك الفنان كان من طينته. لهـذا كان يشتاق إلى فهمه فهمًا أحسن : ماذا نحت فى هذه الصخرة ؟ مـا الذى أراد أن يقوله لنا ؟.. هذا الشخص الواقف، بخـوذة مـستديرة ومعطف معينًا رجلاً عاريًا انطوت ركبتـاه مـن أثـر الغيبوبـة أو الاحتضار... ما اللغز المكنون فيه ؟

وكى يكتشف الشيخ السر، راح يقرأ اللافتـة، لكنـه يحـرك رأسه غير مصدق : ميكال أنجلو : رأفة رونـدانينى، هكـذا قالـت اللوحة.

"مستحيل !... امرأة بخوذة ؟ وحتى لو كان معطفًا يغطى الرأس؟ كيف تكون مادونا (العذراء) ؟ وهى التى رسموها دومًا كطفلة وشيء قليل ؟ عذراء بهذه القوة، منتصبة راسخة مؤازرة، حاملة المسيح ؟.. هذا لا يكون إلا إذا كان ميكال أنجلو من كالابريا؛ حيث لا تزال توجد نساء بهذا النشاط... لا، الأمر هو أن الميلانيين هؤلاء لا يفهمون. كتبوا رأفة لأنهم لا يعرفون بماذا يحتفظون هنا... واضح، لو أنهم فهموا ما هو حسن، لكان عندهم أتروريون."

وحيث إنهم فى ميلانو لا يفهمون هذا النحت، فإن الشيخ يزداد اهتمامًا بهذيْن الجسديْن المبهميْن.

"مقاتلان. ذلك ما يجب أن يكونا. محاربان من تلك الأزمنة، لا شك فى هذا... نعم، كل شيء واضح : أحدهما جرح والرفيق يسنده ويحمله إلى مكان أكثر أمنًا ! كأنا وأمبروزيو، مثل الأخويْن... نعم لأن الذى يلبس الخوذة يتألم. عليه علامة الشجاعة، لكنها مفعمة حسرة... من هما ؟ من أى زمن ؟

يسأل الشيخ محدثًا المرمر كرجل لرجل؛ كى يعجب أكثر بهذا الحنان الشديد، هذا الحب الرجولى العميق، المجسم بغموض فى هذه الحجرة. يسأل سؤال ند لند؛ لأنه لو أخذ إزميلاً مرة ما، لواجه هكذا صخور جبله.

يعدل بعد فترة، ولو أن ذهابه من دون ذلك جعلـه يـدرك أن مـن الصعب عليه أن وراءه المحاربين، كما ترك فى "فيلا دجوليا" تمثـال الأتروريين. هذا مع أن الأمر الآن مضاد. أو هكذا يبدو لا غير ؟ إن النحتيْن قد استوقفاه، واتجها إليه متحدثيْن فى عمق : هذه القـوة مـع الألم وتلك الابتسامة فوق القبر. يبتعد مجللاً بتأثر شديد. ومعه كـذلك الحسرة لعدم تمكنه من تحديد ذكرى مهمة تسعى لتطل فى داخله.

فى ليالى الريح الجنوبية، يـسمع الـشيخ أصـوات أجـراس الدوومو، على الرغم من أن النافذة مغلقة. فهل هذه الأصوات توقظه الآن أم هى ذكرى المحاربين اللذيْن ظلا، طوال النهار وكـذلك فـى المنام على ما يبدو، يطرقان أبواب ذاكرته المغلقة ؟ الحال هى أنـه صحا لتوه فجلس فجأة على الفراش، وعيناه مفتوحتان جدًّا، كل جسده تيقظ.. هذه الخطوات المختلسة... من يقوم بالحراسة هذه الليلة فـى المقدمة ؟ هل باغتوه ؟ كاد أن يضع يده على الرشاشة، ولكنه تـذكر أنه فى الجبل. فالخطوات قد تكون لريناتو، قادمًا نحو الطفل...

يبتسم الشيخ، ثم يضطجع متنعمًا.

لكنه لا ينام، بل بالعكس؛ لأن المحاربين حطَّمـا – فـى النهايـة – أبواب الذكرى، ويصعد الماضى فى الظلام فيبهر :

"تورلونيو"، أطول وأقوى من فى الفرقة لابـسًا فـى رأسـه القناع، كالخوذة والمعطف فى التمثال، يسند دافيد محتـضرًا فيكـاد

يوقفه على رجليْه وإلى أعلى ما يستطيع؛ كى يمكنه من رؤية المشهد الساحر الذى أثاره المقاومون هناك فى أسفل الوادى، الألمانى الناقل للذخيرة منفجرًا فى كل الأنحاء كحريق لا يبقــى ولا يــذر... بــرق وانفجارات تمزق الليل، وسقوف عربات تتطاير فى الهواء والجنــود القليلون الذين نجوا يهربون مذعورين، وبعضهم، بزيــه الملتهــب، ويلقى بنفسه فى ماء الكراتى".. كانت العملية البطولية ضربة قاســية للجيش الألمانى الجنوبى، والذى نفذها هو داڤيد، بمفجراته ومركباتــه وأسلاكه ونظاراته السميكة لأنه أحسر.

داڤيد الصغير، اليهودى الفلورنسى، الطالب فى الكيمياء والذى عين فى الفرقة لمعارفه التقنية. داڤيد الذى كان يضحك منه الجميــع عندما يعترف بخوفه قبل كل عملية، وعلى الرغم مــن ذلــك فإنــه يخاطر فيها، كأول المتقدمين. داڤيد الذى عندما فشلت فى تلك الليلــة تجربة الحريق؛ عاد فنزل وحده حتى بلــغ الــسكة الحديــد، فــنظم الاتصالات والقطار على وشك الوصول، فاكتشفوه وهــو ينــسحب، محاولاً عبثًا إنقاذ نفسه صاعدًا إلــى الجبــل، هاربًــا مــن المــدافع الرشاشة. ومع هذا فقد جمع قواه حتى وصل إلى رفاقه. داڤيد الــذى أضاع نظاراته فى سباق حياته الأخير، أفصح فى ضوء الانفجارات الأحمر عن عينيْن سوداويْن جميلتيْن معبرتيْن وعميقتيْن.

جميلتان إلى أن بقيتا ثابتتيْن ثم علتهما غشاوة، بينما الجــسد، وقد انثنت ركبتاه يتــساقط نحــو الأرض بــين ذراعــى تورلونيــو

المشفقتين، تورلونيو الذى بدأت الدموع تبل نظرته فى وجه هدمته التى تثير الشفقة.

(١٦)

رس، رس، رس...

تمر الشفرة وتعود على العثنون المطلى بالصابون. صوت يكاد لا يسمع إذ الشيخ يسمعه من الداخل عبر العظام. كذلك الماء لا يحدث صوتا وهو سبيل؛ لأنه يقع على الإسفنجة الموضوعة فى أسفله قصدًا. لا يشعل الشيخ نور بيت الحمام، يصله ما يكفى من نور المدينة، التى لا تظلم؛ فهى مسربلة دومًا دومًا بنور خافت.

إن الماء الساخن لا يصلح لإنعاش المرء ! لكن للحلاقة الماء الساخن أفضل من البارد، لا بد أن تكون له ميزة. وعلى الرغم من هذا، فإن مرور الشفرة فوق شعاب العثنون يحدث هذا الصوت الخفيف الشبيه بصوت منشار صغير. بعد كل مرتين لا بد أن يرمى بالشفرة، ولو أنه يبتاع الرخيص منها والأكثر خشونة. إن هذا يهدئ من روعه ويعوضه عن شعوره يوميًّا بأن وجهه وجه امرأة، فقد كان يحلق مرتين كل أسبوع فى روكاسيرا. عثنون رجل بحق، مثل يديه اللتين لم تبدوا له أنثويتين إلا فى أحلام ذلك اليوم. هكذا يفكر على الرغم من الحلاقة الشديدة؛ ففمه محافظ على زرقته. الخلاصة، بفضل هذه العناية لم يسحب بروناتينو خده الصغير، تلك الليونة الحريرية والياسمين.

يأخذه ويضمه لما لا يرونه. هذا لا يعجب أندرييا. فبالأمس كانت تشتكى لآنونسياتا؛ ظانة أنها غير مسموعة فقالت : هذا الطل كأنه يفوح تبغًا. يا إلهى ما هذا العذاب! "غضب الشيخ لهذه الكذبة. أولاً لا تشم، ثانيًا لأنه ألغى حتى سيجارة الضحى، التى كانت تهدئ الدويبة. "يا روسكا، افهمى ذلك، عليك أن تضجرى مثلى ولو صعب علينا ذلك"

جرح نفسه قليلاً بفرح : هذا تعالجه حجرة الشب، ثم إن قليلاً من الدم يظهر الرجولة فى وجه أملس يتشبث تفكيره الشارد بهذه الكلمة : أملس. أمدرييا كذلك. بلا نهود ولا أوراك و لا عجز مثل قساوسة "ريدجيو"... ما الذى أعجبك فى هذه المرأة يا بنى ؟ لهذا تبدو جادًّا دائمًا. أراهن أنك فى المضجع لا تفعل سوى ما تسمو لك بفعله، هذا إذا لم تقل إن بها صداعًا، هل كان أبوها المتباهى حقًّا عضوًا بمجلس الشيوخ ؟ يا له من برلمانى ولا ليرة له ؟ أنا لا أثق أبدًا فى أعضاء مجلس الشيوخ؛ فكلهم تغوطوا بسراويلهم نازلة أمام موسولينى."

غير أنه بينما كان يجفف وجهه، أجبرته عضة من الروسكا على الانحناء. لقد باغتتها المفاجأة فقضت الليلة مضطربة، تدور من دون أن تستقر مثل الكلب قبل أن ينام. ولما هدأت، لم يستطع الشيخ أن يصالح النوم إلا متأخرًا. كان يشتاق إلى الألم، كما لو كان الألم هو الطبيعى.

يجلس فى المرحاض وينتهى بسرعة. ينهض ويرى. "دم، مرة أخرى. واضح، حركة الروسكا البارحة. فى مرحاض القرية لم أطلع على شيء، لكن فى هذا الفنجان الرقيق يقدمون النتيجة للمرء كما لو كانت فى نافذة عرض. دمى، حياتى، تهدر يومًا وآخر أيضًا.. كم بقى لى ؟

الحال هى أنى لا أشكو ارتعاشًا، ولا أية علامة مما يتحدثون عنه."

ينظر إلى نفسه فى المرآة. وجهه لم يتغير. صحيح أن العينين السوداوين كعينى بروناتينو يظهر عليهما ضباب خفيف أبيض حول القزحية[١] لكن هذا كان كذلك منذ زمن بعيد. نعم، مثل عينى برناتينو، ولكن فى وجه شيخ. وبعكس ذلك، فإن الابن قد ورث اللون البندقى عن أمه.

"يا مادونا، اتركينى أعش شهرًا واحدًا أكثر من الكانتانوتى، من فضلك ! سأحمل لك شمعة، أغلظ شمعة أجدها !.. وإن بقيت مدة أطول فهذا أفضل للطفل.."

نعم، لم يعد يكتفى بالشهر الذى كان يكفيه سابقًا؛ كى ينتظر على العدو. أصبح الآن يفكر فى بروناتينو، الذى يحتاجه للخروج من البئر الميلانية...

---

(١)الدائرة التى وسطها حدقة العين.

يلمس صرة تمائمه ويعود فينظر إلى نفسه في المرآة : لا يلاحظ أى تغيير. "هل تجدنى روزيتا كما كنت، لو رأتنى بعد شهر من خروجي من هناك ؟ شهر بالضبط فى يوم كهذا لما وجدت في طريقى الأتروريين!.. مسكينان، لو كان عليهما أن يعيشا فى ميلانو. أنا فرح لهما بأن لا يوجدا فى هذا المتحف. سيشعران بأنهما كالسجينيْن."

يرهف السمع فجأة. جدران المدينة هذه تسمح بسماع كل شيء، ريناتو وزوجته فى غرفة النوم :

– ألا تنامين يا أندرييا ؟

– كما لو كان هذا يهمك...

– اضطجعت متعبة يا امرأة... هل أنت مريضة؟

– لم أعد أتحمل !... إن ما وقع قبل أيام بلغ الحد. سيجعل كل الحى يعادينا. بعد أن نجحت فى أن تعنى بى بائعة الفاكهة من بين زبائنها الرفيعة.

يسمع تنهد ريناتو "كم عساها أعادت عليه حكاية سارقة الإجاص ؟" – يفكر الشيخ متمتعًا. كيف ترك تلك الوقحة ؟ ! طبعًا، لا يعير بقية الحوار اهتمامًا؛ لأنه يريد التصالح مع نفسه، وجمع كل شيء؛ حتى لا يشعرا بغاراته المبكرة. لكن يعيد الاستماع فجأة. يبدو أن الأمر أصبح شجارًا.

– أنت المذنب. كيف خطر لى تكليفك بالمسعى فى "فيلا دجوليا" ؟ كان على أن أتكهن بأنك ستنتهى بالقضاء على كل شىء !

لا يتمكن الشيخ من سماع الإجابة. ريناتو يتكلم بصوت خافت، بينما هى تثور أكثر.

– تَعّلات ! كانت القضية سائرة سيرًا حسنًا بفضل تأثيراتى فى روما. كلهم أصدقاء أبى، حتى مساعد كاتب الفنون الجميلة ذكرنى بأن العم دانيال كان سلفه !... لكن جئت أنت طبعًا و... أى انطباع تركته فى مدير المتحف؟ كيف أمكن ارتكاب مثل هذه الهفوة؟

–...

– أنت لا تصلح لشىء يا ريناتو !... اسكت، اسكت، فالشىء نفسه يجرى لك فى المصنع ! يستغلونك، لا قيمة لك، كلهم يرتقون قبلك، كلهم ! لقد كان من حقك أن تصبح رئيس المخبر ! أنت نفسك كنت منتظرًا ذلك!

–...

.. يرفض إعطائى المنصب، أنا الحائزة جائزة فوق العادية ! أنا ابنة عضو الشيوخ كولومينى فوق شىء. لو أبى المسكين حيًّا؛ لخسر وظائفهم أكثر من أربعة. لكن، لأنى وحدى... لأنك أنت كل شىء..!

تسمع ضحكة خفيفة. وبعد ذلك كلمة واحدة لكن بصقت كالسم:

- ملعون أنت.

عينا الشيخ تتطايران من الشر غضبًا. لا يزال الحزام بيده، فهو لم ينطقْ به بعدُ. يقبض عليه من الإبزيم ويفتح بعنف باب الحمام. ابنه لا يعرف ترويض هذه المرأة، لكنه سيعلمه.

لكن الباب الموارب فى الممر، بنوره الأحمر الصادر عن الفجوة، هو باب بروناتينو. يتوقف عنده برهة ما يكفى لأن ينفجر فى البيت الصراخ.

صراخ، نعم، وقوى جدًّا ولو أن الصوت مختنق:

- اسكتى ! وإلا سحقتك !

"أتقدر على ذلك؟" - يتساءل الشيخ - لكن صراخ ريناتو كان كافيًا؛ كى يتهلل وجهه جذلاً؛ لأن صمت المرأة المفاجئ، وصدمة جسدها ساقطًا على الفراش، يصرحان بخضوعها. فهى حائرة حتى أنها لم تبكِ. والصمت المفروض من ريناتو يثقل ويهيمن على المنزل.

يتراجع الشيخ نحو الحمام، ويعود فيغلق الباب فى صمت. يتنفس مليًّا. وأخيرًا ! قد كاد يشك فى أنه ابنه ودمه نفسه يجرى فى عروقه.

"هذه ليلة سيئة... من يدرى إن كان هناك سحر، إن كان قد كلف الكانتانوتى بعض"الماغارا" (السحرة) ضدى... عندما ينامان فى فراشهما سأذهب إلى بروناتينو كخفير، سأقوم بالحراسة إلى جانبه.. هذا فعلاً من دمى ولدته تلك ! إنه يفهم ويشم ويسمع مثلى.. هو فعلاً من دمى !"

دم... لا يزال هناك، صابغاً الماء بين لمعان الخزف الأبيض. لقد نسى جذب الصفاد. لم يتعود بعد.

يمسك بالصفاد ويديره؛ فيصدر ضجيج يقضى على الصمت. إنه شلال حامل دمه.

(١٧)

أندريا تتنقل جيئة وذهابًا حانقة؛ لأنها تكره الوصول بعد بع الوقت إلى الدرس وآنونسياتا لم تظهر. انزوى الشيخ حذرًا فى غرفته؛ كى يغيب من أمامها. فجأة تطل هى :

أتجرؤ على البقاء وحدك مع الطفل يا أبى ؟ هو نائم ؟ هو نائم الآن وآنونسياتا لن تتأخر. لا بد أن تأتى. لو حدث لها مانع لهاتفتنى!

"وتسألنى لو كنت اجرؤ... إن ما لا تريد أن تتركه لى هو أنت!" يضحك الشيخ فى داخله. ويدارى سعادته مظهرًا وجهه المجامل. تذهب أندريا ويبقى هو راجيًا المادونا أن توقظ بروناتينو؛

كى يأخذه بين ذراعيه. وفى هذه الأثناء، يدخل غرفة نوم الصغير، ويتأمله ثم يستعد للجلوس على البساط. لكن لا يترك له الوقت : فالثقل الموازن للمصعد الذى نزلت فيه أندرييا لا يزال يرن لما سمع صرير بكرات مصعد الخدم...

"لقد أفسدت على العجوز. يفكر وهو يخرج إلى الممر من دون رغبة.

يوقفه الاندهاش أمام المشجب، فتاة تعلق شالاً أصفر وتخلع عباءة من الصوف المغروز. ترتدى رداء بنفسجيًّا كما لو كانت غجرية، بها رسوم شرقية مطبوعة وتلبس حذاء بندقى اللون. وتعلق أيضًا حقيبة يد من الجلد كبيرة، وتخلع الآن الكمة مطلقة شعرها الطويل الأسود. لما التفتت أظهرت مطروزات ملونة فى صدرها من فوق قميصها. تبتسم، فم كبير وأسنان شديدة البياض. تتقدم :

– تزييو رونكونى، أليس كذلك ؟ أنا سيمونيتا ابنة أخت آنونسياتا. خالتى أصبحت مريضة.

تقدم يدها كالشاب. يصافحها الشيخ ولا يستطيع القول إلا: "مرحبًا!" وتواصل هى :

وصلت متأخرة، أليس كذلك ؟ حركة المرور الملعونة ! من شارع مارترى أسكورى إلى الميدان تتوقف الحافلة رقم عشرين فى كل حين ! أوف، ميلانو مدينة كريهة !

تتكلم وهى تتقدم إلى حمام الخدم من دون أن تحدث صوتًا، أو تكاد بالرغم من الحذاء. يتبعها الشيخ بعينيه حتى غابت القنورة غير المستقرة قبل أن يقبض عليها الباب الذى أغلقته الفتاة.

نساء روكاسيرا أيضًا كن يرتدين ملابس عريضة لما كان صغيرًا حمراء للمتزوجات، وسوداء للأرامل، وبنية للعزب، وبها زخرف من لون آخر. هن أيضًا كن يطرزان أشكالاً شعبية ملونة فى صديراتهن السود، لكن كن يطوقن أكتافهن أيضًا بطرحات مثلثة الشكل يعقدنها من الخلف. كان بعضهن يغطين رؤوسهن بالفانكالا، وهى قبعة "تيريولو" ومنطقتها. لا يلبسن الحذاء، بل النعل الخشبى أو المصنوع من القنب، ولا يخرجن أبدًا من مضجعهن وشعرهن مطلق. "ومع ذلك فهذه مثلهن : تضحك بالأسنان نفسها، وبهذه العيون السود... نعم، العيون نفسها : تلك فتيات روكاسيرا !"

تظهر الصبية من جديد. ثوب خالتها الواقى يطوق معالمها الأنثوية، لكنها تلبس جوارب صوفية خشنة.

– إن بابوج خالتك فى... يفسر الشيخ، ولكنها تقاطعه :

– لا أحتاجه. أنا دائمًا هكذا فى البيت.

فتيات روكاسيرا أيضًا من عاداتهن المشى حافيات؛ عندما يكون الجو ملائمًا وحتى خارج البيت. توفرن هكذا استهلاك الجوارب و...

يقطع الشيخ اشتياقه ويجرى نحو غرفته؛ حيث دخلت الفتاة ومعها أدوات التنظيف. "مادونا، ستكشف المبولة !".

فعلاً. كادا يصطدمان عند الباب. هى تحملها فى يدها لتفرغها، والشيخ يقع فى حرج. "لماذا ؟" – يعاتب نفسه فى الحين – "هذا عملها، عمل نساء."

– اترك، اترك، أحملها أنا – تقول الفتاة باسمة، محتفظة بالمبولة فى يدها – فى منزلنا كنت أفرغ مبولة أبى... هو أيضًا من الجنوب، من سيراكوزا.

– إذن تعجبه أنواع الجبن القوية... خطر على الشيخ خاطر، مهيئًا هكذا تفسيرًا لمؤونته المخزّنة، الخاصة والسرية، إن اكتشفتها الفتاة. لكن سيمونيتا قد أنذرتها من قبل خالتها بأن لا تظهر معرفتها بمخابئ فى فجوات السرير.

– نعم، كانت تعجبه كثيرًا، كما تعجبنى.. لقد مات فى حظيرة شغل. كان بناء وماتت أمى بعده بقليل. هى أخت آنونسياتا.

– كانت البنت وهى تتحدث قد شرعت فى تنظيم الغرفة بمهارة. أما الشيخ، فبدل الانسحاب كما فى الأيام الأخرى، واصل تلذذه بالمحادثة. "فتاة تكره ميلانو... مرحى، تستحق الإصغاء إليها!"

– أكره ميلانو طبعًا. يسحرنى الريف والحيوانات. كلها... كلها – تؤكد ضاحكة – حتى الذباب !... لهذا أدرس البيطرة.

يتذكر الشيخ بيطرى أيام شبابه : سمين، أحمر، برقبة خشنة وأربة[1]، تاركًا دائمًا رماد السيجار يسقط حتى لما كان يعالج الحيوانات.

– كان لزامًا إنزالها له إلى "سرسالى" – يحكى لسيمونيتا – كان لا يتكلف الصعود إلى روكاسيرا إلا ليأمر بقتل النعاج أو الشياه، لما تنتفخ بطونها نتيجة الوباء... كنا نخيفها عنه، ولو جاء مرفقًا بالكارابنيارى (الحرس الوطنى) لأن بعضها كان ينجو، ثم إن ثمن عنز، هى عنز ! من المؤكد أنك تصعدين الجبل، أحسن من ذلك آكل حساء الحكومة، صديق الماركيز... لأنك، ولو كنت من أى نوع من الطالبات شئت، فظاهر أنك لا تتعالين عن التنظيف، ولا على استعمال اليدين... ألا تشعرين بالحرارة مع هذه التدفئة، وتلك الجوارب الخشنة ؟

– ماذا تقول ؟ ليست جوارب طويلة بل قصيرة كى لا تخدشنى الحذاء. ترفع الطيلسان؛ كى لا تكشف عن الركبة عارية. "هكذا تخرج تلك الفتيات فى روكاسيرا أيام شبابى – يشرح لسيمونيتا – إلا أنهن كن يسمين هذه "ميدياس"؛ لأنهن لم يكُنَّ يجدن أطول منها. "يمتنع الشيخ عن الإضافة بأن أيهن لم تكن لتكشف عن ركبتها بهذه السهولة. فالشاب الذى يحصل على ذلك من واحدة يمكنه أن يتوقع كل شىء... وينتهى بالحصول عليه.

---

(١) ربطة عنق.

يساعدها الشيخ فى إنهاء ترتيب الفراش، وتقبل هى ذلك من دون تكلف، كما كان ذلك أيضًا فى غرف أخرى. وفى وقت ما، تنظر إليه سيمونيتا بدهشة كما أنها أدركت شيئًا :

- كنت أظن أن الرجال فى الجنوب لا يقومون بهذه الأعمال.

- ولا نقوم بها. لكن هذا ليس الجنوب.

يفهم الشيخ أن ما قاله غير كافٍ، ويشعر كأنه فوجئ وقد أتى منكرًا. لكن تخطر على باله ذكرى اعتذارية :

نحن أيضًا لا نعتنى بالأطفال، وها أنا أعتنى بطفلى... ثم إننا فى إثناء الحرب، داخل الفريق، كنا نقوم لأنفسنا بكل شىء : الغسيل والخياطة والطبخ... كل شىء.

تقطع الفتاة الكهرباء على المكنسة الكهربائية وفى الصمت المفاجئ تنظر إليه بعينين لامعتين :

- هل كنت مقاومًا يا أستاذ ؟ يا للروعة !

جاء الآن دور عينى الشيخ فى اللمعان : إنه من النادر جدًّا أن يوجد شبان يهتمون بالحرب ! لا يريدون سماع الكلام عنها، لكن أى مصير كان ينتظرهم الملعونون، لو لم يقاوم شيوخ اليوم، لكانوا الساعة عبيدًا للألمان !

- أين قاومت ؟ أين ؟ - تسأل سيمونيتا .

– أين كان يمكن أن يكون ؟ فى سيلا، فى جبالى ! هناك لـم يكن أحد بستطيع مطاردتنا، فى سيلا الكبيرة وفـى الـصغيرة. كنـا نصل أحياناً حتى سيلا اليونانية لنلتحم مع مقاومى تلك المنطقة. لكنهم لم يكونوا يحتاجوننا، يا لهم من مقـاومين. إنهـم منحـدرون مـن الألبانيين، أتعرفين ذلك ؟ جاءوا زمن الأتراك. لا يزالون محتفظين حتى بقساوستهم الأرثوذكسيين، لأنهم يقاسون هم أيضًا من الرهبـان. لكن قساوستهم يتزوجون وكانوا شجعاناً. ففى مرة...

يشتغلان ويتكلمان، يكدحان ويتذكران. بالنسبة إلى الشيخ فكأنه اجتمع برفيق، وراحا يستعيدان ذكرايات تلك الأيام... وفجـأة بكـى الطفل: يجريان نحو غرفة النوم الصغيرة. ينظر الشيخ الوقـت فـى ساعته. عجيب كيف انقضى الصباح بسرعة !

تجامل سيمونيتا الطفل الذى يحرك يديه ويضحك وهو جـالس فى المهد، تاركًا خيطًا من لعابه يسقط.

إنى أثير حبوره.. أثير إعجابه ! انظر كيف يضحك! تفتخـر الفتاة وتضيف : هل أستطيع رفعه أو أنت أيضًا تقول إن ذلك غيـر حسن ؟

وحيث إن الشيخ يضحك بدوره، محتجًا على أن ينـسبوا إليـه ضلالاً كهذا، ترفع الفتاة الطفل وتضمه فى حركة سـريعة وأمومية تلقائية جعلت الشيخ يتأثر. "تزيا" (العمة) بانغاناتا، طورطورلا، تلك الأمهات من روكيرسيرا...!

يشعر الطفل أيضًا بحرارة الحركة، ويقبع كالقط الصغير بالنهديْن والذراعيْن اللتين تضمانه. يطوق بيد صغيرة رقبة الفتاة، بينما يمد الأخرى نحو الشيخ، الذى يقترب، منه حتى يشعر بالذراع الصغيرة حول عنقه. يضغط الطفل ويضحك.

هذه الرائحة الأخرى بجانب رائحة بروناتينو، هذه الملاطفة التى تمس شفَاف جلده تفصح للشيخ عن أن رفيقه فى الشغل والذكريات الحربية هى امرأة. من امرأة أيضًا تأتى هذه الأنفاس وهذا الوجه القريب جدًّا من وجهه...

يزعجه هذا الاكتشاف، لكن بطريقة جديدة؛ لأن الفتاة بهذا الطفل بين ذراعيها صيرت نفسها أمًّا. أم بروناتينو.

يتنهد الشيخ أمام هذه الحيرة. سرعان ما تعب الطفل. يصارع بساقيْه ويمد يده الصغيرة نحو طبقه الفارغ، أسطوانة صفراء من البلاستيك فوق الصوان. تقول سيمونيتا :

– دقت ساعته، أليس كذلك ؟

– نعم لا بد أنه جائع.

– ابق معه. سأحضر له ما يتبلغ به.

– أتعرفين كيف تحضرينه ؟ – يندهش الشيخ لأن فتيات هذا الزمان يجهلن هذه الأشياء

– لقد شرحت لى ذلك خالتى، ثم إنى حضنت أطفالاً. كنت au pair (تسكن وتأكل فى بيت مقابل العمل) فى سويسرا العام الماضى. ماذا تظن نفسك ؟

قالت ذلك وهى بعد الممر، قالته بصوت باسم متحـد. يبقـى الشيخ فى المضجع الصغير. "كم يحتاج الطفل الـصغير ! إطعامـه، تغيير شماله فى كل خطوة، غسله، إنامته، مداواته... وأشياء أخـرى أكثر صعوبة : إلباسه هذه الأحذية الصغيرة التى يخلعهـا برونـاتينو بكل سهولة، مساعدته على طرد الهـواء الـذى يبتلعـه وزر هـذه الأزرار اللعينة... يجب أن يكون المرء امرأة؛ كى يتحمل كل هـذا أشهرًا وأشهرًا... حسنًا، أعنى امرأة يجب !"

يدهش الشيخ كيف تمكنت طالبة أن تستحوذ هكذا على الطفل، الذى لم يتناول قط طعامه بهذه الوداعة. يأخذانه بعد ذلك إلى المطبخ؛ حيث يثير عبثه ولمسه كل شيء يخط أندريا، فى الوقت يطلق فيـه عنان ضحك سيمونيتا التى تلعب مع بروناتينو بينمـا تعـد بعـض الأطباق. أما الشيخ، فهو يقحم نفسه فى هذا الحفـل، ويبـوح بـسر خزانة مؤونته الخاصة، فيأتى بمأكولات جنوبية كى يدخل الـسرور على عالم طعام أندريا البارد.

– يا له من جبن لذيـذ – تعبـر سـيمونيتا وهـى تلتهمـه. وبروناتينو يرغب فى تذوقه طبعًا.

– لو ذقت الجبن الذى نعده فى منزلنا... الراسكو المدخن أو البوتيرى وبداخله الزبدة... لكن لا بد من أكلها هناك؛ حيث يطيب طعمهما، وخاصة فى المضحاة خلف البيت مع مشاهدة الجبل عن بعد. أو فى يوم تقاوم فيه عصرية فى ظل شجر القسطل.. هناك تحت الأشجار وفى أيام الصحو يشرف المرء على كل البلد تقريبًا حتى يبلغ بحرنا، هناك بعيدًا !

تفصح سيمونيتا وفمها ممتلئ، يعجبنى البحر كثيرًا.

– حماقات ! وأين يوضع الجبل الذى كل شيء ؟ البحر ليس للرجال. لو كان لهم لولدنا بزعانف[1]، أليس كذلك؟ ولو – يضيف مفكرًا – أنى عشت أيامًا قرب البحر، بحر ريمينى شديد الزرقة فى منتصف النهار وبنفسجى بالمساء...

تنهض الفتاة لتأخذ النبيذ وتتوقف وهى تدور بكرسى الشيخ. تلاطف له رأسه من خلف من دون عواطف وتصرخ فى لهجة طبيعية مفحمة :

– يعجبنى شعرك يا تزييو : لون رمادى متساو وكث وخشن... حبذا لو استطاع رومانو أن يصبح مثلكَ لما يشيخ !

---

(١) الزعانف هى أجنحة السمك.

– وأنا يعجبنى أن تناديني تزيبيو – يجيب الشيخ مواريًا حيرته التى ازدادت لما رآها تشرب بحيوية، حتى أن خيطًا أحمر زلق من الذقن الأنثوى مذكرًا بالدم. دم، كما لو أنه عض على شفتها، دم من هذا الجسم المستدير الفتى... لكن ها هى تمسحه بظهر يدها، فيستعيد الوجه براءته الضائعة.

تشرح بعد ذلك أن رومانو هو صديقها.

– يدرس الطب يا تزيبيو، فهكذا نعالج الشعب بيننا الاثنين، بشرًا وحيوانات ! هو شيوعى مثلى. – وتختم كلامها ضاحكة أكثر فتقول : خالتى آنونسياتا لا تتحمل رؤيته.

– إن الشيوعية خيالات يا فتاة. أرضى هى أرضى، فكيف ستكون لآخر ؟.. لكن نعم. شيوعيوك قاوموا فى أثناء الحرب بقوة وبطش وشجاعة، وكانوا نعم الرفقاء. ولكن تغيروا فى النهاية ككل من يرتمون فى السياسة والشعارات.

– كل، لا ! تتحمس هى – ويجب أن تكون السياسة من أجل الحرية... أو أنت تظن أنه فى الإمكان إصلاح أى شىء فى كل شعب من دون الاهتمام إلا بأراضيكم ؟

شرعت وهى فى تحمسها، تخاطبه ندًا لند، كما تخاطب رفيقًا، وبعد الانتهاء من تنظيم المنزل، يتحولان لمشاهدة التلفزيون...

في قاعة الجلوس، يحتد النقاش، الذى يُثار من حين إلى آخر؛ لإنزال بروناتينو من المقعد الذى تسلق إليه، لأخذ المنفضة الرقيقة من طراز مورانو من يده. يفكر الشيخ وهو يستمع إليها "إنها تتكلم كما فى الاجتماعات العامة. هؤلاء الشيوعيون لا ينقصهم لسان!"

تعرض سيمونيتا آراء وتعترف بأنها مدينة بها لخطيبها. فقبل أن تتعرف إليه لم تكن، تفكر إلا فى اجتياز الامتحانات والحصول على المال بعد ذلك، لكن رومانو جعلها واعية... آه يا رومانو !

– واضح أنه يريد مضاجعتى ! تجيب بصراحة عن تلميح من الشيخ، وأنا أيضًا ! ما الذى تقوله عن خمس عشرة سنة يا تزييو ؟ أليست لك عينان ؟ لقد قفلت التاسعة عشرة !

"فتياتى فى روكاسيرا كن فى الثالثة عشرة حذرات ومتحفظات مثل النساء. خلافًا لذلك، سيمونيتا هذه.. حرة كالفتى !.. الأمر هو أنها تحسن ويبدو – منها ذلك حتى جميلاً نظيفًا." يفكر الشيخ مندهشًا لآرائه تلك.

– لا لم نضطجع بعد، لا أدرى لماذا... – وفى جدية مفاجئة تواصل : لم تحن الساعة بعد... لا نريد البدء بأى وجه كان. رومانو يقول : يجب عدم إفساد المبدأ. نحن ننوى القيام برحلة حسنة لما يتوفر لدينا المال الكافى... وعندما سنثأر – تواصل مرحة من جديد – ماذا تقول ؟ – حركة كحركة من أحس بإهانة – إنه جميل طبعًا، أجمل منى!

"أجمل منها ؟ – يشك الشيخ فى ذلك – من المؤكد أنه لا يمكن وصفها بالجمال، الجمال... ولا حاجة لها بذلك ! فهى تملأ المنزل.. وحتى الإذاعة المرئية تصبح مهمة بتعليقاتها."

الساعات تطير. لما وصلت أندريا، دفعت مستحقات الفتاة واحتمت وراء أوراقها، وسيمونيتا وهى بالباب مرة أخرى تبدو وكأنها دخلت لتوها. لكن الأمر بالعكس، لقد أنجزت وهى تتهيأ للذهاب. يريد الطفل منعها متشبثًا بردائها وصارخًا، لكن تأتى أندريا وتأخذه إلى الداخل. يساعد الشيخ سيمونيتا على ارتداء عباءتها، وتضع هى الكمة وتسوى شعرها أنثويًا. تعلق الحقيبة على كتفها وتطوق عنقها بالشال الأصفر وتلتفت تاركة ابتسامتها تشرق وتقول ببساطة : ما أطيب الوقت الذى قضيته.

تمد يدها كما فعلت عند القدوم، كأنها رفيق لكن. تغير رأيها قبل أن يصافحها الشيخ فتضع يديها على كتفيه، مقبلة إياه بلطف فى خديه.

– أريڤادتشى تزيو برونو (إلى اللقاء يا عم برونو) arrivederci.

– إلى اللقاء يا شيوشيلا – يجيب الشيخ فى وقار وهو مبارك بلمس هذه الشفاه.

تفتح سيمونيتا الباب قليلاً، تنزلق عبر الفجوة وتغلقه رويدًا، تاركة إياه كرهينة، تموجات نظرة أخيرة وهى تبتسم فى تواطؤ ساذج.

يسمع الشيخ باب المصعد. يصل رويدًا رويدًا إلى غرفة النوم الصغيرة؛ حيث يجلس قرب الطفل الذى نام أخيرًا. فى شبه الظلمة المسائية يبرز لهب الفراشة الكهربائية التى وصلتها أندريبا بالقابس[1]. يخيم الهدوء برائحة بروناتينو اللبنية والجسدية. ويؤطر الصمت تنفسه الهادئ.

تدق أجراس الدوومو على أجنحة الريح الجنوبية. الساعة السادسة ! يدرك الشيخ أن الدويبة قضت كل يومها هادئة... واضح، لقد سحرتها هى أيضًا الفتاة التى هى مثل تلك الفتيات بمناسبة "سانتا كيارا" كان الناس يصعدون حتى غابة القسطل البلدية من درب المنسك، على طول الجدول، حاملين على أكتافهم أرغفة خبز القديسة، خبز يبتاعونه عند الظهر بالمزاد. فى الغابة وبعد آخر الكروم، ينبثق الينبوع فى حفرة صافية جدًّا؛ حيث لا يترك الماء الفائض الفرصة لملاحظته إلا بتموجات التدفق. حان فصل أكل العنب وعلى الرغم من أن الأمسيات كانت لا تزال بطيئة بألوانها الذهبية الصيفية، فالغروب يريق سويداء خريفية. إن الناس فى هذه المناسبات يكونون قد استراحوا من الحصاد ويستبعدون لعمل سنوى آخر كبير هو جمع العنب.

"لماذا أتذكر ذلك يا بروناتينو كما لو كنت هناك عندما كنت صغيرًا ؟... قد يكون لأن عملاً آخر ينتظرنى كأولئك الناس، يا

(١) القابس هو الثقب الذى بالجدار والموصل للكهرباء.

طفلى الصغير ! فبعد جنى عنبى. وهذه الفتاة، أتعــرف مــا معنــى شيوتشيلا ؟ لا توجد فى ميلانو كلمة أجمل وأحسن.. لكن ماذا يهــم من المعرفة ؟ لماذا تصلح ؟... أنا بدورى لا أعرف لماذا لم تتحرك حواسى الجنسية معها ولو للحظة، ولا حتى لمَّــا ســال النبيــذ مــن فمها... إنى كما ترى، لم يقلقنى أن أتخيلها بعد ذلك فى الفراش مــع رومانو !.. كان هذا يغضبنى فى السابق، أما اليوم فلا وليس لأنــى الآن لا دواء لى، ولو أن الروسكا قد بدأت تأكلنى فى أســفلى. أمــا اليوم فقد حدث أمر ما."

يتروى قليلاً من غير كلام، ثم يفكر قائلاً للطفل :

"تذكــر دائمًا ما أقوله لك يــا بنــى ولا تنــسه : إن النــساء سيفاجئنك دائمًا. تظــن أنك تعرف كل أوراق اللعبة من الملكة إلــى الفرس، فتخرج لك ورقة جديدة.. ما الذى حــــدث اليــوم ؟ فهــى تضــمك كأم حقيقية، بينما هى لا تعرف بعد معنى الرجل !.. وأنــا أمام تلك الأوراك وأمام شعورى بيدها فى شعرى، لا أتحرك.. أتفهم أنت هذا؟"

يزيل مع ذلك التجاعيد من جبينه ويبتسم.

"أيًّا كان الأمر فيا له من رفيق حصلنا عليــه النــوم ! ألــيس كذلك؟ أحسنهم لك، ولى... لو كنت بنتًا كان عليك أن تكــون مثــل سيمونيتا كى تُسعد جدك... لكن ما هذه الحماقة ؟ ولد، ولد، أريــدك أن تصبح رجلاً!... أخرف أنا ؟ هل بدأت أشيخ ؟... هذه الأفكــار،

ألا تكون علامة؟ أأنت تبعثين بها إلـيّ يـا سـالفينيا ؟ أأنـت آتيـة لتضعيني مرة أخرى على طريقى، كما دللتنى لعبور الميـدان أمـام الجميع، لما وضعتنى فى مضجع روزا ؟... وإن لا، فلم تحدث لـى هذه الأشياء ؟... لماذا تظهر لى الآن بنات روكاسيرا أحيـاء حقًـا ؟ لماذا حضرت فتاة أخرى مثلهن، هنا ميلانو؟" فكرة تبدو له ممكنة :

"أمن أجلك يا بنى ؟ أمن أجل مساعدتى على جعلك رجـلاً ؟ ألذراعيك الصغيرتين ذلك الجسم، ولك ذينك النهدان، ألفمك الصغير؟"

يتأمل الشفتين الصغيرتين فى الوجه النائم، ويضحك من نفسه فى صمت.

"لكن هى ليست أمك يا كنزى، ليست أمك ! فلا نهود لك غير ما عندى. نحن الآن وحدنا، وعلى أن أقوم بكل شىء، بالكل... آه، يا حصادى، أرى الآن كل شىء واضحًا !"

وفى الحين ومن دون أى قرار واعٍ، يـنهض ويفـتح برفـق خزانة الطفل ويخرج منها منامة الصغير المخبـأة تحـت عباءتـه. أندريا لن تلاحظ هذا الحمل إذا صادفها فى الممـر، فهـذا الجـسم صغير جدًّا !

يصل إلى غرفته ويخفى منامة الطفل فى فضاء آخـر عنـد رأس السرير. وفى الليل سيتمرن على زر وفك الأزرار الـصغيرة التى هزمت يديه قبل أيام.

فعلى الرغم من أنهما يدا رجل، ويا ويل من يشك فى ذلك، فهو سيصيرهما يدى أنثى أيضًا من أجل بروناتينو.

(١٨)

هبات ريح جبال الألب تهز بالبرد الشجرات الحضرية المسكينة بجذوعها المطوقة بالثلج فى أسفلها؛ حيث يتجمع الماء. يتخيل الشيخ الدم فى شرايينه بالضيق نفسه الذى يعانيه النسغ كى يصعد إلى أعلى الجذع. لكن تؤلمه أكثر من ذلك الضربات التى تهز الحديقة كضربات رفش حفار القبور. ضربات فأس ينتهى عدم التمرس عليها بإثارة غضبه كالكلب الهائج.. يالها من طريقة وخيمة لتقليم الأشجار! أدار ظهره كى لا يرى ذلك. يتوقف الفأس ويحاول الشيخ التفكير فى أمر آخر، لكن الذى يغزو عقله لا يهدئ من غضبه، بل بالعكس. ريناتو لا يمكن إصلاحه. لقد روضته. فبعد صيحة تلك الليلة عاد تحت نير أندرييا. إنه يبدو نادمًا أيضًا: فبالأمس هاتفت لتفيد بأنها ستتأخر عن مواعيد العشاء؛ من أجل اجتماع أكاديمى مطول وريناتو يوافق فى وداعة:

– نعم سأغسله وأعطيه عشاءه ... نعم، سأدخله فراشه، لا تشغلى بالك يا عزيزتى...

كانت تواصل مسهبة كالعادة، وسمع الشيخ ابنه يبرر نفسه هكذا:

– اعذرى لى الفظاظة، يا حياتى، لكن سأتركك فالطفل في الحمام.

"يعتذر لمثل هذا ؟ – يواصل الشيخ يومه، فى كل مرة يتذكره كما هو الشأن الآن – الاعتذار لهذه المرأة، وهى الفظاظة مجسمة ؟"

تعود ضربات الفأس فترجعه إلى الحاضر. يسمع صريرًا وبعد صمت قصير جدًّا، تسمع شكوى طويلة من خشب مكسر، وصوت سقوط أغصان مقطوعة، ودوى اصطدامٍ بالأرض. يلتفت الشيخ من دون أن يستطيع كبح نفسه، ويطلق نظرته الغضوبة نحو قمة الشجرة.

فى أعلى السلم المسند إلى الجذع، رجل بالسترة الصفراء التى يرتديها بستانيو البلدية. بفأسه المرفوعة يهدد غصنًا آخر. ينفجر الشيخ، وجاءت صرخته كضربة بحجر:

آى، يا سيد ! احترم ذلك الفرع يا حيوان !

ويقول لنفسه : "سينزل الآن ونشتبك."

يبقى البستانى برهة كالمشلول ثم يشرع فعلاً فى النزول "الآن" يكرر الشيخ لنفسه، ضامًّا قبضته ومفكرًا فى الطريقة التى يعوض بها نقصه الدفاعى ضد الفأس. لكن يغير من موقفه عندما قرب منه البستانى، شاب بابتسامة حيرى وحركة ودودة.

– لا أحسن العمل، أليس كذلك ؟

– أكثر من سيئ، نعم ! ذلك الفرع هو الذى يجب أن يبقــى. ألم ترَ أنك قطعت آخر تحته وفى الخط نفسه ؟.. أين تعلمت الحرفة؟

– لم أتعلمها

يا للعنة ! أو يسمحون لك بأن تواصل قتل الأشجار؟

– أحتاج إلى شىء يقوتنى.

– ابحث لك عن عمل آخر !

– بستانى مؤقت بالبلدية أو لا شىء. هكذا قالوا لى فى مكتب البطالة... فما الذى أستطيع أن أفعله ؟.. أنا آسف – يـضيف بعـد توقف – تعجبنى الأشجار. لهذا أقطع قليلاً، وأقطع أصغر الأغـصان فقط.

– فعلاً، الأغصان الجديدة... وتترك القديمــة جــدًّا! الأمـر بالعكس يا رجل.

– أنا آسف – يكرر الشاب.

ينظر الشيخ إلى يديه : يدا كاتب، خامشِ أوراقٍ. ينظـر بعـد ذلك إلى وجهه : وجه لطيف وخفيف الظل.

– ماذا كنت تفعل قبل هذا ؟

– أدرس.

– الدراسة لا تشكو البطالة – يعود الشيخ إلى غضبه، ظانًا أنه وقع على غشاش.

– أبي لا يعطيني مالاً إلا لأدرس الحقوق، وأنا لا أريد أن أصبح محاميًا. أدرس شيئًا آخر.

يبتسم الشيخ "مرحى، شاب طيب ! مخطئ؛ لأن المحاماة تدر مالاً كثيرًا، لكنه شاب طيب. بستاني خير من متلاعب قوانين. مرحى!.. المحامون آفة الفقراء..." يمد يده نحو الفأس.

– أعطني هذه.

رازحًا تحت وطأة اللهجة، يعطيه الشاب الأداة، فيتجه الشيخ نحو الشجرة يخاف الشاب أن يسقط هذا الشيخ، لكن يلاحظه يصعد الدرجات من دون تردد. وفي الحال، يا له من ثبات في الضربات ! يتأمل برهة الأيكة، يفكر وينتهي مقررًا أي فرع يقطع. "تشس"، يسقطه بنظافة. يترك في النهاية السلم ويستقر على دعامة منخفضة ومنها ما حولها. يعود إلى السلم. ينزل. يغير مكانه ويصعد ثانية. وأخيرًا ينزل نهائيًا. يحتفي به الشاب في حيرة ويهمس :

– يا للخجل !

– هيًا، هيًا يا فتى ! لم يولد متعلمًا. لكن من حسن الحظ أنهم لم يعطوك منشارًا كهربائيًا. لو فعلوا لأتلفت كل القطاع.

- يعترف الشاب بابتسامة تفتر على شفتيه، أعطونى واحدًا فى اليوم الأول فأفسدته، ومذذاك الحين أعمل بالفأس... أنت تعرف... يا مشذب.

- لست من الحرفة ولكنى أفهم فيها. أنا رجل ريف، ألا ترى ذلك؟

- من أين؟

- من روكاسيرا، من جهة كاتانزارو - يصرح الشيخ متحديًا.

- من كالابريا ! - يفرح الفتى - هناك علىَّ أن أذهب الصيف القادم.

أحقًّا ؟ - يتحمس الشيخ أمام هذا الاهتمام : لأية غاية ؟

كيف يفهم هذا القروى أهداف دراسة عن المكان لفهرسة ما بقى حيًّا من أساطير الفلكلور الشعبى ؟

- أجمع عادات، قصصًا، أشعارًا... أسجله كله ثم أدرسه، أتفهم ؟

لا.

"كم يخترعون من أشياء غريبة هؤلاء الكتبة؛ كى لا يعملوا !... القصص تحكى للضحك، والأغانى للانتعاش. فما الذى يدرس فى هذا؟

حسناً، بعد ذلك ينشر ما جمعت ودرست... إنه عمل جميل – يضيف الفتى الذى لا يعرف كيف يُبسِّط الشرح أكثر. ويضيف كى يقطع الصمت :

– أنا فلورنسى.

يعود الشيخ إلى الابتسام. "أحسن من لا شىء. فهو أولاً ليس ميلانياً."

– أتريد سيجارة ؟ – يضيف الشاب خوفاً من أن يكون قد جرحه باقتراحه دراسة التقاليد. لقد نبهوهم بالقسم إلى عظيم حساسية الخاضعين للدراسة عندما تجرى هذه على العين.

– شكراً. انتهى الأمر، ولو ضجرت الروسكا.

– الروسكا ؟

صديقة لى، يعجبها تبغى، لكن فلتضجر.

"جاء الآن دور الفتى فى عدم فهمى" – يفكر الشيخ مبتهجاً ويواصل :

– انظر، أنا لست متعجلاً. أصعد إلى هذه الشجرة الأخرى وسأرشدك عن القطاع. لكن أجد الإصابة ! أمسك الفأس من هنا، هكذا، أرأيت كيف تهتز؟... وبيد ثابتة. هيا ليس الأمر صعباً.

يشتغلان إلى ما بعد منتصف النهار تحت ملاحظات الأمهـات والأطفال. ينتعش الشيخ بأنه مفيد وأنه أنقذ أشجارًا مـسكينة تـشكو البرد فى ميلانو، ثم إنها تقتل بغباوة الإداريين و الكتبة. الشاب طيـع وليس بالأخرق.

"هكذا سيكبر طفلى برونانتينو، إلا أنه سيعرف أكثر مـن هـذا بكثير. أنا سوف أعلمه... وهذا يمكن مساعدته، ولو أنه لـيس مـن الحق العمل فى ما لا يعرف. لكن الذنب ذنبه، وفوق هذا فهو لـيس من ميلانو."

لما انتهت المهمة، شكر الفتى الشيخ واقترح :

– أتقبل منى قهوة يا سيدى ؟

يتردد الشيخ.

– فنجان قهوة ولقب دكتور لا يرفضان من أحد، كما تقول فى الجامعة. يلح الشاب.

ينفجر الشيخ ضاحكًا :

– من عاطل بلا مال ؟

لم تكن الضحكة مهينة.

– معى دراهم... لقد أحرقت أمس مراكبى، كما يقال. بعـت قانون الأحوال الشخصية.

أحسن نشرة بتعليقات، نشرة "رووااتا بروشياني". جديدة جدًا.

يضحك الاثنان. يسند الشاب السلم إلى جذع ويربطه بسلسلة وقفل، ويعلق الفأس في المحمل الخلفي من حزامه البلدى، ويشير إلى مقهى مقابل. لكن تتوقف إذذاك بجانبهما شاحنة صغيرة تابعة للبلدية ويطل من شباكها عريف.

– يا أنت... ! تعال، سنأخذك إلى وسط المدينة.

ينظر الفتى إلى الشيخ نظرة اعتذار.

أنا آسف.

– قد يتم ذلك يومًا آخر. ستبقى القهوة دينًا، وسنشربها على نخب القانون.

– كلمة شرف..! ابحث عنى، سأبقى أيامًا فى هذا الحى، أليس كذلك يا عريف ؟

يومئ العريف بالموافقة. كان يتأمل الأشجار فأبدى دهشته :

– اسمع يا أنت، حسن جدًا. ها أنت قد تعلمت الحرفة !

يتبادل الشيخ والشاب ابتسامة تواطؤ ويتصافحان.

– فرليني فاليرى – يقدم الشاب نفسه رسميًا.

– رونكوني سالفاتورى – يصرح الشيخ متوددًا.

تقلع الشاحنة الصغيرة واليد تحيي من الزجاج. كانت المصافحة للتوديع سليمة وثابتة. مصافحة رجل.

"نعم ولكن بروناتينو سيصبح أكثر رجولة."

(١٩)

لا، لا يريد مشاهدة ما يحدث.

يغمض الشيخ عينيه، فيظهر له آنذاك لا مبرينو أول صديق له فى حياته، وأول عاطفة له.

فأمه... نعم، هى أمه، لكنه تعود عليها ثم إنها لم تكن تصعد إلا مرة كل أسبوع إلى الجبل... بينما لامبرينو، كان له فى كل حين أعجوبة العالم، ذلك الخروف الأبيض واثبًا مرحًا بين اللاذن والشجيرات الفواحة. تلك العيون العذبة المولعة. تلك الليونة الدافئة بين ذراعى الراعى الصغير لما ينامان معًا، والصوف الجديدة تلاطف الصدر الطفولى العارى، فيختلط النبضان.

لامبرينو الذى لا ينسى، إذًا هو أول درس حب فى تاريخه العاطفى الطويل، يعيش الآن من جديد فى تجويف جفنيه المغمضين. لكنه يتذكر بالتحديد نهاية الخروف فيفتح الشيخ عينيه كى لا يراها : العنق الأبيض مطوى بذراع الجزار، بينما تشهر يمينه السكين... كان الرعاة يضحكون من ألم الغنام ويأسه.، كما ضحك، بكل تأكيد، الجلادون المتوحشون الذين صلبوا المسيح.

عند فتح عينيه لم يكن أحد يضحك، وسط الدائرة المكونة من متظاهرين بالألم، ولم يكن يشملهم نور الجبل الساطع، أما غير هذا فكل شيء كما كان مع لامبرينو : جسم صغير بلا حراك، رأس صغير مكسر إلى الأسفل، ورقبة رقيقة مسلمة إلى الجلاد. غير أن الرأس آنذاك كان رأس لامبرينو بعينيه المعبرتين عن شديد ألمه وبثغائه الموجوع. أما الآن فهو برونانتينو الساكت، المحجوبة نظرته بأجفان تكاد تكون شفافة كأنها من مرمر منثال.

طلب من الشيخ قبل قليل أن يأخذ الطفل، لكنه رفض في عنف تواطؤًا في هذه الشدة، وانسحب، حتى بلغ الباب فاتكأ على قائمته؛ حتى لا يخرج أحد من دون أن يعطي تفسيرًا لما يحدث. ابتداء من هذا الحين؛ أخذت يده تضغط على الموسى المطبقة في جيب سرواله." لو هذا الشخص أصابه بكارثة أغمدتها فيه هنا في هذا المكان. "هكذا يصدر حكمه متأملاً ذلك الجلاد، الذي يحبس بسبابته اليسرى الشريان في ذلك النحر الضعيف.

هذا الجلاد لا يمسك بسكين جزار، بل بحقنة صغيرة فارغة يستعد لوخز إبرتها. "وإذا أساء الوخز، يستنزف آنذاك ويختنق... اقتله يا روسكا، اقتله ! "الإبرة تنفذ وتغوص..."

خلافًا لهذا، ليس في استطاعة هذا الجبان وخز بطن خصم، يكفي النظر إليه."

تمتلئ الأسطوانة الشفافة شيئًا فشيئًا بدم بروناتينو الثمين. "إنه كدم القديس جينارو".

يفكر الشيخ؛ لأن الدم تحت النور الأبيض لا يبدو أحمر، بل يبدو، وفي غرابة، داكنًا وحتى مشؤومًا. "هل هو مسموم ؟" يخطر هذا فجأة متذكرًا أن رافاييلي ذلك الشاب الذى كان فى حظيرته، راح ينزف من فمه، لما ركلته بغلة فى بطنه مات يتقيأ دمًا. واضح أنهم أصابوه بالعين - تعرف ذلك كل القرية - لمغازلته باسكوالينا. "أيوجد من يصيب ذلك الملاك بالعين ؟"

انتهى الجلاد من عمله - يفرغ الدم فى زجاجة صغيرة فيها مادة ما، ثم يسدها ويحفظها فى حقيبته. يبدو أن الطفل يشعر بشيء. صدرت منه أنة خفيفة فقط لما وخزوه. يودع الجلاد أندريا، بما أن الشيخ لا يتحرك من عند الباب، يشرح منتظرًا المرور:

- للأطفال الصغار كهذا أضمن شيء هو الودج، أتفهم يا سيدى؟

لكن أندريا هى التى تحرك الشيخ.

- أتستطيع أخذ الطفل قليلاً يا أبى ؟

بينما ترافق هى الممرض يُجلّس الشيخ بروناتينو بين ذراعيْه. يقبّل الجبين الصغير الملتهب، وفى شيء من الغم يُصيّر نفسه عشًا

للطفل. يمسك بإصبعه القطن الذى يرقئ الدم فى الرقبة الصغيرة، فيستلم هذا الإصبع النبض السريع ضربة وراء ضربة. ما أشد الحمى ! يتأمل الطفل. مُذ ليلتيْن، راح يسعل فى تتابع. سعال عميق، شديد، سعال شيخ، ولكن بصوت مسموع رفض الأكل فى الصباح، وعند الظهر أغمض عينيْه الصغيرتيْن وغرق فى سبات الحمى. مُذ ذلك الحين لا يفتحهما إلا قليلاً فينظر حوله كأنه يسأل لماذا يعذبونه، يئن، يسعل، يتنفس بصوت عالٍ. أما فى الليل فقد لزم غسله بالماء البارد، أمام ارتفاع درجة الحرارة، وكان لمس بطنه الصغيرة مخيفًا لشدة حرارته.

لم يسترح الشيخ. فكان كل ما يفعله هو الانحناء من حين إلى حين على المهد، والتيه فى صمت من غرفة إلى أخرى، والمساعدة كما يطلبون منه، ويسهر على الطفل متأملاً مغمومًا. أسوأ شيء كان هو هذا "البيدياترا" وهو، على ما يبدو، اسم طبيب الأطفال باللهجة الميلانية. "كيف يمكن الثقة فى شخص كهذا ؟" فكر الشيخ لما رآه يظهر من الباب صباح يوم أمس : هذا الطبيب كان لابسًا كما فى الإعلانات، وكان شعره ممشّطًا على نحو ما نراه فى صور دكان حلاقة اللصوص فى شارع روسينى. لقد ترك أريج الطيب بالممر لما تقدم بمحفظته اليدوية المصنوعة من جلد ناعم لم يرَ مثله أبدًا، وبخنصره خاتم مرصع بحجر أزرق... ثلاثون سنة؟..أربعون ؟ ونظرًا إلى قيامه بتحميل نفسه بتلك الصفة، فلا يمكن تقدير عمره.

نظارات من ذهب طبعًا. "وحديثه ! مادونا ! حديثه ! من المعـــروف أن الإيطالية جميلة جدًّا فلا تناسب الرجال، لكن بنطقها كما يفعل هو، بكل المقاطع مشددة وبهذا الترنم تصبح كريهة. غـــسل يديْـــه عنـــد الوصول وعند الذهاب : وكيف كانت تقدم إليه أندريبا المنشفة علـــى نحوها يقدم الأطفال المساعدون إناء النبيذ للقسيس، كما لو كان ذلـــك الشخص قديسًا.

"بالطبع، فأندريبا يعجبها هذا ! – يشرح الشيخ لنفسه – فهـــو نوعها من الرجال... لا شك أنها كانت تريد الزواج بمثله، لكنها لـــم يصطده. أما ابنى ريناتو فقد شاء له سوء الحظ أن يـــصطدم بهـــا... كانت تنظر إلى الطبيب مفتونة : يا دكتور من هنا، يا دكتـــور مـــن هناك... وهو مغتر كالديك، لم يفحص الطفل كما يجب : نظـــر فـــى أذنيه فقط وفى حنجرته بذلك الفانوس، وسأل عن درجـــة الحـــرارة (التى كانت أندريبا قد أخذتها واضعة المقياس بطريقة سيئة) وأخرج مصدعًا، ذلك الذى به المطاطات التى تبدو كأنها علق تمـــتص مـــن الصدر الصغير... الخلاصة، ما الفائدة فى فعله ما فعل ؟ فهـــو لـــم يتعب نفسه، ولا حتى بأن ينصت فى ظهر الطفل. هل لاحظت ذلـــك يا روسكا ؟ كما لو لم يكن المسكين فى حالة خطرة "أهذا دتـــورى ؟ هو عديم مسؤولية قادر على أن يفعل أى شىء !.. هل يساعدنا الحظ يا روسكا ؟ هل هى مشغوفة بهذا الأحمق؟... من المؤسف أن فلانًـــا هذا لا يجرؤ على وضع القرون لأحد ! يا لها من فرصـــة للتحـــرر منها لو تورطا، وتثور رجولة ريناتو ولو لمرة."

يتنهد الشيخ مرتابًا... كاد وهو أمام الطفل المريض، أن ينسى الآخرين." إنه مريض جدًّا، ولو أن هـذا الـشخص لا يعيـر ذلـك اهتمامًا! بما أنه ليس حفيده...! لأنه لو كان مجرد زكام، ما الـداعى لأخذ دمه هكذا، وهو يكاد ينحره ؟ ما الداعى ؟"

يسمع همسًا فى الممر، فيتساءل إن كان الطبيب قد عاد... لا، إنه ريناتو، متحدثًا فى الممر مع زوجته التى تـشرح لـه مـا قالـه الطبيب :

- لم يعر الطبيب أهمية للأمر. يقول إنه سيبل بعد يـومين أو ثلاثة، لكنه أفسد علىَّ السفر.

- يمكنك الذهاب إلى روما بعد ذلك يا امرأة.

- الآن وقد حصلت على موعد مع الوزير ! علىَّ أن أطلـب موعدًا آخر و... ثم إن العم دانيال شرع فى تحريك معارفه.

يسكتان لما يصلان إلى باب المخدع الصغير. يعطـى الطفـل لريناتو و هو يفكر : "هذه لا تفكر إلا فى مهنتها. فحتـى الطفـل لا يعرقلها !... مسكين طفلى برونانتينو !"

دخل الليل. وبينما هو يرعى الطفل فى أثناء عشاء الـزوجين، كان يتحاور مفكرًا مع الجبين الممتقع كثيرًا فوق الخدين المحمرتين.

"نعم يا بنى : هما يأكلان فى هدوء، بينما جسمك الصغير ميدان قتال. دمك ضد المرض، فالموت أو الحياة. كيـف يـستطيعان ؟ لكـن

دعهما. أنت لست وحدك. أبوك لا سلطة له فى المنزل، وأمك تسلمك إلى ذلك الدتورى القذر. لكن سيسير بك جدك إلى الأمام. أتفهم هـذا يا ملاكى الصغير ؟... أولاً وقد يرفضان، ستحصل غدًا، وهنا علـى ماء يغلى بورق شجرة الكافور وأزهار الكريميلاريا..أتعـرف ؟ إن الشجر طيب. الأشجار تحب الأطفال، وهى التى ستنقذك أحسن مـن تلك الوخزات. ستشم الجبل فى الربيع وستستطيع..آه، أتبتـسم ؟ أرى أنك تصدقنى. مرحى يا طفلى الصغير ! إلى الأمام ضـد الأعـداء، أنت الذى هزمت الدبابة !"

فى الصباح الموالى تسامحت أندريا بعـد استـشارة الكتـاب الملعون الخاص بتربية الأطفال؛ حيث يقول فى أية سـاعة بالتحديـد يجب أن يستيقظوا، ومتى عليهم أن يجوعوا..." كما لو أن هـذا لـم تعرفه نومًا الأمهات الأميات. "ثم إن الشيخ يـسمعها وهـى تـسأل الطبيب هاتفيًا من الجهاز الثانى بالمكتب فتطيل هامسة... لكن تظهر فى النهاية بالممر وخداها موردان وبرعشة ابتسامة. "إن ما أقوله هو : هل هى مجنونة بذلك التافه ؟"

لكنها تسامحت. فينزل الشيخ جريًا إلى الصيدلية ليأتى بـأوراق الكافور – أما الكريميلاريا فلا يعرفون ما هى هـؤلاء الملعونـون – وهو سيرمى بالأوراق؛ لأنها تباع فى ميلانو داخل لفافـات مـصنع، وهذا ليس المبتغى. وخلافًا لذلك، ففى دكان السيدة مادالينا – ويا له من وقت لذيذ وهو ينظر إليها متذكرًا السيارة الخضراء بلـون معـدنى–

يوجد الكافور الحقيقى. وبالنسبة إلى الزهور، فهم يعرفونها طبعًا، ويشيرون عليه ببائع أعشاب قريب من هناك. "يا لها من سيدة، مادالينا هذه ! تحل كل المشكلات ! وهى أكثر بهاء من ذى قبل... لكن لم أعد أستغرب. فليس زوجها الرخو هو الذى يسقى هذه الزهرة."

بينما هو فى المصعد، يلف مشترياته فى ورق الصيدلية؛ كى تفلت النباتات المنفذة من رقابة أندرييا فتهزم الدتورى. "يجب خداع العدو فى الحرب يا بنى بروناتينو.

(٢٠)

إن الشيخ صاحب السترة من الفرو وبقبعة عتيقة تابع قبل أيام تشذيب الحديقة ثم اختفى، يعود اليوم إلى الظهور وهو يدفع أمامه فى كبرياء كرسى أطفال. الأمهات مع أطفالهن يستقبلنه كجد وديع يهتم بالحضانة، ولو أن نظرة الرجل متوقفة عند أجسادهن تكفى لينظرن إليه بطريقة أخرى، ويتكلفن من دون شعور فى هيأتهن بالجلوس، أو يرفعن أيديهن لتسوية الشعر. لكن الشيخ يسير طوال الوقت تقريبًا مهتمًّا بالطفل. فكل شىء فيه يدهشه : العينان الهادئتان أو النهمتان، تحريك اليدين من دون أن يتعب، ليونة البشرة، الصرخات المفاجئة. إنه أكثر غرابة هذا المساء وهو أول خروج له بعد المرض. يا له من كابوس ذلك الذى أسموه زكامًا ! لأنه بالنسبة إلى الشيخ، لم تكن

سوى ذات رئة شديدة ولو أن الطبيب لم يتعرف إليها. لو علم أن بروناتينو لم يسلم إلا بفضل الكافور و الكريميلاريا المضافة إلى الماء خفية عن أندريبا! النباتة نفسها التي داوت ذات الرئة التي أصابت الشيخ سارينو بعد أن يئسوا من شفائه.

"بفضل جدك تتجول الآن يا بني الصغير... الحقيقة هي أن لا أحد يعرف الأعشاب الصالحة للأمراض أكثر من الرعاة ! مهلاً، والسيدة مادالينا أيضًا تعرف بعض الشيء، لكن لا تعرف كثيرًا. الساحرات وحدهن يعرفن، لكن هذا موضوع آخر. نعوذ بالمادونا منهن!"

فجأة يتسلى الشيخ وهو يتذكر ملامح آنونسياتا وهما يعدّان الطفل كي يخرج في جولة. يا لدهشتها وهي تراه يزر الثقوب من دون عناء. لا أحد يعرف كم كلفه ذلك من تمارين ليلية. نعم، فأصابعه لا تزال قابلة للتعلم. لم تتخشب بعد مفاصله. يتأمل يديْه القابضتين بقضيب الكرسي كما لو كان سكانا[١]، قويتين، خشنتين بالعروق، لكنهما لا تزالان حيتيْن خفيفتي الحركة. يقارنهما بيدي بروناتينو الصغيرتيْن، وعندهما فعلاً يذوب قلبه. هاتان القبضتان الصغيرتان، وهذه الأصابع الصغيرة كيف ستصير عندما تتعامل مع خصم، أو لمَّا تُلاطف نهودًا فتية...!

---

(١) هو ذنب السفينة الذى به تعدل سيرها وتصون نفسها من الاضطراب.

"لن أرى ذلك يا طفلى الصغير، وأنت لن تعرف أنى جاعل منك رجلاً. أنقذتك من ذلك الطبيب غير الماهر، وسوف أنقذك من أمك ومن أى كان. أنا جدك، المقاوم برونو... أتعرف ؟ لا أطلب من المادونا إلا شيئًا واحدًا وألحف فى طلبه كل يوم : لممت سريعًا الكانتانوتى فأستطيع حملك إلى هناك؛ كى تطوف فى صحن الدار جاريًا وراء الدجاج. سترى كم هى جميلة روكاسيرا، فهى ليست كميلانو هذه القذرة. تلمع فيها شمس حقيقية لا تستطيع تخيلها وأنت ترى هذه. وعلى بعد ترى أجمل فى العالم "لافامينا مورتا" (الأنثى الميتة). يبدو وكأنه يلبس ويخلع ثيابًا كالمرأة. فمرة تكسوه زرقة، ومرة يبدو بنفسجيًا أو بنيًّا أو حتى ورديًّا أو يرتدى حجابًا، حسب الفصل... له طبيعته ومزاجه، أى نعم، فمرة ينذر بالعاصفة، ولكن مرة أخرى يلقيها علينا فجأة... هو صعب، ولكنه طيب كما يجب أن يكون. ستعشقه يا بروناتينو لما نصعد لتراه..."

يخطر له أنها أحلام فيبعدها عن عقله. لكن لِمَ هى أحلام ؟ هو، فى الواقع، بصدد إنقاذ الطفل. فهذا وجهه يبدو أكبر سنًا بعض الشيء، وهذا ليس حلمًا ولو أنكرته أندرييا أمس لما اهتم بملاحظته. انتهى بها الأمر معترفة، ولو أنها أرجعته إلى الزكام الذى امتص له الخدين قليلاً. "غباوة ! الحق هو أنه صار رجلاً صغيرًا." يفكر الشيخ وهو يتذكر ذلك. فكل يوم يحبو، أحسن من ذى قبل، ويبلغ به الأمر حد محاولة الانتصاب متعلقًا بأى شيء... لكن يجب عدم إلزامه :

فالتريبيو (العم) بينيدتو بقى بساقين مقوستين؛ لأنهم دفعوه إلى المشى قبل الأوان. واضح أن هذا لا يؤثر إذا كان الواحد بائع كراس مثله، لكن الأمر يختلف إذا تعلق براع أو مقاوم. يمزح البعض معه فيقول: "أيثقلك كثيرًا ما تحمله ؟" ولكنه كان مسرورًا جدًّا؛ لأنه نجا بذلك من الخدمة العسكرية. إن هذه ميزة حزينة لما نرى النساء لا يسلمن أنفسهن إلا للأشخاص منتصبى القامة، باستثناء من له مال. "سأعلمك كيف تمشى شيئًا فشيئًا يا برونانتينو. ستصبح فتى رشيقًا... طيب، أنت كذلك منذ الآن ! أنت فى هذا الصغر وينتصب لك مثل خنصرى!"

ينظر الشيخ إلى خنصره ويصلح خطأه : لا، لا يبلغ ذلك ويسمع إذاك كلمات عند مروره بمقعد مشغول. "من يتحدث عن الشمس ؟ امرأة غبية من ميلانو." – يفكر الشيخ رافعًا نظره باحتقار نحو القرص المصفر الخافت بفعل الضباب. مهما كان الأمر، فها هو يغير وجهته، كى يتحاشى النور فوق عينى الطفل؛ فيقترب هكذا كثيرًا من السبيل التى تحيط بالحديقة على طول قارعة الطريق. وفجأة تقترب سيارة كثيرًا من الرصيف، وتمر عجلاتها فى نقع فتلوث الكرسى والدثار وترسل قطرات ملوثة على خد الطفل الذى انفجر باكيًا. يجمد الغضب الشيخ هنيهة، لكن لما رأى السيارة تقف عند النور الأحمر على مسافة قريبة أخذ يجرى و قد أعماه السخط، صائحًا شاتمًا وفى رأسه فكرة واحدة : اقتله، اقتله، اقتله!"

يكررها فمه وينفذها ساقاه ويضرب بها قلبه. أمـا الموسـى فهـى مفتوحة بعد فى يده عندما يقترب من السيارة التى شاء حظ سائقها أن مكنه تغيير نور المرور من الابتعاد مـسرعًا مـن دون أن يـشعر بشىء.

لم يبقَ للشيخ إلا إفراغ جعبته من الشتائم، موجهًـا للهـارب إشارة قبيحة بذراعه "فرتساتا"، ولكن كل شجاعته لم تمنعـه مـن أن يرى نفسه فى ذلك الوضع المضحك وضع المطارد المخدوع، عاجزًا هناك على الرصيف، عارى الرأس ومعه موساه غير المفيدة جالبًـا إلى نفسه نظرات تتسلى... وفجأة تفزعه فكرة :

"أنا مجنون، تركت الطفل وحده، أنا شيخ مجنون!".

يعود جاريًا أيضًا ملتقطًا فى طريقه قبعته التى سقطت، متخيلاً ألف شىء يكون قد حدث للطفل. يصل فى الوقت؛ لأن امـرأة غيـر معروفة تنحنى على الكرسى. هل تحاول أخذه منه ؟ مادونـا ! (يـا إلهى). وتغزو عقله فى ذلك الحين قصص قديمة عن غجر يـسرقون الأطفال !

يصل إلى جانبها. الجرى والغضب والفزع يمنعونه عن الكلام مع خفقان قلبه المؤلم. لم يتمكن إلا من النظر شزرًا إلى المرأة التـى التفتت والطفل بين ذراعيها لما سمعت الخطى. تتكهن هى مـا بـه فتطمئنه بابتسامة وتقول:

– لست سارقة لك إياه يا سيدى. سمعته يبكى ورأيته وحيدًا فاقتربت.

توقف الطفل عن البكاء. تمسح له المرأة خده بمنديل صغير، ناصع البياض. لا يزال الشيخ يستعيد قواه، ولا يزال معاديًا لذلك التدخل، ولو أن الوجه الوديع قد هدأ من روعه. شفتان طريتان بين تجاعيد مليحة، وتعبير فتى على الرغم من النضج غير الخفى.

– شكرًا يا سيدتى – يستطيع القول فى النهاية، بينما نظرته تنزل وهى تتفحص النهدين البارزين من دون إراط والردفيْن المستديرين والرشاقة.

– تسأل المرأة : ماذا حدث ؟

– تيس ! ألا ترين كيف ترك الطفل والدثار والكرسى؟ سيد ابن سيد فى سيارة. أيفعل هذا بطفل ؟... تيس ميلانى !

يندم على الكلمة لكنها تبتسم.

– وسروالك أيضًا : انظر إليه. يجب تنظيفه.

– لا يهم. لو حصلت عليه لقتلته. تيس ومعذرة.

– تيس، تكرر هى الكلمة مدهشة الشيخ. أخذ الطفل يعبث بشعر المرأة وهى تواصل : من أية منطقة من الجنوب أنت يا سيدى؟

الآن يفهم الشيخ : لقد تعرفت على لهجته، ولا بد أن تكون هي أيضًا من هناك، إلى الأسفل ولو أن ذلك لا يكاد يلحظ فيها. شعر حالاً بالراحة فسوّى قبعته.

- من روكاسيرا بالقرب من كاتنزارو. وأنتَ ؟

- من البحر الآخر، أمالفي.

- طارنتيلونية ، آه ؟

- وبكل فخر !

الصوت الأنثوي يرن معتزًا بأرضه. وقامتها كأنها تزداد ارتفاعًا عندما ترفع رأسها إلى الوراء بتيه وكِبر.

- يا للعنة – يصرخ الشيخ أمام الوحل الذي أخذ يجف على الكرسي الصغير

- لا يمكن العودة هكذا ؟ أليس كذلك ؟ ستنتهرك الأم... ابنتك؟

- لا، هي كنتي!... ومن أين لها أن تنتهرني تلك أو غيرها؟!

كانت لهجته عنيفة إلى درجة جعلت المرأة تعدل عن مواصلة المزاح، وتنظر إلى الشيخ باهتمام كبير وتفكر : ما من شك أنه ليس جدًا هرمًا. يا له من شخص.

– اهدأ يا صغير – تقول بتعجب محررة شعرها من قبضة الطفل الذى تشبث بالمرأة: انظر ها هو يريد اللعب معى !

– ومن لا يريد ؟

تضحك المرأة بكل رغبة. لا، ليس جدًا هرمًا !

– فتى جميل ! – تقول وهى ترجع الطفل إلى كرسيه – ما اسمه؟

برونانتينو... وأنت ؟

– هورتنسيا.

يتلذذ الشيخ بالاسم ويماثلها :

– أناسالفاتورى.

ويتردد قليلاً ويضيف :

–لكن أرجو أن تدعونى بـ برونو... وقولى لى : هل تتجولين يومًا آخر فى هذه الناحية ؟

(٢١)

"إنها ذاهبة ! ذاهبة إلى روما !"

استيقظ الشيخ وهذه اللازمة فى رأسه. يواصل ترديدها، بينما يضع قهوته على النار، "هذه ليست نارًا" – يفكر مرة أخرى مقارنًا هذه الأسلاك المحمرة بشرر الموقد القروى ولهبه.

"لن تذهب لترى الأتـرورييين طبعًـا ! لا يعجبانهـا . همـا للآخرين، للرومان أحباء موسوليني. هى الخاسرة ! الأمر هو أنهـا ستغيب بضعة أيام وستتركنا نعيش أحرارًا... نعم، أحرارًا !... يبدو الأمر كذبًا : امراة قليلة الكلام، لا تخرج مـن وراء كتبهـا ويكفـى التفكير فى أنها هناك، يبدو الموقف كما لو كنـا إزاء الكارابينيـارى (الحرس الوطنى). النساء خارج المضجع لا يحدثن إلا الضجر.

ودعت أندرييا الليلة البارحة تاركةً تعليمات لريناتو؛ كى يدير المنزل فى غيابها، ثم عقبَّت على كل واحدة من تلك التعليمات كـى تتأكد من وضوحها. سيرافقها ريناتو عند الظهر إلى المطار. بقيـت ساعات قليلة. يفرك الشيخ يديْه.

تصل آنونسياتا ويعيد ريناتو عليها القانون المكتـوب. يغتـنم الشيخ الفرصة ليخرج فى جولة قصيرة، من دون الطفل هذه المـرة. فاليوم بارد جدًا. كان عند الباب فسمع كنتى تسمح لآنونسياتا بإخطار ابنة أختها إن هى احتاجت إلى مساعدة. "سـيمونيتا" يتـذكر الـشيخ مسرورًا ومفكرًا فى أن بداية اليوم حسنة وحتى الروسكا هادئة.

ويواصل اليوم حسنة. فى كورسو فينيتسيا يتقابل مع فـاليريو. يشرح له الطالب أنهم نقلوه إلى "الطرق العامة" لمـا انتهـى تقلـيم الأشجار، وسيستمر أسبوعيْن آخريْن فى العمل فى تزيين الـشوارع، استعدادًا لعيد الميلاد القريب. أحد النواب البلديين مـن المعارضـة،

اشتكى بأن بعض الأحياء منسية، وأن العميد أمر توضع فوانيس ملونة بسرعة حتى فى بعض الميادين بالضاحية وسيساعد فاليريو فى تعليقها من ميدان كاربونارى إلى ميدان لوغانو.

- بعد هذا ينتهى الأمر وعليَّ البحث عن عمل من جديد. اللهم إلا - يتردد الشاب - إذا أعنتنى يا سيدى. فقد كنت أعتزم السؤال عنك فى البيت.

يندهش الشيخ وفاليريو يشرح قوله. فقد تحدث قبل أيام مع الأستاذ بوونكونتونى، عالم الأجناس البشرية والمختص فى الفلكلور، حدثه عن الشيخ الكالابرى فاهتم فى الحين وقال لى :

- أريد أن أتعرف إلى هذا الرجل يا فرلينى " فإنى لم أرجع إلى سيلا منذ شبابى؛ عندما أجريت بحثى بين سلالة الألبانيين الذين أتوا فى القرون الوسطى، والذين لا يزالون محتفظين بعاداتهم اليونانية... بقيت سيلا حتى الآن بلا تغيير وصديقك هذا بمقدوره إعطاؤنا معلومات كثيرة... ائتِ به إلى معهد الأبحاث."

يستمع الشيخ إلى الطالب ولم يفهم بعدُ. فيضيف فاليريو بأن هناك ميزانية لتسجيلات الشهود فى محفوظات الأصوات. تعطى مكافأة للشخص الذى يتعرض إلى البحث، ويظفر فرلينى هكذا بتعيينه مساعدًا بمقابل.

– ما المقصود بكلمة "هذا الشخص" ؟ – يسأل الشيخ منزعجًا: ماذا عساى أن أفعل هناك ؟ أنت مخطئ تجاهى يا فتى. المال بالنسبة لى قد...

يقاطعه فاليريو :

– آى لا أقـــوله لك من أجـــل ذلك، فهم يدفعون قليلاً! لكـــن لكى لا تضيع قصتك ؛ كى يحتفظ العالم بذلك... حكايـــات أشـــعار، أمثال، عادات، زيجات، جنائز... فكل شىء فـــى طـــور النـــسيان، التاريخ، ما نحن عليه.

– قصتى – يكرر الشيخ مفكرًا – الماضى فى طريق النسيان بكل تأكيد. فالفتيات يرمين بالثياب العتيقة الجميلة جدًّا كما لو كانـــت خرقًا.

– سيعجبك الحديث عن كل هذا يا سيد رونكـــونى. ستتـــسلى به... وتمنحنى وظيفة. افعل ذلك من أجلى !

نعم، ستعجبه مساعدة فاليريو. ثم إنه من المؤكـــد أن ســـيكون ذلك مسليًا... وتخطر عليه فكرة :

– من سيكون فى استماعى ؟

– موظـــفو معـــهد الأبحاث لا غير، وقد يدعى أستاذ تـــاريخ أو أدب.

يبتسم الشيخ : نعم تعجبه الفكرة. سيحكى لهؤلاء خدشى الأوراق بما فى ذلك فكاهات أصدقائه... فتكفى قصص "موروديترو" أو قصص الشيخ "ماتيبى"، رحمة الله، ليتركهم فاغرى الأفواه... أكلة الكتب هؤلاء لا يعرفون الحياة... ثم ماذا تقول أندريا عندما تعلم بأنه، أى سالفاتورى، يتحدث فى الجامعة للأساتذة ؟" هو ما تسمعين يا غبية – سيقول لها : أنا فوق المنصة، أنا سالفاتورى نزيل روكاسيرا... ألا تصدقين ؟ اسألى. سآتيك بصورة وأنا أتكلم هناك..." شىء خيالى .. ثم إن قصته ستحفظ... سيمكن لبرونـاتينو أن يسمعها دائمًا !

– سأتكلم أيضًا عن حياتى، عن الحرب ؟

– طبعًا ! أنت الحاكم يا سيدى : قل ما شئت !

– إذن اتفقنا. لكن لحظة... نُجرى تجربة أولاً فى أحد الأيام، وإن لم يرقنى أولئك الناس صرفتهم. معك أنت، أى شىء حسن. لكن معهم يحسن الاطلاع. فأنا لا أتحدث إلا بين الأصدقاء.

– سيصبحون أصدقاء لك، أنا متأكد الأستاذ بوونكونتونى رائع والدكتورة روسى فلا غبار عليها. هى ليست أستاذة حتى الآن ولو أن عمرها أربعون عامًا؛ لأنه لا يوجد كرسى خاص بمادة الميثولوجيا، لكنها شهيرة.

– ميثولوجيا ماذا ؟

- أساطير القدماء، قصص قديمة. سترى، سترى.

"توجد نساء إذن... ولعلها أندريا أخرى" يفكر الشيخ وهما يدخلان حانة ليحتفلا بالاتفاق. سيبدأ عملهما بعد العطل، لذلك يودع أحدهما الآخر متمنيًا له عيدًا سعيدًا.

نعم، اليوم مناسب تمامًا. عند باب العمارة يعطيه البواب رسالة حديثة الوصول. هى من روزيتا. طويلة ومعقدة، كالعادة، وبها ترهات كثيرة كادت أن تدفع الشيخ إلى العدول عن مواصلة قراءتها. لكن من حسن الحظ، أن نظرته التقطت خبرًا عظيمًا."هذه الغبية ابنتى، ألم يكن من الأجدر بها أن تبدأ بهذا وبأحرف غليظة ؟" الكانتانوتى ساءت حاله كثيرًا. يعيد الشيخ قراءة الفقرة. نعم، هو ذاك: عدوه ينزلق نحو المقبرة، ستبتلعه الحفرة. لا يخرجونه من المنزل ولا حتى على الكرسى ولا ينزلونه للصلاة. يقولون إنه لا يحرك ذراعيْه، انهار عقله، ويبول كل حين. يا للفرحة !

يفتح الشيخ باب الشقة، ويقفز إلى المطبخ. ليس فيه سوى آنونسياتا؛ إذ الزوجان قد خرجا إلى المطار، وبروناتينو نائم.

- ساءت حاله، التيس، ساءت حاله !

- يا إلهى، ماذا تقول يا سيدى - تقول المرأة فى انزعاج.

- لا شىء، لا أحد. أنت لا تعرفينه.. ساءت حاله، يحتضر !

تطلب آنونسياتا الصفح من الله لهذا الفرح أمام موت الغيـر. يدخل الشيخ غرفته ويخرج جبنًا ورأس بصل. يعود إلـى المطـبخ ويبدأ فى نقر صنفى الطعام مع جرعات جيدة من النبيـذ. تـذكره آنونسياتا بأن الشراب لا يناسبه.

- لتضجر الروسكا ! اليوم يوم كبير ! يجيب الشيخ رافعًا من استنكار المرأة، يتلذذ راضيًا بمأدبته الصغيرة، وإذ بالطفل يأخذ فـى البكاء. يترك الشيخ كل شىء ويجرى نحو الغرفة الصغيرة. يمد لـه بروناتينو ذراعيْه، فيرفعه الجد من المهد ويضمه إلى صدره.

- يحتضر يا برناتينو يحتضر ! التـيس يحتـضر ! أتفهـم ؟ سأعود إلى روكاسيرا وستأتى معى... ستقوى بأكل الخبز الحقيقـى والخروف الحقيقى.. سترى ما نبيذ الرجال ! ولا تتناول أنت منه إلا قليلاً آه.. تكتفى ببل إصبعك الصغير فى كأسى وتمصه.. يحتضر يا بنى، سيموت قلبى !

يصفق الطفل فرحًا ويتحمس الشيخ :

- نعم، هكذا، افرح أنت أيضًا ! فنحن متشابهان ! أرأيـت أى جد عندك ؟ يحتاجونه حتى فى الجامعة !... ولا يستطيع معـه أحـد شيئًا. سنصعد إلى الجبل وستتعرف على كـل الطيبـين : سـارينو وبيكوليتى وتزامبا.. رجال بحق ! وأنت ستصبح مثلهم !

كل هؤلاء قد ماتوا ولكنه يعيش خارج الزمن. يشرع، وهو حامل حفيده فى حضنه، فى ترنم ألحان قديمة ويبدأ رقصة. كلمته المهموسة تبشر بانتصارات مستقبلية لبروناتينو. يرتفع صوته شيئًا فشيئًا. ترديده ترديد نبى، ورقصته رقصة درويشين. الطفل يضحك ويصرخ جذلاً. الشيخ يدور كالكواكب السيارة، ويجعل من نفسه ريحًا وجبلاً، قربانًا ورقية. يرقص وسط الغابة، على ضوء نار تزفر، يعانق بركات النجوم، يسمع عن بعد عواء الذئاب التى تخاف الاقتراب؛ لأن برونو وحفيده قوة لا تغلب ؛ فهما مشعلا الأرض وسيدا الحياة.

(٢٢)

ذهبت آنونسياتا بعد استحمام الطفل فى غرفة النوم الصغيرة صمت وظلال. فى الصمت تنفس بروناتينو وقد نام.فى الظلال صدف وجهه الصغير. الشيخ جالس على البساط مستمتعًا بهذه الحياة يحرس هذا النوم كما كان يرعى قطعانه : اكتمال انفرادى وتتابع بطئ لأوقات لا تنتهى. "أشعر بالحياة تمر" – قد يفكر لو فكر.

من دون إدراك، تحولت الظلال إلى ظلام. يوصل قابس الفانوس الأحمر. لم يعد ريناتو مُذ أخذ أندرييا إلى المطار ولم يتأخر من قبل هكذا. هل حدث له شىء ؟ حصل الشيخ على وقت لإتمام كل شىء : اعتنى بالطفل إلى أن نام وأعد المفاجأة. لكن ريناتو...

وأخيرًا صوت المفتاح بالباب ! حركة معهودة عند دخولــه : خطوات حذرة، وظهور صامت. يدخل ويقبل بلطف برونانتينو، بينما الشيخ ينهض. يخرجان إلى الممر.

- أهلاً يا أبى، هل أتعبك كثيرًا ؟

- الطفل ؟ إنه ملاك !

بَرَّر ريناتو، باختصار تأخره، بتأخر إقلاع الطائرة ويوجز :

لننظر أى عشاء تركت لنا آنونسياتا. فأندربيا. أوصت كتابــة بإحضاره للمساعدة ولا علينا إلا تسخينه.

- تعسًا لآنونسياتا - يصرخ الشيخ عند باب المطبخ- نتعــشى الليلة مثل الرجال !

يدقق ريناتو النظر فى وجه أبيه : إله الحقول بابتسامة متعــة. ما به ؟ كم حيوية تبدو فى العينيْن المحاطتيْن بالتجاعيد !

فكرة مفاجئة تحزن ريناتو : يؤلمه أن غياب أندربيا يدخل هذا السرور على أبيه. لكن الشيخ كان دومًا هكذا : إذا اعتــرض أحــد سبيله، لا ينفع دواء، وهذا ما حدث له معها مُذ أول إقامة له بميلانو.

آه، لكن ليس الأمر كذلك، والخبر يزيل كابوسًا عن رينـــاتو : السبب هو أن كانتانوتى على شفا الهاوية. مشرف على الموت. يعلق الشيخ على ذلك وهو يضع الأطباق والسكاكين والشوك على المائــدة

من دون أن يترك ابنه يساعده. ابنه الذى اطمــأن فــشعر بالراحــة. رائحة معهودة ولكن غير محــددة. رائحــة قديمــة وحبيبــة. هــذه الرائحة... يراه الشيخ وهو يشم.

- ألم تعد تذكر ؟

وفى الحين

هذا ثريد.؟

طبعًا ثريد مرفوس !.. من حسن الحظ أنك لم تفقد حنينك كليًّا لن يكون له طعم ثريد أمبروزيو، فلا أحد يتقن إعداده مثله، لكنه ثريد الجبل، ثريد العادة.. ففيه حتى "الفازاليكو" (الحبق) وجــدت العــشبة عند التارانتينا. فمادالينا هذه عندها كل ما هو منا !

- تزور كثيرًا هذه السيدة يا أبى.

- فات الوقت ! وصلت متأخرًا - يقول الشيخ مدافعًا - لكــن يسره تلميح ابنه المقصود ويسره أيضًا أن يسهم الولــد فــى المــزاح بفرحته. وهكذا يــضيف : "أو سنيورا مانــدا فيــسكوتى أكــووى أون آفادنتى.." (سيدة تبعث بالخشكنان[١] لمن لا أسنان له) ألا زلت تذكر لهجتها ؟

---

(١) نوع من البسكويت الصلب.

– أنت يا سيدى لا تزال بأسنانك كى تعض هذا الخشكنان – يجيب ريناتو مضاعفًا جذل الشيخ الذى يأخذ فى أثناء ذلك بثريدها ويضعها وسط المائدة.

هكذا ينفتح باب كبير فى ذاكرة ريناتو يفضى به إلى الريف ومنه يدخل رعاة، وغابات قسطل ونيران كرم وأغانٍ وجوع صبية وأيدى أمهات. أمهات، نعم، ولو أنها الآن تخدمه وقد تحولت إلى يدى الشيخ، أجفان كرم خشنة معوجة. "أبى يخدمنى" – يفكر ريناتو. الحدث غير العادى يغيم عينيه برهة. لا، ليس بخار الأكل الساخن، بل هو طفولته كلها موجزة فى دائرة الطبق السحرية.

أمه دائمًا بجانبه، دافعة إياه، وهى فى مظهرها الرقيق، إلى التحرر من العالم القروى ؛ كى لا يتحمل الابن مثلها العبودية نفسها. ومن فوق الاثنين، الأب قوى كإله، جواد بسياطه ولكنه شخصية ملتذة أيضًا. المدرسة التى كانت فى الأول لا تصلح إلا أن تجعل الحرية متعة حقيقيّة، تحولت أيضًا إلى نفق للهروب. وفوق كل شيء حفلات الدار، غزو المطبخ، والضجيج والتبذير والشبع وبقع النبيذ على السماط – فأل خير، فأل خير – وهو يفرض بل الإصبع فى تلك البقع ورسم صليب بها فى الجبين، ودخان التبغ، وبخار بشرى، قرص وضحك وأناس يحترمون الأب فيبدون له الامتثال... وبعد المأدبة تأتى الموسيقى والرقص، قنورات تدور فتصبح كالأجراس؛

فتجلب النظرات وأزقاق النبيذ من يد إلى يد، وأزواج يغيبون، والليل بنجومه والتعب الذى ينزل مرة واحدة لمَّا ينزل الصمت...

– مالك ؟ ألم يعد يعجبك ؟

يرجعه الصوت إلى الحاضر. يذوق لعقة، وملامحه كملامح طفل سعيد، تكفى لتفرح الأب الذى ينفجر ضاحكًا ويقبض على زجاجة النبيذ :

– هذا أحسن يا رجل.

– احذر من النبيذ يا أبى ! الطبيب...

– طبيب ؟ أتذكر تلك المقولة : "دووى جيريتى إى فينو بريما دا مينسترا.. إى دجتا أو ماديكو دا فينسترا." (جرعتان من النبيذ قبل الأكل، وألقِ بالطبيب من النافذة).

كيف يمكن أن يحرم اليومِ من مجد المنتصر على الكانتانوتى؟ يواصل الابن مضغ الثريد، متلذذًا فيه بالماضى. الأغنام فى الجبل، ذلك العالم الرجولى كهذا الذى بعث الليلة هنا.

يتذكر إحدى أوائل المرات التى صعد فيها إلى المراعى الصيفية، وكيف رفعه الأب من حلقة الرعاة، وأخذه معه إلى مرتفع قريب ومنه أراه قمة أخرى، تعلو غابات القسطل : "أترى يا بنى ؟ من هناك يشاهد البحر الآخر، بحر ريدجيو. ستصعد مرة إلى هناك."

لكن لم يرجعا قط. وبعد سنوات لم يذهب للدراسة في ريدجيو، بل في نابولى، لما أصبح من الواضح لديه أن أهل سيلا لا يشدونه، وهو لا يستطيع الحياة هناك... لكن، ذلك المساء وفي أعلى تلك الصخرة، في قمة الصيف، وذراع أبيه ممدودة نحو البعيد، كانت في مثل سبابة إصبع الإله الخالق، وقد مده لآدم في الكابيا سكستينا (لوحة لميكال أنجلو في كنيسة الفاتيكان).

جوزة العنق في رقبة ذلك الإله المترهلة تصعد وتنزل، وهو يلقى برأسه إلى الوراء كي يفرغ الكأس. يمسح فمه بعد ذلك بظهر يده ؛ فتفاجئ الحركة ريناتو. لماذا ؟ فتلك هي العادة ؟

لكن – يلاحظ ريناتو – أن أباه يقمع هذه الحركة، وأكثر من ذلك فهو في الأسابيع الأخيرة قد أقلع عن التدخين وهو لا يلبس الحذاء في المنزل. وهو أيضًا يحلق يوميًّا، ونزل يومًا في حوض الحمام من دون أن يطلب منه ذلك أحد. سمع ريناتو آنونسياتا مرة وهي تمزح قائلة: "هيا ! هيا ! نصلح من أنفسنا الآن، آه ؟" نعم – أجاب الشيخ – أريد أن أموت جميلاً."

"ميلانو تمدنه" – علقت أندريا بعد ليالٍ. لكن ريناتو يعرف أنها ليست ميلانو، بل الطفل. بروناتينو يغير ما بجده. والآن ها هو الابن، في موجة لطيفة جدًّا من الحنان، يعطى قلبه قربانًا للشيخ. شيخ نعم ! ففي هذه الصورة حيث يبدو كشريب مرح، أخذ الهزال يبدو في الأنف، وبدأ الذقن يرتعش : شيخ على أبواب الموت.

هذه الرؤيا الكاشفة تمزق قلب ريناتو، فينحنى علـى الطبـق، ويبتلع بعض اللعقات؛ كى يخفى عينيْه النديتيْن. إن البكاء المكبـوت يهدده من الداخل. كيف يمكن أن تنتهى حياة الأشـجار الـضخمة أو النسور مثل أبيه ؟ ذلك الرجل كان الـسماء فـى عليائهـا : قويًّـا كالإعصار، تعسفيًّا، لا يرحم أحيانًا، لكنـه كـريم أيـضًا، خـلاق، خيرى... تعلق بالحياة فى عناق دب، وشـربها جرعـة فجرعـة... وتنطفئ هذه الشعلة!

يتلذذ الشيخ برؤية ولده يلتهم الثريد. طبعًا ليس ثمة رجل على الأرض يرفض الثريد المرفوس، وفوق هذا فإن ريناتو فى الأصـل شاب طيب. وكان دائمًا كذلك. يسير الشيخ معترفًا بـذلك، ولـو أن الابن عديم المبادرة. "لم يكن قط كأهلى، يا للأسف !.. كـان دائمًـا لينًا، هكذا ربته أمه؛ لأنه آخر مولود أتى بعد اليأس من إنجاب المزيد من الأبناء... ثم إنى لم أستطع العناية به. كانت أشد أيام الإصـلاح والصراع ضد كانتانوتى المؤيد من طرف بارونـات رومـا... لـم أستطع العناية بهذا، بينما فرنشسكو ذهب ليجمع المال... المال! ومـا الفائدة منه إن لم يره ناسنا ؟ منزل كبيـر، أرض، أغنـام، غابـات قسطل ! هذا ما يملأ العينيْن والقلـب، وهـذا عنـدى منـه ! والآن سيستغله ذلك الثعلب ختنى... آى يا ريناتو ! لمـاذا تزوجـت هـذه الدالية الجافة؟"

– اشرب يا ابنى، اشرب لم ننته بعدِ.

– أبعد هذا من مزيد ؟ بعد هذا الثريد ؟

لقد طبخت قسطلاً أيها الفتى، ووجدت تيناً مشمسًا ! بحثت عن "موستاتشيولى" التى كانت تعجبك كثيرًا، لكن لا توجد هذه الحلويات هنا. لا شىء غير ما هو من ميلانو. فليس عندهم كذلك ولا حتى "المورينددهى" الخاص "بالنوتالا"، عيد الميلاد !

ذكر هذا يفجر شيئًا كبيرًا فى ذاكرته.

– ها نحن تقريبًا فى عيد الميلاد. ألا يشعر أحد هنا فى ميلانو بالأعياد ؟ ليس ثمة... أتذكر ما يقال فى ديسمبر : "جورنو أوتو ماريا، أو ترادیشی لوتشیا، أو فنتیشنکو، أو ماسییا !" (اليوم الثامن ماريا والثالث عشر لوسيا والخامس والعشرون المسيح.) أتذكر ؟علينا أن نقيم حظيرة للطفل. لم تفكرا فى هذا، أليس كذلك ؟

(من عادة الإسبانيين وغيرهم كأهل جنوب إيطاليا، إقامة ما يشبه الحظيرة بتبنها و حيواناتها، ويضعون فيها تمثال العذراء والطفل المسيح، ويضعونها منورة فى مكان بارز من البيت. إنها تعوض شجرة عيد الميلاد عند الآخرين).

عيناه تلمعان من الفرحة والحنين معًا.

– أنزلت لحظيرتك الفلين من الجبل وبعض أغصان الليارنغو وبعض الشجيرات... أما التماثل فكانت من مهام أمك. لعلها لا تزال

بالبيت إن لم تتكسر. اشـترتها جـدتها مـن نـابولى... حلويـات "الموريندهى" كانت أمك تغطسها فى العسل. أما أنـا فكنـت أجلـب المسطار[1] من كاتنزارو، فهو أحسن مما فى الجبل !... لكنك كنـت تفضل القسطل على كل شىء... النوتالا !... نعم، فبروناتينو يحتـاج إلى حظيرة عيد الميلاد وسأتولاها أنا.

- يا أبى... يتأثر الابن متذكرًا حبات القسطل، تلـك التـى تحرق الأصابع عند إخراجها من الرمـاد بجذوتـه ويهـديها الفتـى للفتاة... ذلك عندما لا توجد "الغوغياتدهى" وهى المطبوخة فى المـاء مع حبات من الإنيسون... "آى، يا أبتاه ! - يفكر - ما ذنبى إن لـم أكن إلهًا مثلك ؟ "تقع اليد الفتية على اليد المسنة، وتبقـى مـن دون حراك؛ تجنبًا للملاطفة التى سترفض لليونتها. وفجأة يرتعب رينـاتو أمام تعبير مؤلم فى وجه الشيخ.

- هل تشكو شيئًا ؟

- "آيو" أو "شيلو" - يبتسم الشيخ معترفًا بحنينه - لكن كفـى ! أن نكون مسرورين ! ذق كوبًا صغيرًا. لقد خلطته بنفـسى. يتعـرف الابن على المشروب "مبسكو"، أنيسون بالروم. كان دائمًا يعجـب الأب فى المناسبات الكبيرة، مرفقًـا بـالقهوة... يعـرف كـذلك "الـشيلو"، فالذكريات تؤثر فيه أحيانًا. لكن الماضى بقى إلى الوراء، وهو قد شعر

---

(١) أول عصير الخمر بعد طبخه.

دومًا بنفسه غريبًا بطريقة ما عن ذلك العالم. هل هو ميراث من الأم ؟ رد فعل تجاه الأب ؟... "لماذا لا نتفاهم يا أبى، وأنا أحب ذلك؟... لكننا فى هذه الليلة – على الأقل – نسكن البلد نفسها، نحن معًا."

-كان يومًا عظيمًا يا بنى ! – يصرح الشيخ وهو يشرع فى جمع ما على المائدة.

– دع ذلك يا أبى؛ فغدًا تأتى آنونسياتا.

– ومعها سيمونيتا، سيمونيتا ! يا لها من فتاة. لكن سأجمع كل شيء؛ كي لا تشك العجوز فى سهرتنا الحمراء هذه. كانت سهرة جميلة، آه.. واحتضار كانتانوتى أهل لذلك.

– وأنت يا سيدى بعكس ذلك، صحتك فى تحسُّن كل يوم.

يأخذ الشيخ الأطباق إلى حوض الغسيل من دون إجابة. يفضل عدم الكذب. فالحقيقة أنه لما رقص ببروناتينو تقطعت أنفاسه؛ فهو لا يستطيع تسلق الجبل كذى قبل. كان الطفل يصفق مسرورًا، وكان لزامًا مواصلة الرقص، لكن الشيخ تعب وتصبب عرقه. كان قلبه فى قفص ضلوعه، كالطائر المجنون محطمًا نفسه ضد القضبان.

"احذر يا برونو، احذر... نعم، تعديت الحدود هذه الليلة، لقد وثقت، لكن لن أعود لمثلها. يجب أن أربح السباق مع التيس فأبقى أكثر منه... وسأبقى. فقد وضح ذلك. إن طفلى بروناتينو يمنحنى

الحياة... من أجله سأصل إلى الجلوس تحت الدالية وأراه يلعب.. صيفًا واحدًا فى الأقل... ولم لا حتى فصل جمع القسطل".

هذه الأفكار تعطيه ملامح أمن يعوزه ريناتو إلى مشروب "المبسكو"، وهو الذى يحركه فيترنم وهو يغسل الأوانى. يساعده الابن، ولمَّا انتهيا اتجها إلى غرفة نوم الصغير، وانحنيا على نوم الكنز الهادئ. يخرجان، وفى الممر، وهما متجهان نحو غرفتيهما، يدفع تقاطع نظراتهما كلاًّ منهما إلى حضن الآخر. إنه عناق قوى، قوى، جميل وحزين فى الوقت ذاته. "مثل الرفاق أيام الحرب" – يفكر الشيخ فى كآبة.

ريناتو فى غرفته يشتاق إلى عناق آخر يختلف عن ذاك "بما أنك تحبنى هذا الحب يا أبى، فلم ترفض أندرييتى؟... من المؤكد أنها أبعدتنى عن تلك البقاع؛ لكن لأكون أكثر شبهًا بك يا سيدى، أكثر رجولة !... نعم، بجسدها ! ألا تستطيع فهم ذلك ؟ جسمها ! يلتهب لحمها المتين، وتجمح عروقها وتضمنى ساقاها، وتطالب وتطالب وتطالب حتى تدفعنى إلى الإستيلاء عليها وحصارها حتى الإغماء والانهيار !... فبالقرب منك لم أستطع النمو ولم أزد عن أن أكون محاميًا صوريًّا لك. أما بجانبها وبدلاً من ذلك... وأشتاق إليها هذه الليلة. فبهذه الذكريات أشعر كأنى طفل منفى.. يكربنى غيابها، وهذا الفضاء بجانبى...!

كان الشيخ يتدثر ورائحة دثاره القديم تزيد من تخيله برونانينو وهو يجرى وراء الدجاج أو القطط، بينما يتلقى وجهه دفء الشمس المتسرب من خلال الدالية.

أمام هذا الأفق اللماع كالجبال نفسها، عبثًا تتحرك الروسكا – وقد أسكنها أيضًا المبسكو – مغيرة وضعيتها فى الأحشاء المسنة.

وما أهمية الدويبة ؟ لا أهمية لها بعد هذه الليلة مع ريناتو المستعاد والمتأثر لدمه، وهو جدير بالأرض السحرية المرسومة حدودها بأصابع الطفل. هذه الليلة الجنوبية التى اشتعلت فى ميلانو لهما وحدهما. لثلاثتهم : الجذر والجذع والزهرة من شجرة رونكونى.

حطت فوق شفتى الشيخ ابتسامة كأنها فراشة، الفكرة التى كانت ترفرف فى قلبه لما غلبه النوم :"عظيمة هى الحياة."

(٢٢)

آنونسياتا تهتم بالممر. يالهم من رجال. لا يمكن تركهم لوحدهم. كل المنزل فى فوضى، ولم تذهب السيدة إلا أمس... والتبذير ؟ السمك فى المرق عشاء البارحة مرمى فى القمامة !... تعشيا فى المطعم؛ لأنهما لم يتركا أطباقًا غير نظيفة... احتقرا طبيخ العجوز آنونسياتا.. يا إلهى، يا للرجال. لقد أحسنت ببقائى عزبة.

يمر الشيخ. لم يسأل حتى الآن، لكنه ضاق صبرًا.

- ألم تكن ابنة أختك آتية هى أيضًا ؟

- عندها امتحانات لا أدرى فى ماذا. ستأتى متأخرة، وتضيف متأثرة: ثم إنى لا حاجة لى بها.

يدخل الشيخ غرفته وتتسائل آنونسياتا مرة أخرى: ماذا عساه قد حدث فى ذلك اليوم الذى تغيبت فيه وأرسلت سيمونيتا ؟ فالفتاة حدثتها متحمسة عن السيد رونكونى : فمرة أنه كان مقاومًا، وأخرى أنه رجل مهم...ومُذ أخذت تخرج مع المحظوظ رومانو، حتى أصبح كل الشيوعيين مهمين عند هذه الفتاة... إن الجد شيوعى ولو أنكرت ذلك سيمونيتا، وإن لم يكنه يستحق أن يكونه.

تفهم آنونسياتا أن ابنة أختها تتعاطف مع الشيخ : إنهما من الطينة نفسها." ثم تفكر : سيمونيتا لا عذر لها وستكون نهايتها وخيمة. أصبحت مثل أبيها، ذلك الآتى من باليرمو. لا شك أنها تجامع ذلك الأحمر صديقها. خلافًا لذلك، فالشيخ المسكين معه عذره. إنه يموت وهو يعرف ذلك، ولو أنه من الأفضل له الجلوس فى هدوء على مقعد وتسليم نفسه لله. لكن من أين له الهدوء، وهو لا يتوقف عن الحركة وفرح أبدًا... ليس معنى هذا أنه يضحك كثيرًا، ولكنها الحركة منه والهدوء... لعل المرض نفسه يخدعه. فالله له أحيانًا هذه الرأفة.. "آى، ما أشد حزن الشيخوخة! أعطنى ميتة حسنة أيتها القديسة ريتا !... عندما تحين ساعتى طبعًا."

يطرق الباب، وعلى الرغم من إسراع آنونسياتا، فهى لم تطل من الممر، حتى كان الشيخ قد فتح الباب لسيمونيتا التى تمنحه قبلة فى كل خد مثيرة استغراب خالتها. ظهرت اليوم الفتاة؛ بسبب المطر، وعلى كتفيها عباءة رعاة أمريكا الجنوبية، ومن تحتها ذلك السروال الأزرق البالى، حسب الموضة، أزرق كزى عمال الميكانيكا وصدار بنفسجى فاتح بكميْن طويلين وسروال فضفاض ملون، فيذكره مظهرها برسم غلام بجوار إحدى لوحات المتحف يوم أن اكتشف تمثال المحاربين. يندهش. فهذه أول مرة لا يغضب فيها لارتداء امرأة سروالاً. بروناتينو بشوش فى مهده. يصل الشيخ أولاً وسيمونيتا على إثره ناطقة بكلمات عذبة للطفل؛ فتشعر آنذاك آنونسياتا بأنها زائدة، فتعود إلى أعمالها. هكذا عاد بروناتينو ليجد نفسه، كما كان فى اليوم الآخر، قابعًا وقبالة نهدى الفتاة، وكما لو أنه تذكر ذلك، يتخذ فى الحين الوضعية نفسها والابتسامة نفسها، وهمس الرضا نفسه.

تقع نظرة الشيخ على ردفى سيمونيتا ملاطفة إياهما. كم هما بارزان؟ ويالهما من وركين أنثويين ! وعلى الرغم من هذا، فهما بريئان كبراءة وركى الفتى... يعنى – يتردد الشيخ وقد عجز عن فهم نفسه – وركى فتى، نعم لكنهما بريئان، لا بل جذابان.."ماذا جرى لى؟ – يندهش من جديد – فقد كان الأمر لى واضحًا دائمًا كامل الوضوح: الأنثى هى الأنثى، والرجل رجل وغير هذا فإلى المزبلة.

فالأمر هو أن هذا.." يتذكر محتارًا ذلك الذى ظهرت لـــه فيــه يــداه أنثويتين. هل أعماله الحاليــة، كقيامـــه بالحـضانة وتثبيــت أزرار وشمائل، يمكن أن تغير الرجل؟

تفاجئ سيمونيتا النظرة الرجولية :

- هل أعجبك هذا يا تزيبو برونو ؟

ابتسامتها وصوتها المستفز فى براءة يسهدان الشيخ، ويضمنان له أن إعجابه كان موجهًا إلى امرأة

- وكيف لا. ينفجر وهى ترافقه فى قهقهة، ثم يضيف متحاشيًا الموضوع :كيف كانت الامتحانات ؟ هل كانت النتيجة حسنة ؟

- لم تكن امتحانات.

بدت الإجابة شبه مسارة، فينظر إليها الشيخ محتارًا، بينما هى تقترب بالطفل، والشيخ يتقهقر قليلاً خائفًا من أن برونانتينو سيجمعهما بذراعيه، كما فعل فى اليوم الآخر... خائف ؟ لماذا ؟... ماذا أصابنى يا ترى؟

- خدعت خالتى - تعترف سيمونيتا - أنا آتية مــن اجتمـــاع لإعداد إضرابنا الجامعى؛ من أجل زملائنـــا المقبــوض علــيهم أول أمس... لكن لا تقل لها هذا. تضايقنى عظاتها.

يبتسمان فى تواطؤ، وإذا بآنونسياتا تطل.

- يا بنية، إنك لم تأتِ إلى هنا لتلعبى بالطفل.

تضعه سيمونيتا بين ذراعى الشيخ الذى خصته بغمزة، وتخرج وهى تقول :

-الآن، حالاً يا خالتى. دعينى أخلع الحذاء، لا غير. وحافية بجواربها الخشنة، كما كانت فى المرة الأولى، تظهر فى المطبخ عندما نادتهما آنونسياتا للأكل. يصمم الشيخ على تناول الغداء معهما، معارضًا هكذا رأى آنونسياتا. إنه يفضل البقاء مع الفتاة ولو أنهما لا يستطيعان التحدث كرفيقين. يتحرك الغلام بسرواله القديم فى رشاقة وسرور حيوى كفتيات روكاسيرا فى المهرجانات الشعبية فى بعض المرات، لما تمر سيمونيتا بالأطباق وراء خالتها، تخص الشيخ بنظرة باسمة فى تواطؤ. وهكذا يزهر حضورها الفتى كالليلج[1] فى القلب المتعب.

لهذا، لما نزل الليل، أدى عشاء الأب والابن، ولو أنه كان أبسط من عشاء الليلة الماضية، أدى إلى الاطمئنان والتفاهم نفسيهما بين الاثنين. لا يزال أريج طيب عاطفى أنثوى يطفح فى الهواء، فسره ريناتو - وهو يجهل السبب - بحنين لأندريا بينما الشيخ يستحضر...

---

(١) زهر عذب الرائحة، ويسمى أيضًا "ليلك" .

بعد ذلك، وفى السحر، يتسرب إلى المضجع الصغير والطفل نائم، محاولاً فى الواقع تفسير الأمر لنفسه:

"أكرره لك يا طفلى الصغير، النساء لا يمكن فهمهن أبدًا، ولكن مفاجآتهن أجمل ما فى الحياة... وسيمونيتا امرأة ولو أنى... ألا يدهشك أنها عند وصولها ظهرت لى كأنها غلام، ومع هذا أعجبتنى؟ يا للبشاعة ! طبعًا، بذلك الإست المخصَّر جدًّا... لكن النهدين... عنهما تعرف أنت بعض الشىء يا برونانتينو فقد لمستهما. مستديران وصلبان، أليس كذلك ؟ أنا أفضلهما أكبر من ذلك، ولكن كل النهود جميلة. كم من جمال ينتظرك فى الحياة، يا بنى أنا متمتع به مُذ الآن، كما ترى، لمجرد الشعور بأنك ستتمتع به أنت.. ولا تَشْرُدْ بتفكيرك أبدًا. اقبض على ما يعجبك مع التحلى بالرجولة كما يجب، بلا خداع لكن من دون جبن... عندما تريد امرأة أن تضعك تحتها، كن أنت كالديك فوق الدجاجة. لما كنت فى سنك، كنت أبعد الجدى عن أمه لأرضع... حسنًا، لم أكن فى سنك، ولكن لما كنت لا أرتفع بمقدار كهذا عن الأرض... خذ أنت جرعة كبيرة من كل شىء؛ لأنه لا بد أن تأتى خطوات متعثرة، وما لم تتمتع به فى حينه، لن تستطيع التمتع به وأنت فى عمرى... لكن، ماذا تفعل ؟ لا تفتح عينيك الصغيرتين، فالوقت لا يزال مبكرًا، ولا تبكِ وإلا اكتشفونى هنا.. ما هذا؟ أصبحت الآن تطل من فوق الحظار ؟ لا تواصل وإلا سقطت على رأسك. إذا كنت مصممًا فبالعكس ! كم أنت كبير ! وكيف

تفهمنى. طبعًا، الرجلان أولاً، ضعهما على الأرض وأمسك بتــؤدة.. هل أنت تريد من الآن الطواف فى العالم يا ملاكى الصغير؟ ألا ترى أننى عندما أطلقك تسقط جالسًا.. لا، البكاء، لا! نــم بــين ذراعـــى، وبعدها أضعك فى مهدك. انتهى خروجك الأول، سوف تكرر ذلك... هكذا بعينين مغمضتين وفى هدوء.. أنت فعلاً عذب وصــلب ولــين وطفل وكبير وكل شىء. أنت حقًا تملأ قلب الشيخ برونو.

(٢٣)

"ميلانو هذه كم هى غدارة !

كان الشيخ غاضبًا. خرج إلى الشارع تحت ســماء كالعــادة، واغتنم الفرصة للابتعاد أكثر، وإذا بشؤبوب يفاجئه. "ريح البحيــرات الباردة كما يقولون؛ فأية بحيرات هــذه ؟ بعكــسها نهرنــا الآرفــو وبحيرتنا أمبولينو." يحاول اختصار الطريق عبر شوارع أخرى، لكن لم يترك له الوقت. وهو إن كان لا يخشى الماء، فقد اشتد الوابل؛ مما جعله يحتمى بباب عمارة مفتوحة صدفة. أمامه فـــى الــركن لافتــة الشارع : يا بورغوسبيسو. الاسم ليس غريبًا!

تمر بضع دقائق. يفتح باب المصعد فى داخل البهــو، وتتقــدم امرأة بمظلتها مرفوعة وهى على استعداد لفتحها. لما عرفت الــشيخ توقفت وابتسمت :

– هذا أنت يا سيدى ؟ صباح الخير. أجئت لتزورنى... أم هو المطر؟

يحيى الشيخ مسرورًا باللقاء. لقد تذكرها بكثرة، هى السيدة هورتنسيا :

قدها الرشيق، وعنايتها التلقائية بالطفل، وعيناها الفاتحتان تحت الشعر الأسود. الآن يتذكر. لقد أعطته عنوانها. لهذا لم يكن اسم الشارع غريبًا عنه !

– ومرة أخرى السروال. – تضحك المرأة – لكن ليس وحلاً هذه المرة، بل ماء. أنت مبلل ألا تشعر بالبرد؟

– تعودت على هذا، ثم وأنت أمامى كيف أشعر بالبرد ؟ هكذا يضيف مُضاعفًا عدد التجاعيد حول عينيه.

تعود هى إلى الضحك. "إن الضحكة تصدر من داخلها كالحمامة" هكذا يفكر الشيخ معجبًا بهذا الصدر المستدير.

– أى رجل هو هذا ؟ كالابرى حقيقى... وبروناتينو كيف هو؟ يفرح الشيخ لهذه الذكرى.

– أحسنت صنعًا أنى لم أخرجه اليوم. فهو يشكو إسهالاً. لقد أصابه برد على ما أظن.

– الذى سيصيبه البرد هو أنت؛ إن واصلت البقاء هنا... اصعد معى ! أنت فى حاجة إلى التدفئة وإلى كأس تشربها. لقد دقت ساعة النشوة(١).. تعال

يمشى الشيخ ببسالة نحو المصعد.

يصعدان حتى الطابق الأخير، وهناك فى عل، كانت المفاجأة. تغيير كامل للمنظر : ليس الأمر أمر شراهة، بل مسألة تذوق.

ما إن فتح الباب حتى قامت بالترحيب. فى الممر لوحة لخليج نابولى العذب معلقة على ارتفاع مستوى العينين، ويرى بركان الفيزوبيو هادئًا، لكن مذكرًا بأن الهدوء لا يتأتى إلا والنار من تحته. بهذه الرؤيا وحدها؛ يضع الشيخ نفسه فى الجنوب، وزاد شعوره بذلك عندما دخل قاعة الجلوس والأكل الكثيرة النور، على الرغم من السماء الغائمة. شرفة صغيرة ونافذة فى كلا الجدارين، وقد زهت الفتحتان بنباتات معنى بها، ومنهما يسمح بمشاهد الشفوف الميلانية التى يبرز من بينها الدوومو بتمثال المادونا الذى يتوج أعلى مسلة. هذه الشقة عش حمام من فوق فخ المدينة؛ ولذا فهو ملجأ دافئ ولو أن المطر مستمر فى قرع الزجاج.

---

(١) تطلق عليه عادة العبارة الإفرنجية : آبيريتيف.

يحيى الشيخ من جديد ذلك الشعور بالأمن، كما كان يشعر بـــه فى تنقلاته السرية فى أثناء الحرب، عندما يأخذه ضابط الاتصال إلى مخبأ؛ حيث يـــستطيع إلقـــاء نفـــسه علـــى فـــراش، وينـــسى فيـــه الحراسةالمتوترة فى كل دقيقة. بهذه المشاعر يستقر فى المقعد الوثير الذى قُدِّم له، وساقاه العاريتان ملفوفتان فى دثار لا يجعله يشعر بأنـــه مسن ولا مريض، بل بالعكس هو مركز العنايـــة الأنثويـــة. إن ضـــربات المكواة التى تحدو بالسروال أن يجف، جاءت لتخلق بينهما شيئًا يشبه التعايش القديم.

إثر ذلك، وبعد أن ارتدى سرواله، ها هو يتذوق نبيذ الحنطيانا الروحى الأصفر، كالزبرجد فى الكأس، وكالنار فى الحلقـــوم، وقـــد رافقته شرائح من لحم وأُعدت كقديد أهل الجنوب بزيادة نفحـــة مـــن ثوم... "ويفكر الشيخ : ما أكثر ما تعرفه هذه المرأة، فهى تتكهن مـــا بنفسى.

نعم تتكهنه، تفسره وتسبقه دائمًا على طول الحوار هذا، بينمـــا صوت المطر يسمع كأنه فسقية قروية... يتحدثان عن البلد وحياته... وهذه اللوحة الصغيرة ؟ بلاد هورتنـــسيا، أمـــالفى. الـــدرب الحـــالم الصاعد إلى دير الرهبان الكابوشيين والبحر تحته مزبد عنـــد أســـفل الجرف... كان المندولين معلقًا ؟ كان يجيد زوجها العـــزف عليـــه، بينما هى تغنى أغانى من نابولى طبعًا. كان صـــوتها جمـــيلاً فـــى صغرها.

– فى صغرك – يعلق الشيخ – هذا يعنى يوم أمس إذن !

تشكره على الإطراء وتواصل الحديث : هذه الصور هى للمرحوم زوجها :

يبدو فى إحداها بزى البحرية، وفى أخرى بقبعة من التبن، مستديرة ومحلاة بشريط.

– نعم، يا سيدى. كان صاحب زورق بندقى واسمه توماسو.. وبالمندولين كان يحصل على الحلوان[1] من السائحات الأمريكيات.. تخيل يا سيدى أى خليط هو هذا: هو من البندقية، وأنا من أمالفى !

يبدو أن الزوجين كانا على وفاق – الشيخ وهو يستمع إليها – ولو أن وجه الرجل يبدو لى شرهًا بعض الشىء. بالطبع فمهنة أصحاب الزوارق تكفيه على هذا النحو : "مالافيتوزو"؛ لذلك لم تقل توماسى أنا. لكن لا أسيئ التفكير؛ فهو، فى الأقلرفيق خاض الحرب.

يتواصل نزول المطر وهى تدعوه لتناول الغداء معها بطريقة بسيطة تجعل الرفض غير ممكن. ثم إن الشيخ لا ولن يفكر فى الرفض. وعلى أية حال، فقد فات الأوان؛ فهى قد طلبت رقم الهاتف، وها هى تسرع لتهاتف مخبرة بأن السيد رونكونى لن يأتى للغداء.

---

(١) البقشيش.

يا لها من ربة بيت مستعدة. ففى لحظة قدمت "مكرونة" لذيذة. ترى هل الوقت يمر هنا من دون أن يشعر به، ويكفى التنفس بلذة ؟

– هنا فى كاتنزارو نسميه "بريمو" – الطبق الأول، هكذا يقول الشيخ مادحًا درجة نضج العجين ولذة المرق.

–أما هنا فلا. ليس لى طبق ثانٍ؛ تعتذر: قليل من البسطرمة إذا شئت أو من الجبن ثم الفاكهة والقهوة : أقدم لك ما عندى.

جبن الجنوب لذيذ جدًّا، والقهوة عجيبة.

– قوية وساخنة مثلك.

– وكثيرة المرارة. تستفزه هى؛ فينطلق الشيخ :

– أنت مرة ؟ أنت.. مهلاً وبكل احترام، ماذا ننتظر؛ كى نترك المجاملات ونتخاطب كند لند ؟ نحن أبناء الوطن الواحد.

–أنا مواطنة لرجل كالابرى مثلك. الجبال تفرق بيننا.

– الجبال يمكن اجتيازها ! ويقول لنفسه : "خاصة إذا كان لبلوغ هذا العش".

إن الشيخ كرجل من كالابريا حقًّا؛ يحتقر أهل نابولى الطائشين، لكن هى مختلفة كليًّا، ثم إن أمالفى تقع خارج الخليج.

أخذ المطر فى الهدوء من دون أن يشعرا. فى الخارج عـالم آخر. تفتر الكلمات؛ لأن الشيخ فى مقعده، وهـى تـشجعه، يأخـذه النعاس شيئًا فشيئًا، لكنه وَسَنٌ خفيف، لاغير.

كانت آخر فكرة راودته قبل الاستسلام للنوم هى أن بروناتينو، وهو يهتز بين ذراعيه المترهلتيْن يشعر ولا شك أنه فى عشه، كمـا يشعر هو الآن فى مقعد هورتنسيا. لهذا تبدو الابتسامة السعيدة بـين خدى الطفل الممتلئين الموردين !

تتأمل فيه المرأة وهى جالسة أمامه، ويـداها علـى التنـورة، ورأسها مائل قليلاً، وفى عينيها حنان عميق يفيض نحو هذا الرجـل. فى قلبها حزن لا يوصف، وعلى شفتيها ابتسامة هادئة.

الشيخ النائم لا يـستطيع أن يـرى هـذه النظـرة، ولا هـذه الابتسامة. ولكن بعد ساعة، يعود نحو شارع بيافى، تتقشع شيئًا فشيئًا زرقة السماء الضاربة إلى الرمادى، وفى عينيه يطل، مـن دون أن يعرف ذلك الحنان نفسه، ويملأ قلبه حزن ثقيل.

(٢٤)

يسمع دوران مفتاح أندرييا فى القفل. آنونسياتا والشيخ يطلان على الممر، كل من ناحيته. يدخل ريناتو وراءها؛ فهو الذى أتى بها من المطار. أندرييا وهى تسلم تنظر إليهما فاحصة. يقترب قبل كـل شىء من غرفة الصغير، فتتأمل فيه وتمنحه قبلة خاطفـة. "الـسيدة

هورتنسيا تقبله بطريقة أخرى ولو أيقظته". يفكر الشيخ هكذا، بينما أندريا تتفقد متجولة فى غرفة الصغير. الطبق الفارغ لم يكن على اليمين بالتحديد فوق غطاء المنضدة فوضعته أندريا فى مكانه. تخفض آنونسياتا رأسها مرتبكة؛ فقد غفلت عن هذا الإهمال.

- أتخلعين المعطف ؟ يعرض ريناتو نفسه متوددًا.

أندريا متفضلة كما لو أنها تقول : "الآن نعم". تتركه يخلع لها معطفها، ويأخذه إلى غرفة النوم كى يعلقه.

تجول أندريا فى الشقة باستثناء غرفة الشيخ التى اكتفت بأن أطلت عليها. "حسنًا، حسنًا، تكرر. لذيذ العودة إلى المنزل. تجيب عن أسئلة آنونسياتا السلسلة : نعم، رحلة حسنة جدًّا. وفى روما بالوزارة، انطباعات جيدة. كان لأبى أصدقاء كثيرون ! وأصدقاء عمى دانيال أيضًا."تفتح الثلاجة فى المطبخ، وتفحص المحتوى بنظرة." حسنًا جدًّا يا آنونسياتا، الكمال بعينه. "وتكرر ذلك مرة أخرى، وهى تتبادل نظرة متواطئة مع المساعدة لما رأت نصف رغيف خبز أسمر. أما الشيخ الذى، لو رأى ما رآه الآن لسخط، هو الآن يبتسم : فبعد ولائمه العائلية الدسمة، يستطيع تحمل العادات الغريبة عند كنتى. تصل أندريا - فى النهاية - إلى منضدة عملها، فى القاعة. تأملت بعد برهة عبر النافذة ناطحتى السحاب، مسلتيها العصريتين. يتوقف أمام أوراقها فتلين ملامحها : لقد رست فى مينائها.

ما هذا ؟ تسأل فجأة بشدة، مشيرة إلى ركن فوق المنضدة الإضافية؛ حيث أقام الشيخ بالأمس حظيرة ميلاد المسيح.

- ألا ترين يجيب الشيخ بحدة: حظيرة الطفل ؟

- أنا كنت قد قررت، بالاتفاق مع ريناتو طبعًا، وضع شجيرة عيد الميلاد. أراه عمليًا أكثر وأكثر عقلانية.

لا يفتح الشيخ شفتيه. "عقلانية !... ماذا تقول شجرة من هذه لطفل صغير، مقارنة بالمسيح والتماثيل الحقيقية الأخرى وبالحمار والثور الحقيقيين ؟ لتضع هى ما شاءت. أما هذه الحظيرة فلن تتحرك. وأشرح ذلك بنفسى لبروناتينو."

- الوقت متأخر لآنونسياتا. تقول أندرييا بعد برهة صمت، وتخرج نحو المطبخ.

يسمعها الشيخ تقول لريناتو عندما مرت من أمام غرفة النوم :

- انتظرنى هناك. ستأتى حالاً لإفراغ الحقيبة.

تتحدث أندرييا بعض الوقت مع آنونسياتا "مستفسرة عن تغييرات هذه الأيام طبعًا". يفكر الشيخ ويبتسم ساخرًا؛ لأن التغيير الكبير، والمعجزة، لا تستطيعان، ولا حتى تخيلها.. إنها التعايش الكالابرى العميق بين رونكونى الثلاثة.

تستأذن آنونسياتا - فى النهاية - وتخرج، بينما تدخل أندرييا غرفة نومها مغلقة على نفسها ومنفردة بريناتو.

تمر فترة ويستيقظ الطفل. يذهب الشيخ إلى غرفة الصغير، ويفلح فى إعادته لنومه.

أندريا لا تخرج من غرفتها إلا بعد وقت طويل، مرتدية الطيلسان، ومغلقة على نفسها غرفة الحمام. إفراغ الحقيبة قد أخذ منهما كل هذا الوقت !

(٢٤)

– أنت اليوم غاضب يا سيدى، ولا تنكر ذلك. هكذا تؤكد السيدة مادالينا بابتسامة محثة. يعترف الشيخ بذلك وهو يدمدم. هو بالأحرى متألم، يشعر بأن الطفل خانه قليلاً ؛ لأنه يميل إلى شجرة الميلاد، أكثر من ميله إلى الحظيرة.

– هذا طبيعى – تحاول تسليته التارنتينا – فهو جد صغير، ولا يقدر على تقييم الحظيرة.

– صغير إنى قد شرحت له ذلك وفهم كل شىء. فهو لم يعر ولا نظرة للثور ولا للحمار، وهما حقيقيان جدًّا. بألفى ليرة كل منهما، وهذا بقرنيْن حسنيْن، والآخر بإذنيْن جميلتيْن ! غير أن الأمر – ينفجر – لأن أندريا لا تتصرف بنزاهة. فقد علقت فى الشجرة فوانيس ملونة تشتعل وتنطفئ تلقائيًّا. فيأتى الطفل طبعًا كقُبَّرة نحو المرآة الصغيرة. وهل تعرفين – يا سيدتى – ما هو أسوأ من ذلك ؟ فبعد جذب الطفل، تعود هى إلى أوراقها ولا تعيره اهتمامًا. إنها لا

تفعل ذلك لتفرح الطفل وتتمتع معه، يا سيدة مادالينا، إنهــا تفعلــه لتضجرنى.

فكرة مفاجئة تغير مزاج الشيخ، وتجعله يبتسم.

– على كل حال هو أمام الشجرة على غاية من الظرافة ! كم يضحك وكم يصفق !... يعود جبين الشيخ إلى عبوسه – لكــن كــان عليه أن تعجبه الحظيرة أكثر من الشجرة ؛ لأن الحظيرة من عاداتنا.

– اسمع، ولماذا لا تقدم له شيئًا آخر يلفت الانتباه؟ انظــر، إن كل ما عندنا هنا يصلح لعيد الميلاد.

يعجب الشيخ مرة أخرى بهذه المرأة التى تملــك حــلاً لأيــة مشكلة. ليس غريبًا أن تبحث لنفسها عن خلان جيدين؛ لتضفى علــى حياتها الفرح؛ لأنها مع شخص كهذا يستمع إليها كالمغفــل واســمه مارينو، وتسميه هى مارينالو.

وهكذا لما عاد إلى المنزل لم يحمل معه مأكولات لبيت مؤونته السرى فحسب، بل معه أيضًا طرد سيقدمه رســميًا للطفــل عنــدما يستيقظ من قيلولته : دف صغير، إطاره الخــشبى أحمــر، وجلــده مشدود، وصنوجه تلمع كالفضة. يحركها الشيخ. والطفل، وقد سحر، يضحك ويمد يديه طربًا.

لكن الصنوج هى التى أثارت معارضة أندريا.

– هذا لا يصلح لطفل صغير. فقد يعضها فيجرح نفسه. هكذا يصدر هذا الحكم عن هذا الصوت القاطع من وراء الجد.

– لن يعضها. فبروناتينو ليس غبيًّا ! يجيب الشيخ من دون أن يلتفت وهو يفكر : "تستطيعين أنت، إذن، الإتيان بحيلة الفوانيس، وأنا لا حق لى فى دف عيد الميلاد الحقيقى؛ لأن الحظيرة ليس فيها نور كهربائى.. إن لم يرق لك هذا فعليك بالصبر."

يحكم الطفل بالنصر للشيخ. يرفع الصنوج إلى فمه، نعم. ولكن بلا إصرار. بلغ به الأمر حدًّ شمها، ولكن لم يتعدَ ذلك. خلافًا لهذا يطرب للضرب على الجلد، وهز الآلة، وسماع رنينها. يحرك الدف أمام الحظيرة بجنون موليًا الفوانيس ظهره، وعندما تغتنم أندريا فرصة استراحة لتأخذ منه اللعبة الخطرة، يتمسك بها الطفل بقوة، ويطلق صرخات نافذة إلى أن تنسحب الأم منهزمة إلى المطبخ لتحضر العشاء.

"إحضار العشاء كلمة من دون معنى. يفكر الشيخ. كثير من الورق الفضى، وكثير من البلاستيك؛ كى تباع البضاعة غالية، ولا أحد يعلم ما يضعون فى الداخل. مواد كيميائية مثلما يفعل بالنبيذ الردئ... وهل هذا عشاء ليلة عيد الميلاد ؟ تتأكد تخوفاته أمام المائدة: حتى حساء الخضرة يبدو كثير الماء. لهذا رفعوا الكؤوس – فى النهاية – ليشربوا الشامبان. لكن لماذا كل هذه الجدية ؟ أين

الفرح والمرح ؟ - ينكمش فى ذكرياته عن عيد الميلاد : النار فـــى الموقد، رائحة المقالى والشواء، دغدغة النبيذ الحامضة من فم الـــدن الذى يلثم بالتوالى، ضوضـــاء النـــاس دخـــولاً وخروجًـــا، اللقـــانق المصنوعة فى المنزل والوشيقة المملحة، والبهجة عند أخذ الفـــروات والعباءات للذهاب إلى صلاة "الميتزانوتى" (نصف الليل) متمتعين فى الشارع بسوط الريح الباردة على الخدود المحمرة... وبعـــد العـــودة، لعب "الطونبولة" حول "الفراشيرو" (المجمرة) بجذوات مـــأخوذة مـــن الموقد، وإعلان الأرقام بألقابها المفرحة، والضحك من دسائس الرعاة حول الفتيات، والانتهاء بالشدو والغناء فى الطريق إلى الفراش بأفكار غائمة، بينما الجسم فى ثوران، مملوء بالدم أكثر من امتلائه بالنبيذ... أكثر من واحد فى روكاسيرا جرى تعميده بعد تسعة أشهر، وهو، فى الحقيقة، مولود ليلة عيد الميلاد..! عند السحر، أيقظته فـــى فراشـــه الروسكا متقلبة. "واضح أن هذا العشاء أقلقـــك أيتهـــا المـــسكينة... انظرى كيف يوضع النبيذ فى الثلاجة ! ولئن كان شـــامبان ؟! كـــل شىء بارد فى ميلانو هذه. لا أدرى لماذا يسرع ريناتو إلى الفـــراش فى صحبة ميلانية ؟

بينما يحاول تهدئة الدويبة، يرتدى سرواله ويلقى دثاره علـــى كتفيه، ويتقدم كالعادة فى صمت عبر الممر. يبلـــغ المهـــد مـــن دون إحداث أى صوت : لهذا كان يكلـــف مـــن بـــين أعـــضاء الفرقـــة بالاكتشافات الأكثر صعوبة. ينحنى علـــى الوجـــه الـــصغير : هـــذا

المغناطيس الأبيض الذى يضئ كالبدر فى كل لياليه. "كان يجب أن أكون غاضبًا يا بروناتينو؛ لإمعانك النظر إلى تلك البلاهة الألمانية، بلاهة الشجرة... لكن أفرحتنى كثيرًا بالدفء؛ فهى لم يعجبها ذلك؛ وهذا حسن. أغضبتها، أنت قليل الحياء حقًّا مثل جدك، وليكن ما يكون... ألأمثالنا الفوانيس الصغيرة ؟ فهى – فى الجملة – ليست سوى خرق متدليات ولو أنها ملونة... بينما الحمار الجيد.. سترى، سترى لما نركب حمارنا.. هو أكثر أمنًا من حصان. "يتأمل الشيخ تلك القبضة الصغيرة العنيدة الماسكة بطى الغطاء، ويتأثر أمام هذا الجسد الصغير الذى لا يزال كثير الطراوة، وهو من الآن قادر على إثبات رجولته. يحدثه عن عيد الميلاد الحقيقى "النوتالا"، التى ليست الحفل المقلق الذى تم هذه الليلة. عيد تلك البقاع هو الليلة التى يشعر فيها بميلاد شيء كبير فى الجسد، وميلاد وقت جديد فى العالم.

"أتعرف يا ملاكى الصغير ؟ يفكر للطفل. فى ذلك اليوم يتم حتى الاجتماع بالأغنياء، ولا يستطيعون الوشاية إلى للدرك... لأنى بدأت فقيرًا جدًّا، لم يكن عندى ما عندك الآن، وسيكون لك المزيد منه؛ لأنى لن أترك ختنى يستولى على كل ما لى فى روكاسيرا... أنا كنت طفلاً بلا حذاء أرافق آخرين للغناء تحت نوافذ الأغنياء الموجودين آنذاك، ومنهم أبو كانتانوتى والسيد مارتينو الذى أصبح، بعد مرور الأيام حماى. كاد يموت غمًّا لما أخذت ابنته، وأجبروا على تزويجنا. كان ذلك ظريفًا. أنا لا يعترض طريقى أحد، وهذا ما

جعله يقوم بتلك الجولة حول العالم. إنه كأرجوحة خيل. اعلم أن على المرء أن يركب الحصان الأبيض وهو يمشى؛ فذلك أجمل شىء. سوف أعلمك... لكن تم حفل الزواج بعد ذلك بكثير. لم أكن لأحلم بذلك، وأنا طفل تحت نافذته. كنا نغنى له "سترينا" وهى أهازيج عيد الميلاد؛ كى نحصل على دريهمات، وإذا هم تأخروا عن الرمى بها شتمناهم، وتمنينا أن تصيبهم العين... يا لتلك الأهازيج. كانت مضحكة، واذكر إحداها :

"لا تكن مثل الحمار الذى يصم أذنيه إن لم تعطنا ثمن النبيذ خصيًّا كالثور وجدت نفسك".

لكن لم يكن المال لشراء النبيذ، فحتى الخبز كان منعدمًا فى دارنا. لكن هذا يجب عدم الاعتراف به وإلا أخضعوك... كنا نحمل دفوفًا كدفك، يا ملاكى الصغير، وطبولاً أنت لا تستطيع القرع عليها. كنا نصنعها. بأنفسنا بجلود الأرانب الجبلية وأباريق صغيرة مكسرة قعورها. كان لى رفيق ذكى جدًّا، قادر على نظم الأغانى.. اسمع هذه فسوف تضحكك. كنا نغنيها لرجل "كرابيو باغاتو إى كونتنتو" ديوث مدلل. سوف تفهمنى لما تكبر وتضع القرون للآخرين، إنها لذيذة جميلة. كان يعرف ذلك كل أهل القرية. اسمع وستضحك :

"ابنك المسيح، وأنت كالقديس يوسف. فأنت أيضًا لست الأب، ولو أنه ابن زوجتك".

أليست حسنة حقًّا ؟ أتستطيع أن تصدق بأن "الكرابيو" (الديوث)[1] أعطانا أكثر من أى كان ؟ بما أنه أخذ الأمر مأخذ المزاح..."

يا للملاحة التى كانت لتونوليو المحظوظ. شجاع ورشيق. كان يبدو وكأنه آكل الدنيا. النساء يأكلنه بأعينهن، وهكذا طبعًا، وفى الثامنة عشرة تقريبًا أخذته "الماركيزة" إلى إحدى ضياعها؛ هكذا تقول هى كى يعمل هناك. نعم، نعم، أشغال جميلة قد ينفذها لها... حسدته آنذاك. وانظر من أين تأتى الأمور : ففى تلك الضيعة القريبة من روما، مات تونوليو حالاً مصابًا بحمى الملاريا. وفى هذه الأثناء، كان نجم السعد ينتظرنى من دون أن أخرج من روكاسيرا."

كى يزيد فى قوة هذا السعد يلمس الصرة الصغيرة المعلقة فى عنقه؛ لأن ظلاً بدا فزاد فى ظل الغرفة. يقف فى يقظة شديدة عله يحمى الطفل، لكن لم يكن شيء فلعله خوفه ؛ لأنه تذكر "ستريتا" (أهزوجة) أخرى مخالفة تمامًا للأولى، وهى كطعنة حزن... يترنمها بصوت خافت :

"عيد الميلاد يأتى، وعيد الميلاد يذهب، ونحن أيضًا سنذهب، ولن نعود بعدها".

---

(١) الديوث هو الذى لا يغار على أهله، ولا يخجل.

"أسمعت يا بروناتينو ؟ إنها حقيقة وأى حقيقة ! لكننا حمير بشكل يجعلنا نغنيها ضاحكين... الآن فقط أتعرف على ما تعنيه؛ لأنى لم أخف الموت أبدًا فالموت قد يكون سيئًا إذا عرفت بعده أنك لم تعد حيًّا. تصور، لكن بما أنك لا تشعر بموتك فماذ يهم ؟.. ولو أنه يهمنى الآن فعلاً ؛ لأنك تحتاج إلىَّ فلا أستطيع تركك وحدك فى ميلانو هذه القذرة... أتعرف ؟ لم أشأ أن أقول لك هذا، لكن انفلتت منى، ومن الأحسن أن تعوِّد نفسك على الفكرة. فعيد الميلاد هذا هو آخر عيد لى، وإلا فمن المؤكد أنه الذى يليه... لا تجزع، لى من الوقت ما يمكننى من وضعك على الطريق السوى. وها أنت بعدُ سائر فيه... بقى لنا الصيف بأكمله والخريف. سأبقى لك الوقت الكافى. ما إن تنتهِ لعبة ذلك التيس ويرحل، نذهب معًا إلى هناك لأفهمك كل شىء ؛ فتغرس جذورك فى أرض رجال. بعد ذلك لا يهمنى الموت ؛ لأن ما أعلمك إياه لن تستطيع نسيانه. ستصبح شجرة عالية وقوية مثلى، يا بروناتينو، أقسم لك على ذلك."

يسكت الشيخ ؛ لأنه وهو يعد بهذا المستقبل الزاهر، تخنقه الكآبة؛ فيضغط بعينيْه.. وينفجر نشيج على الرغم من كل شىء...

كم كنت أتمنى أن أراك شابًّا، شجاعًا، رشيقًا، وآكلا النساء بعينيك... لو كان ذلك لأعجبنى كثيرًا."

فى تلك اللحظة، تأتى المعجزة. العينان الصغيرتان تتفتحان، سوداوان، بئران بعيدتا الغور وبهما تصميم عميق. حالاً، ومثلما كان الأمر لما وقف الشيخ ضد الظل المزعج، يتحرك الجسم الصغير،

يتعرى، يترك رجلين صغيرتين تقعان نحو الأرض من فوق الحظار، ولما تطآن الأرض يرفع قامته منتصبًا، ويطلق القضبان، ويلتفت نحو الجد الجالس... ثم يخطو ثلاث خطوات متمايلة وحده، إلى أن وصل إلى ذراعي الشيخ المتأثرتين. ذراعان تأخذانه، تضمانه، تشدان عليه، تلينان حول هذه المعجزة الفاترة، وتبلان الخديْن بقطرات مالحة تدحرجت فوق شفاه عجوزة مرتعشة...

– خطاك الأولى، لى وحدى، الآن أستطيع...

السعادة الكبرى تؤلمه وتغمر كلماته.

(٢٥)

– أتزيد من القهوة يا أبى ؟

الاثنان فى المطبخ يفطران. قريبًا من هناك، فى الحمام، آلة حلاقة ريناتو تهر أندرييا رافعة إبريق القهوة، تبدى قلة صبرها.

– نعم، شكرًا، ولا تعودى إلى مناداتى أبى.

– أنا آسفة. تفلت من فمى دائمًا.

لا بأس فى هذا. من الآن فصاعدًا ناديني جدى، نونو.

أندرييا وقد غضبت برهة تنظر إليه متأثرة بالمفاجأة وتفكر. "كم يحب ابنى" وجاء دور الشيخ فى الغضب لهذا الحنان الذى شعر به.

- ماذا تنتظرين ؟ ألست جدًا ؟ إذن جد وكفى، يا للعنة.

"جد". تذوق الشيخ هذه الكلمة طول الفجر وهو في حراسته إلى جانب بروناتينو. نونو، نونو باللهجة الكالابرية : إنها ترن كجلجل كبير فى عنق الذكر الذى يقود القطيع. وكذلك كهديل قرب المهد. "تونو".همسها مرات متتالية من دون أن يستيقظ الطفل. وشرح ذلك للدويبة : "أنا جد فعلاً يا روسكا، أكثر من أب أو عم، أكثر بكثير : جد. الوحيد الذى بقى لطفلى بروناتينو، بينما آخرون لهم اثنان وجدتان.. أقل من هذا كان لى، ولا جد واحد. لهذا لم أكن أعرف من هو الجد، وإلى الآن لا أبدأ فى فهمه. وهكذا كبرت "دزغراوو" (وقحًا) آه وكذلك رجلاً طبعًا. ولو أنه بالإمكان أن يكون الواحد رجلاً كذلك.. لا أدرى، لكنى أشعر فى داخلى بشىء أكثر من الرجولة، شىء جديد يبرز.. ماذا ؟... طيب، أنت تفهميننى. لا؛ أنت لا، لأنك مثلى. تمشين إلى ما تبغينه وبالعض أيضًا... الجدة، نعم، كما ترين. الجدة قد تفهمه لكن ليس له غيرى... وإنه لجميل جدًّا ضم هذا الجسد الصغير إلى الصدر وسماع همهمته كحمام مروض... ينمو فى داخلى شىء لين، طرى، أرأيت ؟ كنت من قبل أضحك من هذه الأشياء. أشياء نساء. لكن ها هو ذلك الحمل هناك..."

هذه الفكرة الأخيرة أدهشته، واندهش أكثر لشعوره بها من دون حياء.. "هل هذا ممكن ؟ لو عرفت فى السابق..."

وكما لو كان يشد الزمام، أوقف تأملاته عندما أطل – كما صار يفعل أخيرًا – على أغوار داخلية مجهولة يقترب منها طيف، لكنه لم يغمض عينيه لذكرى دونكا المفاجئة؛ لأن هذه المشاعر كان يمكن أن تفسرها هي : هي التي حاولت أن تأخذه وسط هذه الظلال، ظلال، رجولة..." ما هذه الأشياء التي تتجول في رأسي ؟ من أين مصدرها؟"

والآن وبعد هذا تبرز فجأة هورتنسيا.كيف تكون قد قضت عيد الميلاد ؟ في بيت ابنتها، من المؤكد، وفي غاية الجمال. لها ابنة يا روسكا وكذلك حفيدة صغيرة،. أتعرفين ؟ يكاد يكون هذا كذبًا، امرأة شابة كهذه وهي جدة... تقول لم يعد لها صوت. مستحيل. لا بد أنها غنت لهم. لعلهم قضوا السهرة راقصين "التارنتيلا". موسيقى حقيقية مغايرة لتلك التي تضعها أندرييا. لا بد أن لهم موسيقى وحظيرة... ولا أشجار ألمانية."

والآن وهو يشرب القهوة، أجنبي عن جيئة ابنيه وذهابهما. يواصل اجترار الفكرة التي وضعها فجأة البارحة. هل من المستحسن إهداء هورتنسيا بعض الزهور؟ وأيها؟ فيكفي أن يتخيل نفسه في الشارع، وبيده باقة زهور، كأبناء الذوات؛ ليشعر بالتوتر. لكن عليه أن يفعل شيئًا مقابل كل اهتماماتها، علاوة على زيارتها في هذه الأعياد... يتذكر عندئذ أن بالحدائق كشكًا لبيع الزهور، ومنه الطريق قصير ليبلغ شارع بورغوسبيسو؛ وهذا ما يجعله يتخذ قراره.

هكذا، كان بعد وقت بالمصعد الضيق وباقة الزهور بيده، خائفًا دومًا من دخول هذا الصندوق فى مدخنته... سبق وأن دق الجرس من الباب السفلى، ودعته هى إلى الصعود. تنتظره عند مدخل الشقة.

كالعادة : نظيفة، بسيطة، متحمسة. وفوق هذا استقبلته الآن بفرح مدهش :

– لكن ما الذى فعلته يا سيدى ؟ كيف خطر ببالك ؟ ادخل، ادخل.

يقدم الشيخ الورود بطريقة خرقاء، وهى زهور ملائمة حسب صاحب الكشك. تدنى هى الباقة من وجهها وتستنشق.

– رائعة !... لكن لم يكن عليك يا سيدى...

– اسمعى، لقد اتفقنا أن نتخاطب بلا مجاملة يا امرأة... ولك أجمل التهانى بالعيد.

– شكرًا ولك أيضًا.

تقدم له خدها والشيخ يقبله. رائحتها أجمل من الورد. شعرها، يا له من حرير قوى... متماسك.

– هل أعجبتك ؟ يسأل الشيخ وقد جلس وهو يتأملها، وهى تحرك ذراعيها منظمة الزهور فى الزهرية.

– أنت تعرف جيدًا أن الزهور تعجبنا نحن النساء.

– يجيب الشيخ بوقار مضيفًا : أظن أن هذه أول مرة أقدم فيها زهورًا لامرأة.

وهذه حقيقة. فمع دونكا كانت هى التى تهدى الزهور. لكن هورتنسيا تجهل ذلك، ومندهشة. تلتفت نحوه، وفورة بدورها ونظراتها من وراء بريق عينيها الدائم، عينيها اللتين تذكران بنهر هادئ تتموج فيه أشعة الشمس.تجعلها المفاجأة الآن متطفلة :

– ماذا تقول يا رجل ؟ لا شك أنك عرفت الكثيرات!

الابتسامة الرجولية تؤكد وتزيد.

– لكن لم أكن قط فى حاجة إلى الزهور.

لا تجرؤ على الإجابة. تنتهى من تنظيم الباقة، توسطها على المنضدة، ومن دون أن تقول شيئًا، تغيب برهة وتعود بمشروب روحى grappa، وكأس صغيرة :

– كيف كانت ليلة عيد الميلاد ؟

– مع الحفيد. أما البقية، لا شىء، هما الاثنان... عيد ميلاد ميلانو... أنت قضيتها ولا شك مع ابنتك !

– أنا ؟ هنا وحيدة.

– وحيدة – يندهش الشيخ مفكرًا : "لو عرفت ذلك... لكن ماذا؟ لم أكن لأترك برونانتينو".

– كل الأبناء سواء، يعيشون حياتهم. طيب، أنا أيضًا عشتها في شبابي. عندما خرجت من أمالفي، لم يرق ذلك لأبي، لكني غير نادمة. لم يكن لي ما أفعله هناك.

ينظر إليها الشيخ : "أي حياة قد عاشتها ؟ ما من شك أن لها عالمًا."

– وستبقين وحدك ليلة رأس السنة ؟

تكبر الابتسامة الأنثوية.

– انتهت الوحدة. سترافقني أزهارك.

لم يُجب الشيخ، وآثر الصمت.

تنظر إليه : "ماذا عساه يفكر هذا الرجل ؟.. في شيء جميل من دون شك.. طيب، لن أسكت."

– فيم تفكر ؟

– في شعرك يا للجمال !...

"كنت أعرف أنها ستضحك مقهقهة". يفرح الشيخ لسماعها.

– شكرًا : لو كان قبيحًا، لكان إشهارًا سيئًا.

- لماذا ؟

كنت مَشَّاطةً. "كابيرا" نقول نحن.

- نحن أيضًا ! مرحى، لأول مرة تتفق أمالفى مع كالابريـــا.! كانت لى حريفاتى، ثم إنى كنت أبتاع الشعر وأبيعه لصنع الجمم[1]... كنت أربح بعض المال أستعين به فى بيتى.

تواصل ترجمة ملامح الشيخ المتصاعدة.

كانت هناك مشاطات ذوات سمعة سيئة، نعم، لكن أنا لم أقـم قط بحمل الرسائل أو بالوصال بين المحبين. ثم إن الحرفة كانت فـى انهيار : فقد ظهرت التسريحة الدائمة ومعاهد التجميل.

انطباع الشيخ وقد شعر بأن سره قد فضح : أتكون هذه المرأة عرافة ؟ لا، الأمر هو أنها تتحدث هذه المرة بلا خوف.

- وهكذا قَدَّمن جميعهن شعورهن، بينما أنت...

تسوى المرأة من غديرة شعرها وتقبل الإطراء.

- لم أجعد شعرى قط، أقصه وكفى... لو يصل إلى أن يبيض كله فسيكون جميلاً.

---

(١) جمع جمة، وهى الشعر المستعار.

"طلق، طلق، هكذا أحب أن أراه – يفكر الشيخ. لكن يتكلم عن حفيده وعن شعره المجعد كثيرًا.

– أصبح يمشى الآن، أتعلمين ؟ مُذ البارحة، ومشى لى وحدى.

– أنت مسرور جدًّا !

إنه ليس فى حاجة إلى أن يقول ذلك لكن تظهر مشكلة. طفل بدأ يمشى يحتاج إلى حذاء آخر. أندريا وهى تنتظر مشيه من حين إلى آخر،اشترت له حذاء رديئًا تسميه موكاسينو، وهو كالقارب.

– حفيدى لن يسير كالراعى. يصدر الشيخ الحكم وهو يشرب "الغرابا" جرعة واحدة. لا بد أن يلبس كالسادة: نعم، بجوارب بيضاء وحذاء أسود من النوع اللماع.

هكذا يرى الشيخ أبناء السادة. لقد بقيت مطبوعة فى ذاكرته الصورة التى ارتسمت لما نزل يوم أحد من الجبل فى روكاسيرا، حاملاً على عنقه جديًا صغيرًا للسيد الماركيز، حديث الوصول؛ ليصطاد رفقة صديقيْن.. الماركيز الذى اشترى منه كرومه وغابات قسطله فى آخر الأمر. كانت أول مرة رأى فيها سيارة. ومن تلك المركبة المعجزة، نزل طفل ضعيف أشقر : كانت جواربه بيضاء تخرج من حذاء يلمع كالمرآة. وبالمناسبة، فالماركيز قد أعدم لما انتهت الحرب، كان مسؤولاً فاشستيًّا ساميًا.

يا هورتنسيا.. أتظنين أن الأحذية اللماعة هى أحذية فاشستيين؟

– يا لها من غباوة ! تضحك هى. لكن بدلاً من أن يكون حذاء من برنيق، فلتكن جزمة صغيرة. فهى تطوق الكعب ويمشى بها الطفل برباطة جأش.

يصعب على الشيخ العدول عن مثله الطفولى، ولكنه يفهم أن الجزمة هى أكثر رجولة. مشكلته شراؤها. أيها ؟ ما حجمها ؟ أين ؟ وإذا ما خدعوه فى النوعية ؟ لأن الميلانيين هؤلاء إذا رأوا ريفيًّا...

تعرض هورتنسيا نفسها لمرافقته إلى دكان أحذية ممتاز. فهكذا ستكون الجزمة هدية ملوك الشرق للطفل، ولو أن العادة ليست هكذا. ستحتفظ المرأة بالجزمة إلى اليوم الأخير. وبذلك تضمن المفاجأة. بأى وجه ستبدو أندريا ؟ يضحكان معًا.

يستأذن الشيخ، ولكنه يترك فى هذا المنزل المضيء رباطًا عزيزًا لسر يتصل ببروناتينو، وتشاركه فيه هورتنسيا. ينزل السلم نشطًا مرحًا كما كان ينزل من الجبل فى روكاسيرا ليلة الأعياد.

(٢٦)

أو هذه هى النساء الشهيرات ؟

سجلته أندريا فى ناد يُزجى فيه المسنون أوقاتهم للتسلية وللترفيه، نادٍ عجيب يتردد عليه سادة وسيدات. هكذا قالت.

نساء ؟ سأل الشيخ.

– طبعًا نساء. ابتسمت أندرييا بجهد.

والآن ينظر الشيخ إلى النساء فى القاعة المزينة بأكاليل عيد الميلاد، وفى أحد أركانها شجرة عيد الميلاد طبعًا بفوانيس لا تنطفىء، بل تظل مشتعلة طول الوقت.

بعضهن يلعبن الورق، وأخريات مجتمعات جالسات على الأرائك والمقاعد والقهوة أو الشاى على مناضد قريبة منهن. هناك رجال أيضًا، وكان الحديث يدور بحماسة. ومن حين إلى آخر تتفجر ضحكة حادة. توقفت إحدى النساءعن عزف البيانو ملتفتة بمقعدها الدوار نحو الباب، وكالبقية تنظر إلى الشيخ الذى كان بالعتبة صحبة أندرييا ومديرة النادى. وينظر الشيخ بدوره إليهن: "نساء ؟ بل قطيع عجائز !... مستديرات، مزينات الوجوه، ملطخات بالمساحيق..لكن كلهن عجائز !"

والرجال من الطراز نفسه. كان أحدهم واقفًا بجوار عازفة البيانو. اثنان يلعبان الشطرنج، وهما الوحيدان اللذان لم يلتفتا نحو حديثى الوصول.

–واصل يا سيد أماديو؛ فصوتك أحسن من أى وقت مضى... بديع !... الكومندادورى، صادح عظيم (مغنى أوبرا) توضح المديرة للشيخ. حسنًا، هى تلح بأن لا تدعى مديرة. "أنا لا أدير شيئًا؛ فكل

شيء يقرّره أعضاء نادينا. فما أنا إلا ناشطة متواضعة، رفيقة بين الرفاق. "لكن الشيخ يفهم بأنها المديرة : فيكفى النظر إليها، وخصوصًا السماع إليها. فمظهر السلطة هذا...!

– آه، لما كنت أغنى على مسرح السكالا... ! يلجلج الشيخ قرب البيانو، منحنيًا فى حركة متكلفة، تعبيرًا عن امتنانه. يدير صفحة على المقرئ ويشير إلى العازفة. لنعد من فضلك.

توقع العازفة بعض النغمات. بعد ذلك، وبينما الصوت الهرم يشرع فى أداء "لاماتيناتا" (الصباح) لليون كافالو، تقود المديرة أندرييا وحماها نحو مقعدين شاغرين، أمام أريكة جلست عليها سيدتان وبينهما رجل.

– لا أقدمكم؛ لأن التقديم هنا غير لازم : فالكل تم تقديمهم لمجرد عضويتهم. قانوننا هو التلقائية، الاندفاع العاطفى الحر. أليس كذلك ؟

تهتز الرؤوس الثلاثة من على الأريكة موافقة. المديرة الناشطة تبتسم. كل الناس هنا يبتسمون إلا الشيخ. وكذلك أندرييا التى تلاحظه فى حيرة. أنا آنا لويزا. تقول إحدى العجوزين، فى الوقت نفسه الذى تصرح فيه الأخرى بأنها تسمى تيبودورا. لقد أجبرتا على الإعادة؛ لأن الأمر قد اختلط بكلامهما فى وقت واحد. من سوء الحظ لم تفهما فى المرة الثانية أيضًا؛ لأن الشيخ الآخر أطلق ضحكة

متتالية انتهت إلى حالة سعال، تمكنت فى أثنائه السيدتان – فى النهاية – من التعريف بهويتيهما صائحتين تقريبًا.

لا تصدقهما أيها الرفيق. يكذبهما الشيخ لما استطاع الكلام. لا تتركهما هكذا، تخدعانك. هما مزاحتان... خى، خى، خـــى، هاتـــان الصبيتان كثيرتا المزاح.

تضمان إذاك قهقهتهما إلى قهقهة المزكوم الـــذى يغمـــز فـــى إفراط بعينه تجاه حديثى الوصول. ينقطـــع فـــى آخـــر القاعـــة أداء "لاماتيناتا"، وضربة جافة من غطاء البيانو وهو يغلق؛ تعبيـــرًا عـــن غضب الفنانين اللذين قوطعا. تأتى المديرة لتهدئتهما، وتتقطع أيـــضًا فجأة ضحكة الثالوث الجالس على الأريكة، وعندها يـــضع المزكـــوم يديه على الفخذين الأنثويتيْن الملاصقتين له حـــالاً وبوقـــار. تتحـــى السيدتان كلتا اليدين وبحركة الاشمئزاز نفسها.

– كفى يا سيد بالتازارى. تقول آنالويزا أو هى تييودورا.

– هذه ليست أخلاقًا، ولا أدبًا – تقـــول تييـــودورا أو لعلهـــا آنالويزا.

– من لا يتذوق الفن، فليعدل عن الحضور. أى نعم، لا يجـــئ – يعيد من الخلف ذلك المغنى المهان بين همسات المـــديرة المهدئـــة التى بعد أن حصلت على غايتها المضمرة، عادت إلى جانب العضو الجديد فى الوقت الذى كان يسأل فيه من قبل السيد بالتازارى.

– وحضرتك من أى دفعة أيها الرفيق ؟

– كنت غير صالح تمامًا.. أنا أصم يصيح الشيخ متضايقًا من تلك العين الغمازة دومًا أمامه. يكشف عن أسنانه، فى محاولة مجهدة للابتسام ويعود نحو الباب. تتبعه أندرييا وكذلك المديرة التى تجهد نفسها فى تقديم التفسيرات والتبريرات.

– السيد بالتازارى المسكين لا يتحكم فى مداركه كما يجب، لكننا لا نستطيع إغلاق الباب أمام أى كان... هذا المكان عمومى، بلدى، أتفهمان ؟.. ومن جهة أخرى يأتى أناس كثيرو اللطف.. تنجح أندرييا فى أن يزور حموها بقية التجهيزات الممدوحة بإسهاب من طرف المديرية.

– هنا المكتبة... مساء الخير يا دكتور، لا نقاطعك... مطالعات ممتازة، ممتازة... هذه القاعة الصغيرة بالتلفاز مريحة جدًا.. قاعة المحاضرات واسعة، أليس كذلك ؟ إننا نلقى الكثير من المحاضرات... المهمة جدًا. وكذلك السينما، ونقدم أحيانًا بأنفسنا بعض المسرحيات... انظر، قبل شهر قدمنا مسرحية "إلباس عريان" فحصلنا على كثير من النقد القاسى. هل يعجبك "بيراندللو" يا سيد رونكونى ؟ اسمح لى بأن أناديك "دون سالفاتورى "فنحن هنا نستعمل الاسم فهو أكثر تلقائية... هل يعجبك "بيراندللو" ؟

عادوا – فى النهاية – ليجدوا أنفسهم فى البهو؛ حيث تعلن لافتة حائطية : "منزل السرور، الضحك هو الحياة." تشرع المديرة

فى الاستئذان بالانصراف. أندرييا، ولو أنها كانت متضايقة، شـكرت معجبة بصمت حماها الحذر. لم تكن تعلم أن الصمت مـرده بلاغـة الدهشة المعبرة. فمذ دخل والشيخ يتساءل إن كان كل ذلك موجـودًا حقًا، وإن كانت تلك الأشكال بشرية، فهو لا يستطيع تفسير ذلك بنفسه ولو كانوا ميلانيين. لم يستطع رد الفعل ولذا صمت فى النهاية. فقـط يسأل مترددًا :

- هل كلهم هكذا ؟

- كيف هكذا ؟ - تسأل المديرة رافعة عينيها الصافيتين كماء البحر. تتقلص أندرييا داخليًّا منتظرة ضربة السوط.

- هكذا.. مسنون، وما شابهه.

لكن سلامة نية المديرة لا تجرح.

- كم يخطر عليك من أشياء يا سـيد رونكـونى. لا يوجـد مسنون هنا يا سيدى العزيز. نحن العمر الثالث. أفـضل العمـر إن عرف كيف يعاش. عُدْ وسترى، عد، نحن سنعلمك.

أندرييا وهى تمشى متقدمة على الرصيف تشكو فـشلها. لقـد قدمت لنفسها الأمل فى أن حماها، فى ذلك النادى القريب من البيت، سيتغيب أكثر ولا يدلل الطفل كثيرًا؛ فيجعل تربيتـه الحقيقيـة أكثـر صعوبة. لذا فقد بهتت لما سمعته يقول، وهى تستقصى فى حذر، بأنه سيذهب أحيانًا إلى النادى.

قد يأتى أناس آخرون – يشرح الشيخ وهو بنظرته غير المفهومة التى يرميها أحيانًا، مغمضًا قليلاً عينيه الذكيتين فوق ظل ابتسامة.

لقد ظهر له النادى فجأة وسيلة للإفلات. فبعد الظهر وأندريبيا تربكه فى المنزل؛ إذ لم يعد له من وقت طيب إلا وقت استحمام بروناتينو. لكن قبل ذلك سيكون له متسع من الوقت ليزور هورتنيسا، مدعيًا أنه ذاهب إلى النادى.

"مهلا ! وما حاجتى بالأعذار ؟. يلوم نفسه. أنا أفعل ما بدا لى." هذا مؤكد، ولكن يبدو له فعلاً أنه يتكلم عن هورتنسيا. فإخفاء ذلك عن أندريبيا فيه تسلية أكثر. يهدئ بهذه الفكرة من روعه مقنعًا نفسه بأن لا أحد يراقبه.

(٢٧)

هل مرا من قبل من المكان نفسه ؟

الشيخ يجهل ذلك. لم يته قط الجبل، لكن هنا... كل الشوارع تبدو له اليوم متشابهة مثل ممرات المتاهة، ومنها تقوده هورتنسيا من دون تردد. تشابهت :دكاكين الأحذية فبدت كواحد، ولو أنهما سألا لتوصلا إلى معاينة بعض الأحذية التى رفضتها دليلته، وفى معظمها لم يتعديا مشاهدة نوافذ العرض فيجولان من دكان إلى دكان بين شراة نهاية السنة المتعجلين المتحدين حركة المرور.

اشتريا في النهاية الحذاء الصغير من متجر ماندوني وهو أول دكان دخلاه : هذه مناسبة، تقول هورتنسيا وتلفت نظر الشيخ إلى ذلك.

– كانت متأكدة أن هذا هو أحسن متجر، لكن إذا اقتصرنا عليه، ولم ننظر إلى غيره، فقد نجد شيئًا أرخص في أول منعطف.

الشيخ غير موافق كل الموافقة، لكنه كان سعيدًا طوال هذه الرحلة الموفقة المدققة، متلذذًا حتى بشعوره بالضياع؛ لأن ذلك يضعه في يد هورتنسيا. متعة أيضًا مرافقتها : كانت تتدثر بجمازة جميلة من الجلد الرمادي، وفي رجليها حذاء جيد. وأكثر من هذا فقد أمسكته من ذراعه، فكان الشيخ يشعر في مرفقه بزخم أنثوي لا يقاوم فيزهو لذلك ويقول :

– كم ينظر الرجال إليك !

ينظرون إلينا معًا.

– إليَّ أنا ؟ إن لم يكن النظر إلى سترتي القروية...!

– ينظرون إلى قامتك ومشيتك.

–هذا صحيح. ساقان جميلتان، وساقان جبليتان. لا أزال أستطيع أن أغلبهم كلهم في تسلق الجبال نحو القمة... وأنت ؟ ألم تتعبي ؟ فيا لها من أمسية عمل !

– عمل ؟ نحن يعجبنا التسوق من دكان إلى آخر. فهكذا تشترى فعلاً الأحسن والأبخس ثمنًا.

– رخيص ؟ فالشيخ قد أنفق على الحذاء آخر ليراته الاحتياطية، ومع هذا فقد احتاج إلى ستمائة دفعتها هورتنسيا التى لم تشأ الموافقة على حذاء آخر أرخص من تلك.

– لا كلام، فللطفل أحسن شىء. ثم إنها صفقة جيدة، أكرر لك ذلك. أنا أفهم فى هذه الأشياء. لقد عملت ستة أعوام كبائعة فى مغازات لومبارديا لما بقيت أرملة ومعى بنيتى... هيا، هيا، سوف ترجع لى الليرات. لهذا نحن أصدقاء. ألسنا صديقين ؟

– لكن سيتأجل ذلك؛ لأنى بقيت بلا مال.

يصرح بذلك فى جد وفى حزن تقريبًا؛ مما جعلها تنطلق فى قهقهة تضخمها قبة رواق فتوريو إيمانويلى؛ هربًا من تداعيات مثيرة. وقد نزل الظلام. الناس يلتفتون وهو يبتسم. كيف يمكن مقاومة هذا الوجه البشوش وهذه الأسنان الساطعة البياض ؟ لكن يثور لتوه.

– يا للعنة ! الأراضى و الأغنام ملكى، لكن ختنى المستغل يماطل فى مدى بالمال. وعندما يهاتف، أصيح فى وجهه، بما أن هراوتى لا تصله.. وفى منزل كنتى لا أريد توجيه السؤال.

– لا تتعجل يا رجل، ولا تظهر هذا الوجه؛ فقد يظن الناس أننا نتخاصم، وليس الأمر كذلك، حقيقة أم لا ؟

– الأمر هو أنه علاوة على ذلك...

– لا تقله لى، أعرفه. إنه يطيب لك الآن أن تدعونى لتناول شىء، أليس كذلك ؟

"هى عرافة" يقول الشيخ فى نفسه مرة أخرى، وهو فعلاً يتألم لعدم تمكنه من ضيافتها كما تستحق. وتوقفا فعلاً أمام مقهى من المقاهى الكبيرة.

"لقد تكهنت !" تفكر هورتنسيا وهى سعيدة لفكرة أن هذا الرجل لا يستطيع أن يخفى عنها شيئًا. إنه شفاف أمامها كالصبى. وتضيف:

– إذن ادعُنى يا رجل.. استضفنى. خذ هذه النقود، هى لك، كما لو كنت قد سحبتها من مصرف، وستسدد عنها فائضًا فى ما بعد.

– آ، بالفوائض ؟ موافق إذن... يبتسم الشيخ قابلاً المال.

تعود هى إلى الإمساك بذراعه، لكن لتتركه يقودها هذه المرة. والرجل هو الذى يدفع الباب الدوار ويقودها إلى منضدة تحت نور خافت، ثم يجلس إلى جانبها على الأريكة المغلفة بالقطيفة. يصيب الكبِر هورتنسيا وهى ترى الشيخ القروى، وقد استعاد القيادة، يكلم النادل من دون ارتباك، وبارستقراطية تفصح عن نبالة وتحضر. "يكفى، يكفى إلى أين نذهب بكل هذا ؟" تحتج هى مبتسمة لكن متمتعة بنهم، خاصة من قرص حلوى يصادف هوى لديها. يمر الوقت عليهما سريعًا، مولهين بجزيرة الألفة هذه التى خلقاها لنفسيهما وسط الضجيج والصخب.

لقد تأخرنا.. تقول هورتنسيا ناظرة إلى الساعة: لعلهم في انتظارك في بيتك.

- يظنون أنى أتسلى فى نادى البله.

- ألم تقل لهم إننا نخرج معًا ؟

- الحذاء الصغير سر تذكرى ذلك.. ثم يضيف فى وقار: لا أريد سماع اسمك من أندريا.

"أنا سر" تفكر هى وتنبه :

ألا ترى أننا أقمنا معًا مأدبة ليلة سان سلفسترى ؟ (ليلة رأس السنة) لأنى لن أتناول شيئًا فى منزلنا.

هذا ما كنت أبغى. هل أنت راضية ؟

- بدرجة تجعلنى أشكر القديس سان فرانسسكو... أترافقنى ؟

- أنا فى الكنيسة ؟ لست ممن يأتون هذا.

لكن يقف معها طبعًا ويساعدها على ارتداء الجمازة. يفهم إذذاك لماذا يقوم أهل الرقة بهذه الحركة، فهى تشبه معانقة المرأة.

توقف الرذاذ. تشرح له وهما يصعدان شارع مانزونى بأنها هى أيضًا غير معتادة على الذهاب إلى الكنيسة، لكنها تذهب إلى سانتانجيلو لترى سان فرانسسكو القديس الذى يعجبها، خاصة عندما تعلم أن ليس هناك قساوسة يعظون؛ لأنها لا تؤمن بهم... يسيران مجتمعين مسافة أخرى فى صمت، وإذا بها تقول :

– ويمكنك أن تراه حتى من الخارج. انظر إليه !

– من ؟

سان فرانسسكو.

كانت فى الميدان بركة صغيرة مثمنة الأضلاع، كحوض نبع، لكن بلا نافورة فى وسطها، وكان راهب متكئًا على الدرابزين يتأمل عصفورًا حط على الجانب الآخر. الصورتان مصنوعتان من البرونز، لكن الوضعية طبيعية بدرجة، هناك على مستوى الطريق، جعلت تصور الفنان مؤثرًا لا سيما فى تواضعه. كان النور الأصفر من فنار يتموج تائهًا فوق الماء؛ فيسكب على البرونز شيئًا من الحياة.

– أنت تعرف يا برونو أنه كان يتحدث إلى الطيور.. إنى أفكر دائمًا فى أن هذا التمثال يعجب سان فرانسسكو.

التحدث إلى العصافير ؟ لا يؤمن الشيخ بأن العصافير موجودة فى هذه الدنيا؛ كى نتحدث إليها. لكنه يتخيل بروناتينو وفى يده دورى، من المؤكد أن الطفل سيتحدث إليه. لهذا تسحره هذه البركة. ثم إنه، كما هو واضح، يمشى إلى جانب هورتنسيا التى تدخله بعد دقائق إلى كنيسة.

رواق واحد كما فى روكاسيرا، وتكاد تكون خالية وهى مفتوحة إلى الآن بمناسبة رأس السنة. تتقدم هورتنسيا بتصميم نحو

مصلى جانبى، وتجلس على مقعد تشاهد منه صورة سان فرانسسكو. شمعتان ترتعشان على مذبح المصلى، وقد أشعلتا أمام "مادونا" وعلى الجدار المقابل لوحة كبيرة مسودة كثيرًا.

يتأمل الشيخ الصورة الجانبية للمرأة إلى جانبه، وهذه البساطة الحنونة نفسها التى للبركة، بهذا الشعر الأملس المشدود إلى الوراء، وبهذا الأنف الهادئ، وبهاتيْن الشفتيْن الساكنتيْن. يعجب الشيخ بها عندما لاحظ أنها لا تهمس بصلوات؛ لأنها لو فعلت لخالها واحدة من غلاة الأتقياء. بينما هى عكس ذلك تمامًا، إنها تجسد السلام الداخلى والكمال المحقق، وهى تضع يديها على تنورتها، وصدرها يهتز فى بطء وتؤدة. يفلت منها الآن شبه تنهد سعيد، أكثر منه حزينًا. يشعر الشيخ بنفسه مرتبكة، كأنه انتهك سريرة فيحول نظره إلى اللوحة.

تتعرف نظرته التى تعودت على شىء أدنى إلى الظلمة يرخى سدوله على سان كرستوبال. غير أنه غارق حتى الركبتيْن فى الماء، ومتكئ على عصا خشنة، وهو ينظر إلى الطفل الجالس على كتفه وهو يمسكه بالذراع الأخرى. تتراءى بين الأمواج ظلال باهتة كمسوخ خرافية، ولكن وجه القديس يبدو فى منتهى الطرب وهو يتأمل عيسى. يقلد الشيخ هذا التعبير من دون أن يشعر ؛ لأن الطفل يذكره ببروناتينو رافعًا الكرة الأرضية كأنها كرة لعب.

"لكن طفلى بروناتينو أذكى وأمكر. هذا الطفل أبله ككل الذين يرسمونهم. من ذلك أنه يبدو خائفًا من الوقوع قابضًا بشعر فلان... هيا يا كرستوفورو، أحسن إمساكه كى لا يبتل المسكين !"

هورتنسيا، وقد نبهها الهمس، تلتفت إلى الشيخ متعجبة وهي تراه يحرك شفتيه داعيًا مصليًا. لكن ذلك يدوم قليلاً. يعود هو إلى صمته متأثرًا الآن، وهو يشعر أن عليه أن يتذكر شيئًا. ماذا عساه أن يكون ؟

يغمض عينيه ليستحضره أكثر – هو لا شك شيء مرت عليه سنون طويلة – فيرى نفسه قد عاد إلى روكاسيرا وهو في كنيسة المنطقة، متذكرًا اخشخشة الألواح، والخطوات الحذرة، وصرير الأبواب، وشرر الشموع نفسها،... رائحة الشمع والرطوبة نفسها... غير أن رأسه لا تعود بهذا كله إلى الذكرى الضائعة. أتكون مقبورة في عالم الطفولة بروكاسيرا ؟

يعود الوقت الذى كان معلقًا إلى الدوران.. ينهضان ويخرجان إلى الشارع، ويعودان إلى شارع بور غيزى القريب، وقد تركاه خلفهما عندما حجا إلى سانتانجيلو. يشتد البرد فتلتصق هى بالرجل، ويسيران بأقصى سرعة...

يودع كلاهما الآخر عند بوابة بيت هورتنسيا.

– عام سعيد.

تقدم له خدها كما فعلت لما أتاها بالورود، وهو يخلع قبعته ويقبلها على الخدين. عندما يبتعد، بعد أن رآها تدخل أحسَّ بنعومة فى الشفاه، واحتكاك شعر فى جبينه، وصورة هادئة فى مخيلته.

(٢٨)

ليلة رأس السنة كانت عذابًا بالنسبة إلى الشيخ؛ لأنه بعد كل ما تناوله رفقة هورتنسيا، وجد نفسه مجبرًا على أن يذوق من الأطباق التى أجهدت أندريا نفسها فى إعدادها، متبعة بدقة الوصفات التى جاءت فى "كتاب المنزل". أضر الإفراط بروسكا التى تحتج بالعض فى اللحم الحى. كان الشيخ يرغب فى دخول فراشه، ولكن قررت كنتى وجوب انتظارهم العام الجديد أمام التلفاز، كما تفعل إيطاليا كلها. استطاع الشيخ التحمل إلى منتصف الليل بفضل تناوله خفية، المُسكِّن الذى أوصى به الطبيب للحالات الأكثر حدة.

بعد تبادل التهانى والقبلات، ينسحب حالاً إلى غرفته، وكان البابا قد بدأ يتحدث. يدخل الفراش ولكنه لا ينام. إنه يعلم أن الدواء سينيمه فيمنعه من اليقظة عند الفجر؛ ولذا يقرر مشاهدة بروناتينو قبل النوم، فى الساعة الأولى من العام الجديد. وهكذا لما هدأت الحركة فى غرفة الاستحمام، ودخل الزوجان غرفتهما، أخذ الشيخ دثاره وانتقل بحذر إلى الغرفة الصغيرة. هناك يقبل بلطف الطفل النائم، ويتمنى له حياة طويلة مفعمة بالسعادة، وهو منحنٍ عليه كشجرة صفصاف. يجلس بعد ذلك على الأرض، ويلتف فى دثاره، ويستند إلى الجدار ليقوم بحراسته المعتادة.

الدثار هو الذى أخرج – فى النهاية – الذكرى الدفينة التى حار فى تعريفها مُذ بدأت ترفرف أمام لوحة سان كرستوبال. لم يُجْدِ

نفعًا بحثه فى عالم طفولته؛ لأن الذكرى لا تنتسب إليه، بل إلى ليلة أخرى من ليالى رأس السنة، وتتصل بحوض نبع عمومى. إن رائحة الدثار ليست رائحة طفولته الرعوية فحسب، بل هى رائحة مغامراته فى أثناء المقاومة أيضًا. وتلك الرائحة تخلع الحجاب، فتبرز تلك الذكرى، قوية جدًّا وهى تعود إلى أربعين سنة مضت.. ليلة سان سلفسترى تلك التى تعرف فيها إلى دونكا فى ظروف مأسوية.

وفجأة يعود فيحيى كل تلك الذكريات ؛ اندهاشه فى المقهى لما رأى أن ضابط الاتصال الذى وصل هو صبيه، وفى الحين، شمَّ رائحة الخطر، الهروب الملائم جدًّا، الطلقة التى أصابته فى جنبه، حيلته لتضليل الجستابو ؛ إذ اختفوا فى حوض البركة، غاطسين فى الماء مثل سان كرستوبال... ثم ها هى المرأة تدله بشجاعة عبر المدينة المجهولة، إلى أن أوصلته سالمًا إلى مخبأ للمقاومة حيث بدأت، وإذذاك فقط، ترتعد خوفًا... كم كلفه تذكر ليلة سان سلفسترى التى لا تنسى، والتى قادتهما إلى ريمينى ؟ يقول لنفسه : "إنى أخمل هذه الذكرى فى أعماقى بدرجة جعلتها كالقلب لا يتذكره المرء."

تهزه الآن الذكريات كأمواج حزينة من الجمر والرماد، ترتبط بالماضى والحاضر مختلطين. وبمعونة المسكن يغلبه النوم كما فى الليالى بلا ذئاب وهو يحرس الحظيرة. خلافًا لذلك يستيقظ الطفل وينتصب دفعة واحدة، كأنه خارج من حلم كريه، لكنه لما تعرف إلى الشيخ قابعًا، ارتسمت على شفتيه ابتسامه، وكالقط الفرح، يغمض عينيْه، ويغير من وضعيته، ويعود إلى نومه.

وتبقى مع ذلك فى غرفة النوم الصغيرة أحلام هائمة، قد تكون متآمرة لشذوذ هذه الليلة المقسومة بين عامين، فتتسرب كالرؤى إلى الشيخ النائم. امرأة ذات عينين صافيتين تميلان إلى الخضرة حيناً، وإلى الرمادى حيناً آخر. تجذبه بسرعة من يده عبر متاهة من الشوارع، وكانت مسايرتها كفاحًا شديدًا لفقدانه فرد نعله، ولو أن الأمر يزيد سوءًا بعد ذلك؛ إذ أخذ دمه ينزف. يعدلان بعد ذلك عن الجرى : فهما فى الماء إلى العنق، وظهراهما إلى الحائط، أمام تماثيل مظلمة تنيرها فجأة بؤرة نور قوى جدًّا يكشف عن وجه ملاك باهر الجمال. بعد ذلك ومن دون أن يعرف كيف، أصبح شعره طويلاً والمرأة تسرحه له بتؤدة، بأقصى تؤدة، أو لعلها امرأة أخرى، تجبره على عدم الحراك، بينما المشط يواصل النزول فيخدشه، ويتسمر فيه، ويحك له بطنه، بينما المشّاطة الغريبة تضحك كما لو كان الألم مزاحًا، وتهدئه عصفورًا يتكلم.. يحط على كتفه فيثقل، ويزيد ثقله فيثنيه ولو أنه يعتمد على محجن[1] خشن... لا بل على ذراع امرأة، أتكون المشاطة؟ أم أن هناك أخرى ؟ لا يدرى فيحتار.

ومن حسن الحظ، وعلى الرغم من المسكن، يستيقظ الشيخ فى الوقت المناسب لعودته إلى غرفته قبل أن يستيقظ الزوجان. ينام بعد ذلك حتى مضى الكثير من اليوم الأول من العام الجديد. أندريا وهى بلا دروس بموجب العطلة، تعترف له بأنها بدأت تفرغ.

---

(١) المحجن هو العكاز.

– لا موجب للفزع . الحقيقة هى أنى نمت جيدًا. لعلى غاليتُ فى الشرب البارحة. لا أتذكر. أندرييا تتذكر وتعجب : فالـشيخ فـى الواقع لم يذق النبيذ. لكنها لم تستطع شرح ذلـك ؛ إذ أخـذ الطفـل يصرخ فى غرفته، والجد يسرع للتمتع بظرافة الطفولة الأولى.

(٢٩)

لم تصدق أندرييا الشيخ، لكنه خرج فى الساعة الخامسة إلـى نادى السن الثالثة. يبدو أنه وجد هناك أناسًـا آخـرين؛ لأن الـساعة التاسعة دقت وهو لم يعد بعدُ. يقترح ريناتو :

– اسمعى ! هيا نتعشى فهو لن يتأخر.

– ألا يكون قد حدث له أمر ما ؟

– لمن ؟ لأبى ؟

إن أباه قادر على التغلب على كل شىء. لكن أندرييا تلح :

– إنه مسن.

"صحيح – يفكر ريناتو فى حزن ثم إنه... لكن نراه دومًا قوى العزم وراضيًا ؛ فنسى مرضه. مرضه القاتل.

تهاتف أندرييا النادى، ولكن المديرة انصرفت، والبواب غيـر قادر على إيضاح وجود عضو جديد هناك هو السيد رونكونى... لـم

يجب عن النداء عبر الميكروفون، لكن "هؤلاء الشيوخ لا يـسمعون قط"، كما يشرح الموظف باحتقار. أندريا وريناتو يتبادلان النظـرات حائرين. عندما يسمع صوت المفتاح فى القفل، وقع خطـى حـذرة، يفكر فى الطفل النائم، ويظهر الشيخ بملامح تدل فعلاً على أنه تسلى. يعتذر فى غير وضوح وهما يعبران له عن قلقهما فيجيب :

- أأنتما غبيان ؟ ماذا عساه أن يحدث لى ؟ لى أنا؟

ريناتو يبتسم : أكيد، ذلك لا يعقل. يواصل الشيخ فـى مـرح وهو يخلع سترته الجلدية :

- أمسية رائعة، رائعة.

أندريا المندهشة تدخل المطبخ لتقدم العـشاء علـى المائـدة المعدة. يبدى الشيخ شهية رائعة، ويشرب قليلاً من النبيـذ. رينـاتو وزوجته يتبادلان نظرات التعجب. ولما اضطجعا وأطفئت الأنوار لم تعد أندريا تتحمل أكثر:

- الحق يقال، أبوك... - تتنهد - لا أفهمه... لا، لا أفهمـه. إنه من كوكب آخر.

كوكب الشيخ فى تلك الأمسية يسمى : "عام جديد سعيد" وهـو عنوان عرض شعبى من المنوعات قدمته البلدية على مسرح متنقـل أقيم فى ميدان أكورسيو. لقد دعته هورتنسيا لمشاهدته، وقـد جلـسا وسط جمهور من الأطفال والجنود، ومن هم فى سنه. والآن، وهـو

فى فراشه، يعود الشيخ إلى التمتع متذكرًا المناظرة. امـرأة ورجـل يركبان دراجتين تتفككان قطعًا، قطعًا "يا لإسـت هـذه الملعونـة." الساحر الذى يشطر مرافقته الهزيلة إلى نصفين داخل صندوق، ثـم تظهر فى الممرات بين المقاعد. وعراف أوراق اللعب وما يخطر فى بال المتفرج (لكن هذا فيه دائمًا حيلة). والبهلوانات مع ذلـك الطفـل المسكين وهو يقوم بالقفزات الخطرة، ومجموعة الرقص التى تخرج بين مشهد ومشهد عارضة عددًا من الأوراك الجميلة... لكـن فـوق الجميع مانغوروني، مانغوروني الشهير، الـنجم الأوحـد بنـوادره ولوحاتها الصغيرة المضحكة... "مانغوروني هات أخرى – يتصايح الناس– ما نغو – رو – نى."وهو يعود إلى الظهور بملامح مختلفة؛ ليعطى هبة أخرى لجمهوره الميلانى المحبوب والمحتـرم... يتمـد الشيخ قهقهة وهو يتذكر ذلك المشهد الذى أقنع فيه مانغوروني إحدى مغنيات الجوقة بأنه صيرها بقرة، ويدلل على ذلك ماسحًا لهـا ذنبًـا خياليًا وواضعًا إياها على أربعة كى يحلبها – "إنه يقلـد ذلـك جيـدًا علامة على أنه يفهم فى الحلب !" – فيرى الجمهـور اللـبن يتـدفق أبيض فى السطل الذى وضعه تحت الفتاة، بينما هى تخور متمتعة...

"كيف يفعلون ذلك ؟ لأن مانغوروني أخذ أحد المتفرجين مـن مقعده وأعطاه كأسًا من ذلك اللبن، لبن بقر حقيقى... "لكن الأحـسن جاء فى النهاية : صاح مانغوروني قائلاً إنه يشعر بصيرورته ثورًا،

ونزل على أربعة أعضاء وراء المغنية لغاية معلومة. فانطلقت الفتاة تخب وهو وراءها يرافقهما تصفيق مجنون.

- قالت له هورتنسيا : كم أنت مستمتع ! يسرنى كثيرًا أن أسمعك تضحك هكذا.

- هذا الشخص ممتاز... من الممكن أنه يقبض على الفتاة هناك وراء الركح... تصورى !.

- كم تخطر ببالك أشياء !

- أشياء الحياة. لا تشمئز منها الماعز فى أعلى الجبل ومعذرة.

نظرت إليه هورتنسيا مشفقة :

- أنت تضحك كالطفل.

- هكذا يجب الضحك. يجيب هو ناظرًا فى عينيها، تاركًا الضحك شيئًا فشيئًا، وهو يلاحظ فيها حنانًا ممتعًا كثيرًا وسنًا حيوية..." آى، يالها من أم لابنى برونانتينو ! - يتنهد الشيخ الآن وهو فى فراشه. يالهما. من ذراعى أم!."

(٣٠)

- هل أعجبتك الهدية يا أبى ؟... أردت أن أقول يا جدى. أيعجبانك ؟

– واضح أنهما جيدان جدًّا... شكرًا يا أندرييا.

"سانتا مادونا" (يا قديسة مريم)، لا يخطر إلا على بال هذه إهدائى قفازين، فنحن لا نلبس هذا. القفاز للسادة الميلانيين أو للسيدات اللاتى لا يعملن شيئًا بأيديهن... هناك فى بلادى لم يكن يلبس القفاز إلا ذاك السائق لسيارة الماركيز لما كانوا ينزلون من روما؛ كى يحلبوا قليلاً من اللبن ويأخذوه معهم. قذر ذلك السائق. كان يظن أنه بكمته[١] ومسماته يستطيع أن يستهوى أية فتاة.. فتياتنا طيبات لا يذهبن مع الغرباء، والتى تستسلم ليس أمامها سوى الهجرة؛ إذ لا أحد ينظر إليها بعد ذلك... أجبر السائق على الذهاب إلى كاتنزار، ودخول دار الزغارونا (بيت دعارة) بمقابل. ومن الغد لم يعد يتباهى كثيرًا، وعاد كالديك الحزين."

– مم تضحك يا جدى ؟ ألا يعجبانك ؟

– كثيرًا. يا له من جلد جيد !... لا شك أنه كلفك كثيرًا. لكن انظرى إلى يدى يا امرأة، لا يدخلان.

تندهش أندرييا؛ لأنها اقتنت فعلاً أكبر حجم. تقارن اليدين بالقفازين فترتبك معتذرة. يحاول الشيخ تسليتها، لكن الواقع لا يرحم. القفازان كبيران بما فيه الكفاية، لكن مخالب هذا الدب الجبلى لا تدخل.

---

(١) غطاء للرأس. المسماة حذاء من نوع الحذاء يصل إلى الركبة.

– أنا غبية، معذرة. تختم أندرييا. لم يخطر ببالى شىء أحسن لعيد الملوك.

(من عادة الإسبانيين وبعض شعوب أوربا الأخرى، الاحتفال بيوم ٦ يناير من كل عام بتتمة لعيد الميلاد يسمونها "لوس رايس" (الملوك) وهم فى اعتقادهم ثلاثة ملوك شرقيين زاروا المسيح عند ولادته، مهتدين بنجمه الساطع، وهم يزورون البلدان فى العيد حاملين الهدايا للأطفال).

يتأمل الجد يديه مفتخرًا، كما لم يفتخر قط : "لا مثيل لهما فى ميلانو. ثم علاوة على أنهما خشنتان تزران الأزرار الصغيرة للطفل!"

يسرد القصة على هورتنسيا بعد الظهر، وكانت تلفه فى شقتها بلفاع. تضحك هورتنسيا؛ لأنها فكرت هى الأخرى فى قفاز ولكنها تذكرت هاتين اليدين.

– أى صوف هذا ؟ من المؤكد أن بها موادَّ كيميائية. يشك الشيخ وهو يشعر بهذه الليونة حول عنقه.

– من أحسن صوف – تشرح هورتنسيا – إنجليزى.

– إن كان الإنجليز رفقاء جيدين. هم كثيرو الأوراق ومملون، ولكنهم منجزون. ذلك المستر.. كيف كان يدعى ؟ كنا نناديه تارى،

اسم الكلب، وكان يجيد المقاومة، وكانت تخطر له أكثر مـن مكيـدة ضد الألمان.. كان يكتب كل الجزئيات ويأمرنا بتكرارهـا... لكـن قتـلوه لتنفيذه الأمر على الرغم من أن الأمور جاءت بشكل آخر... لا يجدى الإكثار من الحسابات."

يقبل الشيخ اللفاع الجيد، ولكنه يستمر محافظًـا علـى لفاعـه القديم فى يده مترددًا. تشبهه هورتنسيا بالقرويين فى مكتب المحـامى وهم لا يعرفون ما يصنعون بالقبعة.

– لا، لست فى حاجة إلى رمى القديم يا رجل. هل أحتفظ لك به ؟.. لعلك تشتهى يومًا وضعه. "تكهنت مرة أخرى بما فى نفسي... يا للمتعة !"

عزيز على – يجيب وهو يسلم كنزه كوديعـة – وهـو مـن صوف غنمي. صنعته لى ابنتـى... بالمناسـبة ! هـاتفتنى أمـس وسيرسلون لى مالى. ثم..

يتباهى بالخبر : التيس ساءت حاله. فالطبيب لا يزوره إلا ليخدعه بالآمال. الكانتانوتى يبكى لما يحدثه القسيس. شديدات التقوى يقلن إنه نادم على شيء، وتائب وهو سيموت كالقديس. "قديس ذلـك الشخص ؟ إنه يبكى خوفًا ويتغضن؛ لأنه ليس رجلاً !"

يقدم الشيخ فى هذه الأثناء هديته مـن دون أن يجـرؤ علـى تثبيتها بنفسه.

– هذه فعلاً جميلة، هذا كثير ! – تمدح هورتنسيا وهى تثبت الهدية فى فستانها.

لقد فكرت برهة ما فى أن تطلب منه أن يثبتها لها، ولكنها لم تجرؤ. المهم هو أنها تلمع الآن على صدرها.

قارب صغير مصنوع من الفضة المتشابكة. واضح أن "الجندول" بلا ربان، وحتى لو كان يوجد فى الدكان "جندول" بهذه الجزئية لما اشتراه؛ لأن ذلك يبدو له قلة احترام للمرحوم.

– جميل جدًّا –تكرر هى – مُذ ترملت لم يأتنى الملوك بشىء فى هذا الجمال.

– فى بلادى ليسوا الملوك، بل هى البيفانا الساحرة. ساحرة طيبة، فمنهن الطيبات، مثل ساحرة صخرة أنزوتا التى تفزع الذئب وتطفئ نيران السوء. كل الناس يعرفون ذلك.

صلاة الملوك فى نابولى – تضحك هورتنسيا – نلقى بالمتاع القديم من النافذة بما فى ذلك قطع الأثاث. نكدس كل ما عند الجيران ونشعل فيه النار. يا للهب ! يصعد الشرر فيبلغ النوافذ...

يعود الشيخ إلى المنزل بالحذاء الصغير المحفوظ حتى الآن لدى هورتنسيا، وكما لو أخرجها للتو من الخزانة، يعرضها منتصرًا ساعة إرقاد الطفل. يرفعها عاليًا بيده الخشنة، فيثير نظرة سعيدة من ريناتو إلى زوجته كما لو قال لها :

أرأيت كيف هو أبى ؟" وأندرييا تدهش فعلاً لحسن الذوق الذى اختار به الشيخ." من كان يظن هذا فى قروى؟"الوحيد غير الراضى هو برونانتينو، عندما أرادوا تجربتها له. جعل يقاوم فى البداية هذا التجديد، ولما وضعها فى رجليه الصغيرتين جعل يدعك فردًا ضد آخر، كى يخلعها ثم يبكى ويخبط برجليه جالسًا أولاً، ثم واقفاً. لكنه يشعر إذذاك بوطأته أكثر قوة، فيتأمل رجليه مندهشاً، ينظر بعد ذلك إلى الكبار ويخطو بعض الخطى المترددة، فتظل بسمة صغيرة بين الدموع. ينطلق بعد ذلك عابرًا الغرفة، معانقًا ساق الشيخ عندما كان على وشك السقوط.

هاتان الذراعان الصغيرتان تطوقان الركبة، كما يطوق الحلبلاب شجر الدردار قرب المصلى ! تصعد السعادة مارة بالفخذ والأحشاء من فوقها، ومغرقة القلب، وضاغطة على الحلق، حتى تبلغ عينى الجد. وقبل أن تنسكب منهما، يأخذ الشيخ الطفل ويرفعه إلى مستوى كتفه جالسًا على هذه اليد الكبيرة، عدوة القفاز، والتى تحوى كامل مؤخرة الطفل الصغيرة.

برونانتينو يضحك ويصفق. أندرييا وريناتو يصفقان أيضًا. يرى الشيخ نفسه مثل سان كرستوبال فى لوحة المصلى وهو يمرر الطفل إلى ضفة عام آخر جديد، نحو أعوام كثيرة... ثم يصرخ :

– يا ريناتو لا بد أن تصورنى هكذا. وبعد ذلك يفكر :

"وعندما آخذ الصورة سأعطى نسخة منها لهورتنسيا."

(٣١)

"أتعلم ماذا ؟ لو أمعنا النظر لرأينا أن القفازين أتت لي بهما البيفانا، الساحرة الطيبة ! نعم، يا ملاكى الصغير، هى التى أوحت بالفكرة لأندرييا، هذا مؤكد ! ولو أنها تكدرت كثيرًا... أستاذة وكل شيء، لكنها كادت تنهمر بكاء."

يفرح الشيخ وهو ينظر إلى الطفل نائمًا... السماء صافية من جديد، مكنوسة بريح البحيرات. هلال أبيض، رقيق كالمنجل، يلمع باردًا فى الزاوية العليا للنافذة.

"إذن، أنت تقول: أين القفازان ؟ انظر إليهما، فى رجلى. سنبدل بهما هذا البابوج[١]... فتنال الشيخوخة ما لم ينله الشباب. لم أستهلك قط بابوجًا، لما كنت فى سنك حافيًا. وبعد ذلك نعال من خشب وأحذية. هنا أحذية... لكن بالحذاء تسمع خطاى ليلاً خارج البساط، فى الحمام والمطبخ، أى بالضبط حيث تدفعنى الروسكا كى تهدأ بلقمة، أو كى أبول فأترك لها فضاء أوسع؛ فهى كما ترى، لما تشعر بالضيق لا تكف عن الهيجان... بالحذاء فوق البلاط قد يسمعوننى. أما بالجوارب فأشعر بالبرد. ليست كجوارب الماضى... إنها جميل، إذن، فكرة البابوج.

---

(١) نعل خفيف يلبس فى البيت.

"تستمع إلى أليس كذلك يا بنى ؟ ما الفرق إذا كان فمى مغلقًا ؟ يسمع المرء إذا فكر بروحه.! هل تعلم هذا : انظر مثلاً بثبات إلى شخص وأنت تفكر : "لو نبست لسحقتك"، وإذا بالشخص يجبن، صدقنى... وباللطف كذلك انظر إلى امرأة وأنت تتخيلها فى رأسك، عندها تحقق النموذج الذى تتطلع إليه... هكذا كنت كل ليلة أفكر فى شياهى، وأين أرعى بها فى اليوم التالى، فتكاد تتجه وحدها حيث فكرت... حتى الحيوانات تدرك.

"لهذا أقول إن البابوج فكرة خطرت على بال البيفانا. أمشى به فى صمت كما فى الجبل، وبأكثر انزلاقًا من سنور. كما كان الأمر وقت الحرب : بنعالى الخشبية، انتهى أمر الحارس العدو. كان لما يشعر بوجودى لا يخرج نداء النجدة من فمه، بل من شق المذبحة تخرج رقرقة دمه وصوت خفيف. حتى تورلونيو لم يكن يأتى عليهم مثلى ! هذا مع أن تورلونيو كما تعلم.

"هنا أفضل مما كان فى الحرب؛ إذ لا أغصان تطقطق، ولا حصى يتدحرج... فهذه البيوت فيها شىء حسن فى الأقل، وهو هذا السكون، سكون الأموات. واضح فالخرسانة تخنق الأصوات، كما تمنع سيلان الأنهار عند السدود... أموات هى هذه البيوت، نعم ! وخلافًا لهذا، فتلك المنازل هناك حية يا طفلى الصغير، تحيا فى خشبها وطوبها وحتى فى حجارتها؛ لأنها من الجبل نفسه حيث تقع. وبما أنها حية فهى تتكلم. تحكيه كله وخاصة فى الليل كالعجائز اللاتى أصابهن الأرق.

"تندهش ؟ سوف ترى ذلك يا بنى. فى صغرى لم أكن أفهم حديثها. كان مغايرًا كثيرًا للأصوات فى أعلى الجبل مع المواشى. كانت المنازل الكثيرة التجويف تخيفنى فكنت ألتصق بجسم أمى. باحثًا عن حماية. لكن إذا انقلبت، سقطت الذرة وأصابتها الفوضى. أسكن إذاك ولا أتحرك فإذا بالدنيا كلها خشخشة وقعقعة وصرير من حولى... من أين لى أن أعرف. فكما لو كان المنزل كله يتململ فوق الأرض؛ كي يسوى وضعيته فتطقطق مفاصله. لكن لم يكن الأمر هكذا، فقد بتُّ أفهمه.. كان المنزل يحكى أشياء، إذ هو غنى بالذكريات ومع الزمن تعلمت الإصغاء إليه، كما ستتعلم أنت يا ملاكى الصغير؛ لأنى سأعلمك كل ما يتعين عليك... أعرف، أعرف ذلك، لم يبقَ لى من الوقت الكثير لكن يكفينى ما بقى : ففى الحياة قليلة هى الأشياء المهمة. لكن، نعم، يجب معرفتها معرفة جيدة؛ كى لا ينشأ خطأ أبدًا، أبدًا."

يمد الشيخ عنقه وينظر داخل المهد. تحرك الطفل فى نومه.

"أنت تصغى إلىَّ طبعًا... طيب، فأنا تعلمت حديث المنزل. أكذب، بل الأحاديث؛ لأن كل ناحية لها لغتها... انظر، كان يسمع صوت السلم فجأة، تشس، تشس، درجاته واحدة تلو الأخرى والدرجة قبل الأخيرة واهنة؛ فتصرخ بأعلى صوت... وهكذا نعلم أن النازل هو السيد مارتينو صاحب الطابق العالى؛ حيث تنام أيضًا سيدة البيت والابنة.

"وإلى أين يذهب السيد فى مثل هذه الساعة ؟ قد تتساءل أنت. حسب الظروف. إذا أخذ الممر فى الحديث فإلى المطبخ، تـا، تـا، خطوات ثابتة جدًّا، وهذا يعنى أن السيد اشتهى أن يداعب السفارينا أو الخادمة التى كانت آنذاك تداعب عصفوره. وإذا لم يُسمع شىء بعد سكوت السلم، كان السيد يدوس أرض البهو، والأرض لا صوت لها، فهى لا تتكلم إلا عند لمسها وشمها. فالسيد، إذن، فى طريقه إلى الإسطبل ليلقى نظرة على الدواب التى تستقبله بصهيلها وخوارها ووقع الحوافر كما اعتادت... أتعرف متى يجب الحذر ؟ لما يسكت السلم فتدوى الألواح الخشنة، طن ، طن، ألواح الممر الذى يؤدى إلى غرفتنا، غرفة الغنامة؛ حيث كنا ننام." يضحك الشيخ فى صمت أمام الذكرى المفاجئة :

"فى بعض المرات، كان يدخل آنذاك شاب من النافذة وكان قد خرج منها لملاقاة فتاته، وكان قد سمع صوت الألواح فى الوقت المناسب. يا للغضب ! عدم إتمام السقاية... وكان السيد، إذا شعر بالأمر، يقول من عند بابنا وهو يرفع الفانوس عاليًا : "سنتكلم غدًا يا موتو أو توريدو أو أى كان – فمن يعمل ليلاً يكسل نهارًا." كما أقوله لك، إن المنزل فصَّاح. فهو لا يستر ولا ذلك. تـرس، تـرس، هذا الصوت الذى يسمع بسرعة ثم بأكثر سرعة يحدثه خشب سرير السادة الرقيق هناك فى علٍ... يقول المنزل كل شىء : الليالى المأسوية والشماتة والمرض والنفاس... أما الموت فحدِّث به، إلا أن

السهر على الأموات يكون عكس ذلك : يسكت المنزل ويهمس جميعنا كما فى حلم مزعج، أو كما لو كنا نحادث المنزل. ذلك الجد الذى يعرف معنى الحياة."

يبقى عقل الشيخ معلقًا مترددًا : لقد فاه الآن بحقيقة لم تخطر من قبل على باله قط. لما كان الموت يفاجئ المنزل، كان كأنه يقول لهم فى صمت : "لا تخافوا، ها أنا باقٍ واقف دائمًا كى تستمروا أحياء. هكذا كان يقول، نعم، وفوق هذا...

"أتعرف شيئًا يا ملاكى الصغير ؟ أكتشف الآن أن منازلنا لم تكن فاضحة كما كنت أقوله لك، بل هى تحدثنا عن الغير كى نعرف كيف نتعايش ونصبح جميعًا رفقاء كمقاومين فى هذه الحرب، التى هى الحياة؛ لأن الإنسان وحده لا يساوى شيئًا... هذا ما تعلمنا إياه تلك المنازل. ولهذا ففى بيوت ميلانو الميتة هذه لا سبيل لتعلم التعايش... ناطحات السحاب تلك التى تعجب أندرييا، المملوءة لا يعرف بعضهم بعضًا، ولا يتبادلون الكلام كأنهم متخاصمون ! لو اشتعل حريق، ماذا يجرى ؟ فلينجُ من استطاع !... وهكذا فهم جميعًا: أنصاف رجال وأنصاف نساء !"

– يندهش الشيخ لاكتشافه غير المنتظر فيركع بجانب المهد. إذاك وفى اندفاعه يصل فعلاً إلى تحريك شفتيه فى همس مسموع :

– أراه الآن بوضوح يا طفلى الصغير. أرى ما أنا قادم من أجله كل ليلة، وهو أن أقيم هنا منزلاً لنا داخل هذا البيت؛ كى نحيا

معًا، أنا وأنت، رفيقيْن فى فرقة... إن لم يعرف هؤلاء الناس كيف يعيشون، فستعرف ذلك أنت لأنى أعرفه... من أجل هذا، لكن لم يخطر لى قط على بال، إلا الآن وبجانبك... لأنى بجانبك أتعلم أيها الرفيق. يا للعجب ! أنا أيضًا أتعلم منك. لست أدرى كيف ولكنك تعلمنى... آى، يا بروناتينو طفلى، يا معجزتى.

(٣٢)

حاسة الشعور بالخطر لديه لا تخطئ، فيفتح الشيخ عينيه. ماذا حدث ؟ خشخشة، احتكاك، خطى قصير... لا يمكن أن تكون خطى... هى غير راسخة... لكن، إذن...!

يجلس دفعة واحدة فى راشة "بروناتينو فى الممر !" يلبس البابوج كالبرق سرعة، وهى ميزة مقارنة بالجوارب. "إلى أين يا ملاكى الصغير ؟" يلقى دثاره على كتفيه ويطل على الممر الذى يأتيه ضوء ضئيل من المدينة عبر الغرفة الصغيرة المفتوحة. يلمح الشيخ فى أعماق الممر بروناتينو، كأنه عفريت أبيض فى منامته متجهًا، وهو يهتز ولكن فى تصميم، نحو غرفة نوم أبويه. وفى برهة، يغيب دخل،

"والآن ؟ - يفكر الشيخ محتارًا - آى يا بنى، أخطأت، أنت تتجرأ كثيرًا.. هذا الحذاء علمك السير بسرعة فوثقت ! لكن لا يطوف الأطفال لن يتركاك، يريدان أن تنام وحدك.." يدهشه فى

الوقت نفسه هذا الطفل، ويفخر باحتياله لينزل من مهده، ويمشى هادئًا هكذا فى هذا العالم المظلم. بلا بكاء باحثًا عما هو له، عن حقه، عن أبويه.. "مرحى يا بروناتينو !"

يعلو همس وغمغمة فى الطرف الآخر للبيت. خشخشة سرير وخطوات كبار... وعلى الرغم من أن الدثار البنى يخيفه فى الظلام، فإن الشيخ يدخل غرفته ويبقى بجانب الباب. يسمع أندرييا تلقى على الطفل الصغير كل ما عندها من كلام التدريس الفارغ. يسمعها تدخل غرفة النوم الصغيرة. يسمع خشخشة المهد وأول أنين صدر عنه وعودة أندرييا إلى غرفتها وبكاء الطفل الجديد الذى يثير الضيق : بكاء بين شكوى ومطالبة، بكاء يتصاعد؛ لأن الطفل يخرج مرة أخرى إلى الممر.

– عد إلى المهد يا بروناتينو !... لا تأتِ، أتسمعنى ؟ قلت : لا تأتِ

يبدو أن صيحة أندرييا لا توقف الطفل.

هل أنت لا تفهم ؟... أنت شرير. لقد أيقظت الجميع فى ساعة نوم... ماما ستغضب !

يسمعها الشيخ تدخل من جديد غرفة نوم الصغير، وتضعه فى مهده.

"عندما تتركك وحدك سأجتمع بك أيها الرفيق." يقسم بذلك.

لكن تبقى أندريا هنالك بعض الوقت وتعود فى النهاية إلى غرفة نومها. لكن الشيخ لم يجد متسعًا من الوقت للإسعاف فاستأنف البكاء بتأثير. تصيح المرأة غاضبة :

– هذا الطفل ! ما الذى يبكيه ؟ ماذا يريد ؟ لا يشكو شيئًا ! ألا يفهم ؟

يكلم ريناتو زوجته بصوت منخفض، ويذهب فى النهاية إلى غرفة النوم الصغيرة؛ حيث يحاول إسكات الصغير.

بما أنه لم يخرج، يعود الشيخ إلى فراشه، ولكن لا ينام. كان حانقًا. "لا يفهم، لا يفهم.. أنتما المغلقان حقًا ولا تفهمان. ألم تكونا طفلين ؟ ألم تخافا ليلاً أن تفتقدا جسدًا ملتصقًا بجسدكما ؟"

يعود ريناتو فى النهاية إلى فراشه، وتسود فترة سكون، لكن الطفل قد انقطع عنه النوم ويعود إلى اليقظة باكيًا. الشيخ لم يعد يحتمل فيذهب ليسليه، فيتقابل فى الغرفة الصغيرة مع ريناتو.

– اذهب لتنام.

– لا يا أبَتِ، نم أنت من فضلك.

يمد الطفل ذراعيْه الصغيرتيْن للشيخ؛ فيحتضنه بلهفة وحب.

– أرأيت – ينتصر صوته – أرأيت ؟

– لا يا أبى، هذا شأنى. شأن أندرييا وشأنى. شأننا نحن.

يصر الشيخ ولكن يشعر أن ابنه لن يستسلم. فينسحب. سيدير المعركة بطريقة أخرى. يفهم أن ابنه يطيع أندرييا، والطفل خاضع هكذا لأندرييا. حتى هو، برونو، ممتثل لها. ملعون الطبيب وملعون الكتاب. لو لم يكن من أجل...! فى جنة من الغضب المكبوت، يجلس فى فراشه من دون أن يضطجع؛ لأنه لو فعل لطار جسمه كمشواة على النار. يسند مرفقيه إلى ركبتيه ويحنى ظهره ويتأمل :

"يا للبشاعة ! العالم منقلب. يجب إنقاذ طفل من أبويْه... المتوحشون لا يأتون إلا هنا!.. مع حبهما له، حسب ظنى... هل هما مجنونان ؟... ليست أندرييا الجلاد. هى أيضًا تمتثل. الجلاد هو ذلك الوغد بخاتمه وسباله، ابن العاهرة، "الدتورى" أو كيف يسمونه هنا. ذاك، ذاك هو الحاكم بكتابه، كتاب المحامى فى يده، هذا القانون الذى يهمل الأطفال ليلاً. ذاك المأبون صاحب المنديل البارز من جيب سترته ! كان لزامًا قتله. لو..."

تراوده هذه الفكرة وقتًا قصيرًا ثم يتركها :

"لن يفيد هذا، فسيأتى آخر مثله..."

ينتهى الأمر بالشيخ إلى الاضطجاع، ولكنه يتململ فى الفراش منتبهًا للأحداث ومستعدًا للتدخل إذا ما أصبح الوضع خطرًا... لا يعزيه إلا معرفة أنه حاضر لمواجهة صاحب المنديل، والكتاب،

والعالم كله، بما فى ذلك ريناتو، هذا كما لو كان كذبًا أنه ابنه – الذى يحاول ترك الطل فى الوحدة التى يودعانه فيها... يغمر قلبه الإعجاب فى الوقت نفسه بشجاعة الطفل :

"فى هذا الصغر وبهذا التصميم. هكذا أريدك، متمردًا مطالبًا بما هو لك... لا، لم يكن الحذاء مصيبتك بتعليمك المشى، بل هو سلاحك كى تحسن الصراع... لو احتجت إلى أخرى فستنالها يا طفلى الصغير. أنا أعطيكما لأنك مثلى من المقاومة أيضًا... شجاع ليلاً وتخرج للنزال. آه يا برونانتينو، يا رفيقى :

ستنتصر أنت ! كما انتصرنا نحن. نعم، إنك ستنتصر.

(٣٣)

على مقربة من الفجر سقط الطل فى نوم عميق؛ نتيجة التعب. والآن تجرى تحضيرات الزوجين؛ كى يذهبا إلى عملهما فى مجرى يبدو عاديًّا، لكن الكلمات تبرز بجهد، والنظرات تتحاشى التلاقى، والزوجان يهمسان على حدة.

يقرر الشيخ : "سأخرج إلى الشارع بمجرد وصول آنونسياتا. لا بد أن أقص عليهما، وهى ستغضب أكثر منى؛ فهى – فى النهاية – أمٌ.

ثم إنه لا يريد الشعور باتهام صامت فى أول نظرة يوجهها إليه الطفل. سيكون ظلمًا؛ لأنه لم يهمله. فكرة الإهمال تذكره بعظة

أجبر على الاستماع إليها إبان الحرب؛ لما كان مختبئًا فى قبة كنيسة وكان ذلك المعبد كل عالمه، عالم يراه من كوة، هناك تحتــه. كــان الوعظ فى عيد الفصح، وكان الواعظ رويهب قد تأثر كثيــرًا وهــو يعلق على كلمات المسيح مصلوبًا :

"يا إلهى، يا إلهى ! تخليت عنى ؟"

فيشرح الراهب ويقول : لكن الله لم يتخلَ عن ابنه، ولا تخلــى عن إيطاليا المحتلة، ولو أن الألمان يصلبونها. هكــذا أيــضًا يبــرر الشيخ لنفسه: "لا يا كنزى لم أتخلَ عنك، ولو بدا الأمر كــذلك. أنــا قديسك كرستوبال، وأفضل لى أن أغرق معــك. أنــا إلــى جانبــك وسننتصر !"

عند نزوله السلم، يتذكر وجه الرويهــب المراهــق الــذى لا يصدق أحدًا من المقاومة، ومع هذا فقد أنقذ الكثيرين كالشيخ نفــسه، مجازفًا بحياته. وبعد ذلك بقليل اكتــشفه الجــستابو، فأعــدم رميًــا بالرصاص. "كيف كان يسمى ؟.. أفق الذاكرة ؟ لم أعــد أتــذكر ولا حتى ما حدث فى تلك الأيام... والتيس الذى لم يثره بعد، يتمتع هناك بالشمس اللذيذة، بينما نحن هنا..."فالسماء لا يمكن أن تكــون أكثــر دكنة، والريح الجليدية تجبره على إمساك قبعته وهو يمــشى. عنــد مروره بميدان موسكوفا أمام نبع فرانسسكو يتذكر ليلــة رأس الــسنة "سان سلفسترى" صحبة هورتنسيا. القديس له وجــه إنــسان طيــب، لكن...

"بدل العناية بالعصافير التى تأكل البرقوق – يواجه الشيخ التمثال البرنزى – يمكنك أيضًا أن تهتم قليلاً بالأطفال... فبعد كل شىء أنت صديق هورتنسيا."

ينادونه من خلفه، فيلتفت مندهشًا. ولما رأى فاليريو، تذكر أنهما تواعدا إلى ما بعد عيد الملوك. يؤكد الشاب ذلك :

– كنت فعلاً أتهيأ لمهاتفتك. سنسجل بعد غد – يلمح تعجب الشيخ فيضحك – أنسيت ذلك ؟ سنهديك يومية الجامعة !

– يومية من تلك التى تأمر الميلانيين بما يتعين عليهم فعله، والتى يسجلون فيها أشياء الشهر التالى ؟ أبدًا يا فتى ! هل تقول إنها نزهات؟

– إن كنت تفضل يومًا آخر، أغير التاريخ مع المخبر.

– رونكونى له كلمة واحدة. بعد غد وحيث شئت.

– سآتى وآخذك من بيتك.

يتودعان ويقول الشيخ لنفسه : "فاليرو جلب لى حظًا سعيدًا" وبعد قليل يلتقى هورتنسيا خارجة من السوق الكبيرة. تفرح هى لرؤيته :

– وتلبس لفاعى !

– هو ملاطفتك فى العنق !

تبتسم المرأة. لم يجرؤ هو، على الإضافة بأن رائحتها فيه، وفى الوقت نفسه يلوم نفسه لسكوته عن ذلك. ما به ؟ كأنه رجل. يدعوها إلى تناول قهوة، وبعد الجلوس يفرغ غضبه ضد ذينك الأبوين :

-... لكن لا شىء يفيد. إنهما عنيدان كالكبش، وقد وضعوا لهما الفكرة فى رأسيهما. سمعتها هذا الصباح تقول : سينتهى به الأمر إلى التعود يا ريناتو. "الدتورى" يقول ذلك. يجب أن لا نترك الطفل يطغى علينا... "أترين ذلك يا هورتنسيا ؟ طاغ ذلك الملاك الصغير ؟ والذى يفعلانه معه أليس طغيانًا ؟ يا للوحوش !

- لا تغالِ يا برونو. فليس من الحسن أيضًا أن يسمح للأطفال بكل شىء. يجب تربيتهم.

ينظر إليها الشيخ وهو لا يصدق. "كيف لها أن تتكلم هكذا ؟ هل أصابتها العدوى بعيشها طويلاً فى ميلانو ؟" يجيب متلائمًا :

- أأنت تقولين هذا ؟.. السماح بماذا ؟ بأن يكون له أبوان ليلاً ويفقدهما نهارًا ؟ أن يرى نفسه بجانبهما إذا أصابه الخوف فجرًا ؟... أتهملين ابنتك يا هورتنسيا ؟ لا أصدق !

تبتسم المرأة مهدئة. تضع يدها فوق يد الرجل.

- إهمال ؟... تهمس هورتنسيا - هذا ليس إهمالاً.

"يا لطبيعتها ! – يعترف الشيخ وهو مصغٍ إليها – تفكر تفكيرى نفسه، ولكنها لا تريد إلهاب النار... لا حاجة لذلك؛ فهى تلتهب بما فيه كفاية !"

– مهما كان الأمر، هل فعلت ذلك مع ابنتك ؟ أجيبينى ! ثم يشتكون بعد ذلك من أن أبناءهم يغادرون البيت متى استطاعوا !

تجيب المرأة بتؤدة.

– آى يا رونو ! الأبناء تركوك تفعل معهم ما فعلت. وفى النهاية، تبقى الواحدة وحيدة.

كان فى هذا الصوت كثير من الحزن؛ مما حدا بالرجل أن ينسى غضبه. ويتذكر كذلك وضعيته الخاصة فيجيب بحنان :

– الحال هى أنك لم تفعلى ذلك.

– لا، لم أفعله.لكن ابنتى فعلته، وحفيدتى تنام الآن وحدها... أمهات اليوم يفكران هكذا؛ ظنًّا منهن أن هذا أحسن.

– أحسن من الشعور بالحنان... قد يقول هذا ذلك الكبير الملعون، الجانى فى كل هذا.. من هم الأطفال لديه ؟ لو مرضوا كثيرًا أحسن فأحسن. أليس كذلك ؟

تبدى هورتنسيا حركة استسلام :

– قد يكون معك الحق يا برونو، لكنــك لا تــستطيع تغييــر العالم... لست قاتلاً الطبيب ! سبق وأن فكرت فى ذلك.

لم يرفع صوته، ولكنه رن فى جد وعنف، حتى أن هورتنــسيا ارتجفت كما لو كانت قد رأت جثة. تضحك بعصبية.

ألا تصدقيننى ؟ – يسأل الرجل معاتبًا.

لا تتضايق، فأنت قادر على ذلك، لكنك لن تصلح شيئًا.

– أعرف ذلك. يأتون بآخر مثله؛ وفوق ذلك يفقدنى الطفل من جانبه. هذا هو ما ينجيه ذلك المأبون ذو السبال.

– ولا يمكنك أيضًا مشاجرة ابنيك؛ لأنك لن تــستطيع البقــاء معهما... افهم ذلك. لا تستطيع فعل أى شىء.

– هه، هذا ما سوف نرى.

الضحكة الجافة تجبر هورتنسيا على النظر إليه بعناية أكبــر. تكتشف وجهًا شبقًا، لوذعيًا وموقنًا. العينان الــصغيرتان شــرارتان ذكيتان بين الجفنين نصف المغمضين، ورسم التجاعيــد صــار مــن جلمود صخر.

– يستطاع، يستطاع – يكرر هذا الصوت القاطع – يــستطاع دائمًا إذا توفرت الإدارة.

تنقبض اليد فى بطء تحت يد هورتنسيا الموضــوعة فوقهــا، فتعبر عن كل الإرادة التى تملؤه.

- خذ حذرك... هما الأبوان، لهما سطوتهما على ابنهما كما نعلم.

- كان الألمان يحكمون أيضًا. كانوا الأسياد، أتذكرين ؟ كانت لهم الطائرات والدبابات. وماذا ؟ استطعنا. كان لنا الجبل والليل والشجاعة. فى الجبل كنا نغيب، وفى الليل نهجم عليهم كالذئاب... وبفضل الشجاعة حطمناهم.

الصوت الفاصل يضيف :

هذه هى الحقيقة. النهار للذين يحكمون. نعم ! ولكن الليل لنا.

(٣٤)

فى الصمت الميت الذى يسود البيت، لا ساهر إلا الشيخ.

وفجأة يشعر سمعه المتنبه بخطوات صغيرة. يجلس فى الفراش. مفاجأة : الخطوات لا تبتعد نحو غرفة نوم الأبوين. يخرج الشيخ ساقيه من تحت اللحاف، ويأخذ البابوج بيدين مرتجتين : "مرحى يا بروناتينو ! طريقى هو طريقك !" يلبس الخف ويلقى بالدثار على كتفيه وينتظر.

وعلى الرغم من أن ظهور الطفل كان منتظرًا، فإنه قد أثار شفقته. لم يكن طفلاً صغيرًا فى فراشه الأبيض، بل كان ملاكًا صغيرًا من نور، فاتحًا ذراعيه كجناحين فى ذلك الليل. يسقط الشيخ

على ركبتيه، والطفل يستسلم للذراعين القويتين اللتين تضمان الجسم الصغير الدافئ ذا الرائحة العذبة.

"هل هي ساحرة تلك التي أنذرت أندريا بالخطر ؟" تظهر. تقترب من الشيخ الذي يراها، كما يرى الراعي الحدأة، وتستولي على الطفل.

- هذا لا يمكن أن يكون يا أبي - تقرر باستبداد - على الطفل أن يتعود.

- على ماذا ؟ ولماذا ؟ يحتج ثائرًا - ونادِني بجدي، يا للعنة !

لكن، أخذت هي الطفل وهو يئن، وها هي تعيد عليه ألواح قانون طب الأطفال. لو لم يكن للشيخ مخططه الجاهز، لقفز عليها. لكن في كل حرب، هناك ساعة للتمهل، كما أن هناك ساعة للهجوم.

يبقى في غرفته ودمه يغلي، بينما يسمع كيف يغلق باب المضجع. هكذا صرّ قبل أربعين عامًا، المفتاح الذي أغلقت به عليه الجستابو في ريميني.

"دفع الثمن بتروني. لقد وقع عليه اختيارهم. كان رجلاً ولم يُفشِ بشيء. وبفضل ذلك نجوت... كان يمكن أن يقع عليَّ الاختيار."

يستحضر الشيخ وهو يتذكر الصرخات والشتائم أولاً، والأنات والحشرجة في نهاية رفيقه المعذب من وراء الجدار الفاصل.

الصمت سائد فى البيت. ينتظر الشيخ مغتاظًا مما قد يحدث.

"لكن كنا رجالاً وكانت الحرب. أما هذا فمختلف.

لماذا ؟ لماذا يقولها مأبون من المؤكد أنــه لا يعــرف كيــف يحب؟ فما الأطفال لديه سوى تجارة، مجرد تجارة.

يرتج الشيخ على الرغم من أنه كان يشعر بمجيء أول صيحة للطفل السجين. يتخيل الطفل عاجزًا أمام قفل الباب الذى لا يلحقــه. الصرخة الأولى وهى كأول طلقة فى كمين تحل قيد جهنم. صرخات السجين الأولى، انفجارات الغضب، قبضات يد صغيرة تــدق علــى الخشب... حشرجة بترونى المسكين تحت الضربات الأولى أو تحت الحرق.

تشنج الصوت لا يعقل فى تلك الحنجرة الصغيرة الحريريــة، وهو عنف يائس من الرئتيْن الصغيرتيْن.

"أيستطيعان تركه هناك ؟ "يفكر الشيخ مغتاظًا فوق الفــراش، كما لو كان فوق آلة تعذيب. بوده سد أذنيْه، لكــن عليــه أن يبقــى منتبهًا. كان يفضل الهجوم، لكن عليــه أن يواصــل اليقظــة. يــداه المتشبثتان برأس أريكة السرير، تودان الالتحــام بالخــشب؛ كــى لا تتحولا إلى قبضتيْن مهاجمتيْن، فتمسكا بمقبض الموسى المصنوع من القرن.

الصيحات تكويه كالسياط، ولكنها تتلاشى لتصبح بكاءً متقطعًا، ويداه الصغيرتان صابرتان تقرعان الباب مفتوحتَيْن وهى فى غم ذاهل، أكثر منها فى غضب وفى ألم "لماذا ؟.." حتى صمت البيت المعادى ينسحب مغمومًا.

الشيخ فى غرفته ومنها قد يضع قنبلة، وقد يرمى بالمتفجرات، وقد يهدم ميلانو بأكملها. ولكنه لا يستطيع سوى أن يهمهم برسالة إلى الطفل ليشجعه : "اهدأ يا برونانتينو، ها أنا آتٍ ! لا تَصِحْ، فالصياح غير مُجْدٍ. ستبح فيحقنونك. اسكت ! اخدعهما حتى أستطيع المجىء. لا تتألم : أنا معك !"

لكن المسكين لا يزال يجهل حيل الحرب؛ فيهرق دمه فى المقاومة المواجهة، وها هو قد أصبح نشيجًا منهكًا، شكوى جندى، يأسًا... تنفجر أحيانًا صرخة أخرى، شكوى أخرى، لكن ما هى إلا حشرجة الاحتضار من بترونى، بين فترات سكون تزداد طولاً فى كل مرة.. حتى الانهزام، الصمت التام : فراغ عظيم يجعل من البيت هوة.

يبلغ عذاب الشيخ قمته فيتحول إلى ألم ذلك الصمت، الذى وإن كان منتظرًا فهو يمزق قلبه. يتعرى وقد تصبب عرقًا متخيلاً. الضحية مغلوبة، والطفل وحيد أكثر من أى وقت كان، بلا إيمان ولا حتى فى هذا الشيخ الذى وقع معه معاهدة، والتجأ إلى أحضانه قبل قليل، والذى خانه الآن... هل هو مطروح فى غيبوبة وراء

الباب؟... لعله فى يأسه يتخبط، كما يتخبط الأيل المحصور فيصطدم على غير هدى... من يدرى أنه بحث عن مخرج، لم يسند كرسيًّا إلى النافذة، ولم يتسلق ويفتح... مادونا ! (يا إلهى).

رؤيا هذا الخطر تعميه. ينسى الأبوين، ويستوى لديه كل شيء؛ فالوضع قد انفجر كالصاعق بهذا الباب المغلق. دقت ساعة الهجوم، فيتقدم الشيخ فى حذر لإنقاذ الأسير واستعادة أمل الحياة.

(٣٥)

أمام سيارة فاليريو الصغيرة، يقف الشيخ مندهشاً :

- سيارتك ؟ أتكون قد عدت إلى تشذيب الأشجار لحاجتك إلى المال ؟

- هى سيارة أبى وهى قديمة.

- وأنت المتمرد ؟ بضمان الأب طبعًا !

إن هؤلاء الناس يفاجئونه فى كل خطوة، بمن فيهم فاليريو. "ليسوا إيطاليين." - يفكر الشيخ - لو لم يكن قد وعد قبل عيد الميلاد... هذا الباب فى زنزانة الطفل قد أفقده الرغبة فى كل شيء، وهو، بعد هذا وذاك، غير مستعد للتسامح.

يدخلان الكلية من باب جانبى. ممرات ضيقة مكونة من حواجز وأبواب صغيرة بلافتات. يدخلان معمل الصوانة (علم

الأصوات الكلامية) ويحييان فتاة ترتدى طيلسانًا أبيض. "إنها تشبه سيمونيتا المظهر نفسه." – أهلاً يا فلافيا. انظرى، هذا السيد رونكونى الذى سيسجل.

– أتشرف بمعرفتك.

"حتى طريقة الكلام تذكرنى بسيمونيتا."

– ماذا تفعلون هنا ؟

– ندرس الصوت.

– آ، تعلمون الغناء ؟

"إن هذه الفتاة عجيبة لو صعدت على الركح."

–لا، نحلله – تضحك الفتاة – أتريد أن ترى صوتك؟

– هل الصوت يرى ؟

– نعم، فى مطياف الأصوات (سبكتروغراف) نحتاج إلى لحظة فقط. اجلس هنا من فضلك.

يضعانه أمام ميكروفون وشاشة مستديرة. تعالج الفتاة بعض المفاتيح؛ فتكتسى الشاشة لمعانًا. يُسْمَعُ أزيز خفيف، ثم يظهر خط أفقى يعبر الدائرة كخط الاستواء.

– قل أى شىء.

يزداد الشيخ ندمًا، لتعاهده مع هذه الملاعبات الميلانية. ليسوا جديين ! لا يستطيع تجنب احتجاجه التلقائى، فيرمى لهما بصيحة الرعاة فى الجبل.

– هبا ! هبًا...!

يندم. سيبدو أمامهما شخصًا عاديًّا، مع أنه رونكونى سالفاتورى. غير أن مفعول صوته كان أخاذًا : خط الاستواء على الشاشة يتعدد فى شكل ثعابين مرنة، وتموجات كالسياط. فاليريو يبتسم راضيًا :

– هل رأيت صوتك ؟

يأخذ الشيخ فى النهوض، ولكن الفتاة تمسكه.

عفوًا، أتسمح بالإعادة ؟ سأصورك.

"أيهزآن بى ؟ لكن سيمونيتا الجديدة هذه جدة صغيرة. إن كانت تبحث عن التسلية، فلنلعب جميعًا، ماذا يهم ذلك ؟!

– هبا، هبا. كفى ؟

– نعم، شكرًا جزيلاً.

هل هو مفيد ؟ – يسأل فاليريو.

جدًّا. صوته كأنه صوت رجل فى سن الخمسين – تلتفت الفتاة نحو الشيخ – وأنت عمرك يزيد على الستين فى ما أظن.

- سبعة وستون عامًا، وأصر على ذلك. سأموت قريبًا.

ينظران إليه مندهشين، لكن يقرران أخذ الأمر مزاحًا. مظهر آخر من مظاهر فتوة الشيخ.

- سأرسل لك صورة يا فاليريو؛ كي تبعث بها للسيد. تقول الفتاة وهي تودع بعد أن طلبت اسم الشيخ ومعلومات عنه لتضعها في ملفها.

- الأمر حقيقة إذن ؟ يسأل الشيخ في الممر : هل هو صوتي؟ وستظهر صورة ؟

- كما لو كانت صورة وجه، أم كنت يا سيدي تظن أننا نمزح؟

"عجيب هذا ! لي صوت رجل في الخمسين ! عندما يموت التيس وأعود إلى هناك، سأتركهم فاغري الأفواه لما أريهم الصورة في مقهى بيبو. لم يصور صوت أي منهم ولا حتى في كاتنزارو ! إنهم يجهلون كذلك أن الصوت يمكن تصويره !"

في هذه الأثناء، يعدّ فاليريو في مكتبه الصغير آلة التسجيل.

- لنبدأ، أتوافق ؟ قص علينا شيئًا؛ كي يسمعه غدًا الأستاذ بوونكنتوني.

- وماذا أقص ؟

- أية حكاية كالابرية... ما تتذكره.

غير أن رأس الشيخ الآن ليس به سوى حكاية هى نفسها لكل الليالى.

- ما قد يخطر على بالك - يلح فاليريو أمام هذا الصمت ويضغط على زر. يشرع الشريط فى المرور من عجلة إلى أخرى، فيشعر الشيخ بنفسه مضايقًا. فيم تفكر يا سيدى الآن بالذات ؟

- فى طفل صغير... طفل فى بئر، بل فى حبس.

أفلتت منه. يستعد. "كن حذرًا مع هؤلاء الناس. لا يمكن أن تقال لهم الحقيقة، فمن يدرى كيف يستعملونها بعد ذلك."

حسن جدًا. هل هى حكاية قديمة ؟ أين حبسوه ؟

-نعم، مر عليها وقت... كما لو كان فى كهف. ولم يكن طفلاً، بل صار شابًا لما وضعوه فيه وسدوا المدخل.

العجلات تدور ويلاحظ فاليريو فى الشيخ تغييرًا، تركيزًا، تتدفع الكلمات من دون تفكير، تطفح من فمه فى هذا الصوت الذى صغر عشرين عامًا... يرتاح الشيخ لإطلاق العنان للفكرة المتسلطة على عقله.

- حبسه والداه اللذان كانا صاحبى تلك الأراضى. لم يكونا شقيين، وكانا يحبان الأمير الجميل كالملاك. لكن لما ولد جاء مُنجِّم

وفتح الكتاب، وأعلن أنه عندما يكبر سيقتل أبويه، وتنتهى المملكة... فما عساهما يصنعان ؟ نذبحه ؟ أنلقى به فى البحر ؟ كان كل ذلك يؤلمهما فسدا عليه الكهف. وعلى مدى ثلاثة أيام وثلاث ليال...

("هى دائمًا ثلاثة أيام وثلاث ليال... أو سبعة أيامْ أوْ سبع مرات. يفكر فاليريو محتفظًا ذهنيًّا بهذه المادة لأطروحته حول المثابرة والأسطورة فى المتزو دجورنو (جنوب إيطاليا) ما هذا إلا بقاء أوديب وأبيه لايو !")

– سمع من الخارج. كان فى اليوم الأول يغنى هكذا.

يا والداى أخرجانى من هنا \ فانًا ابن حقيقى \ ولا أستحق هذه المعاملة \ مقابل الحب الذى أكنه لكما \

ترنمها الشيخ بلحن التزيا بانغوناتا نفسه، ولو أن الأبيات تذكرها من قصة أخرى، حكاية فتاة مفترى عليها وقد ألقيت فى بئر فاليريو العميقة.

فى اليوم الثانى كان يكتفى بالدعاء، وفى آخر اليوم الثالث لم يعد يسمع...

أخذت الملكة آنذاك تبكي، والملك يعانقها، وكلاهما يلقى التبعة على الآخر : "أنت الذى صممت"، كذب بل أنت..." أما الناس فقد أسفوا على الأمير، وأخذوا يزيلون الحجارة عن المدخل. ولما وصلوا إلى الطفل، أعنى الشاب، وجدوه ملقى على الأرض، جميلاً كالعادة،

ولكن بلا حياة... وخز له طبيب الملك إصبعًا، فلم يخـــرج منـــه دم وقالوا كلهم : لم يعد ثمة علاج...

"يا للثبات فى السرد – يفكر فاليريو – يتكلم كأنه نبـــى، إنـــه أسطورة حية. ستبتهج الدكتورة روسى.

إذ ذلك نزل من الجبل شيخ حسن جدًّا بعثنون أبيض وعــصا راعٍ. " أنا أنقذ الأمير." قال ذلك، ففهم الجميع أنه ساحر طيــب؛ لأن صوته كان صافيًا كالبلور. وهكــذا كـــان فبموســـاه ذات المقـــبض المصنوع من القرن، فتح فى عضد الشاب شريان القلب، وأسال مـــن حلاب له دفعة من سائل أحمر فوق الجرح، ظن النـــاس أنـــه نـــسغ بعض النباتات، ولكنه كان دمه نفسه... استعاد الأمير الحياة ونهــض أقوى من أى وقت مضى، وعانق أبويْه، ومضت فى الملـــك أعــوام كثيرة من دون أن يحدث شيء، لكنه بقى متذكرًا دائمًا، دائمًـــا شـــيخ الجبل الذى اختفى ما إن تم الإنقاذ.

يضغط فاليريو على زر فَيصدُر صرير وتتوقف العجلتان.

– أهكذا يحكونها فى كالابريا ؟

"أى حكاية، ولا حكاية ؟... إنها حقيقة كالكتب...! لكن حـــذارِ من هؤلاء الناس."

– طبعًا لماذا ؟

– إنه موضوع قديم جدًّا. لا شك أنه رواية عن أسطورة الربيع وبعث الطبيعة... إن المهم هو أن فى أساطير القدماء المعروفة امرأة، هى من يمنح الحياة.

لا هكذا بالتحديد. لكن كما قلت، فمن العادة أنها امرأة : عشتار تنقذ تموز الأخضر، إيزيس تعيد الحياة لأوزوريس، وأخريات شبيهات. إنها أسطورة شائعة جدًّا.

– ليكن ما يكون – يحتج الشيخ بشدة – لكن لا كلام عن امرأة. إنها كما أقصها أنا. شيخ ينزل من الجبل.

"رجل ورجل كامل – يعيد الشيخ لنفسه – سأكون أنا الذى يزيل الصخر من ذلك الباب، والذى سيخرجك لتحيا... كما فعل تورلونيو لدافيد لكن حيًّا : أنت لا أحد يطلق عليك الرشاش."

فى هذه الأثناء، يرجع فاليريو الشريط قليلاً إلى الوراء، ويضغط على زر آخر؛ كى يتأكد من التسجيل. صوت الشيخ يعيد كلماته الأخيرة.

متذكرًا دائمًا، دائمًا، شيخ الجبل الذى ما إن أتم الإنقاذ، حتى اختفى.

– لا أكثر ولا أقل. يقول الشيخ منتصرًا بصوته الشاب .

(٣٦)

سقط الثلج طول النهار، وبياضه الآن يقوى أشعة أنوار الشارع واللافتات، أشعة ينشرها ستار الضباب والدخان. المضجع مفعم بسنا خفى، وبصمت مطلق متحرر من الزمن، يُفخِّم لهاث الشيخ فى طنين يرافق أنفاس الطفل داخل المنطقة المرسومة بالمعاهدة السحرية. يحمل الشيخ الطفل على ذراعيه ملتفًا فى دثار. الرأس الصغير يغالبه النعاس، فيميل فوق كتف ناشز العظام، كتف الشيخ اليسرى، بينما يستريح ثقل الجسم الصغير على الذراع اليمنى. حمل ثمين جدًّا ! يشملهما الثلج من الخارج ببياضه الساطع، كما لو أراد حمايتهما : الذئاب لا تجرؤ فوق الثلج الحديث على السقوط؛ حيث ستترك أثرًا يفشى سرها. ينام الشيخ كل ليلة فى تيقظ؛ كى يتنفس عن قرب تلك الرائحة الخروفية. ولو من وراء الباب المغلق، توقظه خشخشة المهد الأولى إذا ماتقلب الطفل... بسرعة! لو يتأخر لحظة، سيصل بروناتينو إلى الحاجز الملعون، ويشرع فى المقاومة بالطريقة الوحيدة التى يعرفها وهى البكاء، أو الضرب على الخشب... يأتى الشيخ مسرعًا، ويفتح فى الوقت المناسب ليوقف الملاك الأبيض المقترب من المهد إلى الباب.

لا تواصل يا رفيقى الصغير. ممنوع المرور. عندما يمنع التقدم يجب التحصن. وهذا ما أتى بى. جئت لأحول سجنك إلى موقع

دفاعى لنا. نعم، أنت محاصر، ولكنى أتسلل إلى الداخل. أعرف كيف أتسرب. لقد أنجزت ذلك مرات كثيرة ! اسكت فالعدو له آذان."

يقترب سعيدًا من النافذة، والطفل فوق ذراعيْه، كما لـو كـان يعرض نصره على ميلانو بأكملها، أو كـان مقـدمًا الطفـل للـثلج الصديق. بعد ذلك يهزه حتى ينام، فيضعه فى مهده.

"أرأيت يا برونانتينو ؟ أنجزت ما وعدتك. ها أنا حارس، نـم حماك الله. انعم بالسلام. الخرفان الصغار المفزوعون يهدأون أيـضًا هكذا بمعانقتهم ومحادثتهم. وإن أنت..."

يسمع صرير مفصلة باب هناك فى غرفة النوم. يختفى الشيخ بسرعة تحت المنضدة التى يلبسون عليها الطفل، والمغطاة برداء من نسيج. يفتح الباب فيقتحم أحد المنطقة. يتعرف الشيخ من تحت النسيج إلى رجلى أندريا العاريتيْن فى خفها. تتجسس المـرأة بـلا حـراك كالظبية القلقة." من حسن الحظ أنى انقطعت عن التدخين.. وهـذه لا تعرف الشم."

تتقدم أندريا حتى المهد. لما رأى الشيخ قدميها تجـرأ علـى النظر. تنحنى مولية ظهرها، وتسوى غطاء الطفل بحركـات حـب جاعلة إياه فى وضعية مريحة أكثر. نعم، الحركات تنم عن أمومـة. يندهش الشيخ من وجوب اعترافه بهذا : "من كان يظن ذلك !"

ثلاثة أشخاص فى صمت تحت النور غير الـــواقعى آتٍ مـــن مدينة تحت الثلج. وأخيرًا تقبل أندرييا فى لطف وتذهب مغلقةً الباب. يعود الشيخ لسماع صرير المفصلة المتواطئة فيخـــرج من مخبئــه." من حسن الحـــظ أن المرأة لا يخطر عليها زيارتى فـــى غرفتـــى "، يفكر فرحًا.

يقترب من المهد ويجلس على الأرض. يعلو وجهه قليلاً حافة الفراش الصغير : وهكذا يريق أفكاره على جبين الطفل.

"لن تبقى وحدك بعد الآن يا طفلى برونايتينو. لك لياليَّ. عندى الكثير مما أقصه عليك، كل ما تود معرفته. كل مـــا قـضيت وقتًـــا طويلاً فى حفظه، فأنا بطـىء الفهم، بما فى ذلك ما تعلمته الآن معك. أنت تعلمنى، أنت ساحر، سويحر ؛ لأنـــك بـــرىء كـــذلك البـسيط بوربيلا: بلغ عامه الخامس والخمسين ولم يلمس امرأة، ولكنه ينظـــر إليك بهذه العيون الزرق فتتكهن؛ بما بـــك وتأخـــذ منـــك الأفكـــار والمضار، كما يؤخذ البيض من الدجاج... ستنام صحبة صوتى كمـــا لو كنت فى الظل قرب جدول، فلا نوم أحسن من ذلـــك. واســـمع ! أتعرف أنى أتكلم كالشاب ؟ فصوتى مثل صوتك تقريبًا لو تكلمت إلى الشاشة، وحركت كل تلك الثعابين المجنونة. آى، كم أكون مـــسرورًا لو سمعتك. كم أنا مشتاق لكلامك معى. من المؤكد أن صوتك مثـــل صوتى. أصوات رفيقة. أليس كذلك ؟... لهذا أقول لك أشـــياء تهـــم الرجال، لا تلك الحكايات التى اخترعهـــا لأولئـــك الأســـاتذة. هـــم

يحفظونها فى آلاتهم، أما أنت فإنك تسمعنى مثل السنجاب فوق غصن بعينين مثل أزرارك الصغيرة، من دون أن يستطيع فهمنا. لكن أنت تفهمنى وكلماتى تعشش فى صدرك. ستتذكرها فجأة يومًا ما. لن تذكر مصدرها وهى أنا، ومثلك أنت الآن تستخرج من باطنى منسيات كثيرة. تأتينى بدافيد، بدونكا وبشيوخ الرعاة. سأحكى لك أكثر عن دافيد وعن دونكا، فقط منحا من الحياة كثيرًا من دون أن أفهم ذلك، من دون أن أعرف كيف أكون سنجابًا. فأنا الآن أجتر تلك الحياة كما تجتر شياهى. أنت الذى تدفعنى، مُحَرِّكًا قلبى، والسنون أيضًا ترخى من حبلى. يتبدد الواحد كحزمة انحلت عقدتها فى بيدر. كما لو يراد دروسى وذرى؛ كى يخرج الحب منى. كما لو داسونى فى معصرة، كى أعطى نبيذى : هذا هو حصادى وأنت تفهمنى... سأقول لك الكثير كى تعرفه من جدك، فتأخذه أنت إلى حيث لا أصل. أريد أن أكون كل ما ينقصك، أبًا كان أو حتى أمًّا فى كل ليلة. نعم وحتى أمك. أرأيت ؟ متى كنت أفكر فى مثل هذه الأشياء ؟... لن تنام وحدك. أنا لم أنم قط وحدى، أسعدنى حظى. أنام الآن وحدى طبعًا؛ لأن الشيوخ يرافقهم تاريخهم. نعم، سعدت حظًّا. لما كنت طفلاً مع أمى فى الشتاء، وفى الصيف مع لمبرينو المسكين، وبعد ذلك داخل حلقة الرعاة أو مع الفتيان أو مع البقرات التى تراق فى دفء. بعد ذلك مع المقاومين... والنساء طبعًا ! آه، النساء يا بنى، تكون الواحدة بجانبك وحتى فى نومك تشعر بوجودها قربك، تشعر

بحرارتها وبشعرها وببشرتها – أى شىء هى المرأة؟ – ولو أنها خدعتك من بعد، أو أنت شبعت منها ؛ فقربها أعظم شىء... حظى ستناله أنت، سأتركه لك مع هذه الصرة فى حينه. أنت الآن تعيد الحياة لحظى، فيثلج معك قلبى، وتبعث ذكرياتى فيضطرم جشعى وشهوتى... إنه الحنان يا بنى، فلا تجدى الكلمات، لا توجد كلمات.

(٣٧)

ماذا عساه قد حدث لها ؟.. لا يمكن أن غاضبة لنقاشنا فى ذلك اليوم – يفكر الشيخ وهو سائر نحو شارع بورغوبيسو – لم أقل لها شيئًا يزعجها، لكن النساء لهن أحيانًا تصرفات لا تخطر على بال أحد..."

إنه لا يشك فى هورتنسيا وهى امرأة بحق، ولو أن لها تخيلات أنثوية. إنه لم يقابلها وهو فى حاجة إلى أن يقص عليها نجاحه، نجاح حيلته لإنقاذ الطفل. فالتعذيب قد انتهى ولو أنهما يواصلان سجنه، والزنزانة عادت لتصير مضجعنا. هزم الشيخ الوحدة وحضوره يلغى المنفى. وفى الصباح لما يضحك الطفل وتسميه أنونسياتا "جميلاً" يفكر الشيخ : "ذلك بفضلى..." حتى حسن مزاج أندرييا هو لى؛ لأنها تدعى أن الطفل تعود – فى النهاية – على النوم وحده، لكن هو أنا... إن ما يغضبنى هو أنه سيعوز هذا النجاح إلى رأى الدتورى الملعون."

إن الحيلة سائرة فى طريقها، وتعلم الطفل المناورة. فقد أفهمه إياها الشيخ وهو يحمله بين ذراعيْه ؛ إذ هى الوضعية التى يحسن الصغار فيها الفهم : "إذا جاءت أمك وأنت صاح واختبأت تحت المنضدة، لا تشر إلى بإصبعك الصغير !... أنت قادر على ذلك ؛ بحثًا عن الضحك، لكن لا تقم بهذا المكر. فنحن لا نلعب، نحن فى حرب وأنا مختفٍ، هل فهمت ؟ الاحتيال على العدو. لا تجوز الوشاية بالرفيق المقاوم أبدًا..."

إن الطفل ذكى جدًّا ؛ فيحسن متابعة اللعبة وهورتنسيا ستفرح: إنها القوة الاحتياطية، الصف الثانى. السيدة مادالينا تساعد هى أيضًا، لكنها ليست سوى التموين، ثم إن لها ما يكفيها فى حربها الخاصة. هورتنسيا هى الملجأ، هى... نعم، هذا هو، هى الجبل. لهذا يتجه الشيخ الآن إلى منزلها، ويدق الجرس من الشارع. لا جواب ولو أن الجرس يرن... هل تكون قد ذهبت إلى المدينة لحاجة ماسة ؟ إنها لا تخرج قط قبل هذه الساعة.

تفتح البوابة، وتظهر سيدة، فتنظر مرتابة إلى هذا القروى من الجنوب :

- عمن تبحث يا سيدى ؟

- عن السيدة هورتنسيا فى الشقة العليا إلى اليسار.

تظنه المرأة قريبًا جاء من نابولى فتتلطف :

آى، المسكينة ! إنها مريضة منذ أيام. ألا تعلم ذلــك؟... لقــد منعوها من الوقوف على ما أظن... لكن لا لا تبدو هذا الوجــه يــا رجل. لو كان هناك خطر لحملوها إلى المستشفى.. ادخل واصعد.

كم هو بطئ هذا المصعد الملعون...! وأخيرًا !

باب الشقة مفتوح. ما العمل ؟ يطرق فى لطــف فــلا يأتيــه جواب... أتكون وحدها ؟ وإذا ما أصابها مكروه فجأة؟ يقرر فيتقــدم فى الممر. يوقفه صوت مذعور : "من هناك؟" فيجيب ناطقًا اســمه. يتحول الذعر إلى صيحة، ولما يطل على الغرفة كان اللحاف غيــر المطوى لا يزال يتحرك، ومنه لا يبــرز ســوى وجــه هورتنــسيا المستورة حتى العنق :

- لا تدخل، لا تدخل يا ابن الكرام.

يتوقف الشيخ مرتبكًا.

- المعذرة. كان الباب مفتوحًا و...

لكن اخرج ! اتركنى !

يخطو الشيخ خطوة إلى الوراء، ويسأل مندهــشًا وهــو فــى الممر:

- أتريدين أن أذهب ؟

يأتى الجواب قافزًا.

– كيف تريدنى أن أحب ذهابك، يا أحمق، أكثر من أحمق – تقطع العبرات الكلمة.

حيرة الشيخ كلية. يا له من موقف ! أيدخل ؟ أينتظر فى غرفة الأكل ؟ لماذا تبكى ؟.. ملعونة النساء !

تستطيع الكلام على الرغم من الشهقات :

– ادخل، ادخل، لا تبق هناك ! – يطل الشيخ وهى تواصل – اعذرنى فأنا ضعيفة... ثم ما أشد حماقتكم أنتم الرجال. ألا ترى أنى بشعة ؟ كيف هو شعرى يا ترى ؟! – تبتسم ملمحة – لكن أنت لا تفزع منى، أليس كذلك ؟

تعيد هذه النهاية الأنثوية، وضع الرجل على أرضية صلبة.

يتقدم إلى الفراش متأثرًا وينظر إليها. تمسح هى دموعها بطرف اللحاف من دون أن تخرج يدها. يرى الشيخ منديلاً نظيفًا فوق المنضدة الصغيرة، فيمسكه من مخلبه ويقربه من الوجه المحاط بالشعر الأسود المنثور. هذا المخلب الذى سبق وأن تروض بالأزرار الصغيرة، يجفف ما بقى من دموع، والبسمة الأنثوية التى لا توصف، تجذب الشيخ من دون مقاومة، بينما المرأة تهمهم من دون كبير اعتقاد :

– يا برونو، يا برونو، قد يكون معديًا أن تقول هذا وهى معجبة بتلك الأسنان الذئبية بين الشفتيْن اللتيْن تكيفتا للملاطفة. عند

سماع التهديد، تحولت الشفاه الرجولية من طريقها إلى الجبين إلى الفم، وحطت برهة قصيرة. ثم استوى الشيخ وقال :

– هذا فى حالة أنه مُعْد.

يتبادلان النظر فى هدوء. يتفهمان بعد أن جلس الشيخ عند رأس السرير. مرضت فى اليوم التالى للقائهما بالمقهى، ولم تستطع ولا حتى المهاتفة. كيف يسير أمر الطفل ؟.. رائع ! يا للفرح.. الكبد... إنهم يختبرون كى يعلموا، إن هو التهاب الكبد. وفى هذه الأثناء، الراحة التامة... لكنها لا تشعر بأى ألم، ويمكن العلاج. ابنتها تأتيها بالطعام الموصوف. ضجر. الجارة المقابلة السيدة كميلة تأتى هى أيضًا من وقت إلى آخر ؛ فتقوم بجولة فى المنزل. إنها سيدة طيبة ولو أن ابنها جاء متهتكًا أخلاقيًّا، يتناول المخدرات وكل شيء...

الفطور أيضًا تحضره ابنتها، ولكنها تأخرت اليوم...

– لقد دقت العاشرة يا هورتنسيا ! يا له من إهمال !

– مسكينة هى. إنها تفعل الكثير مع كل ما لديها !

يهيج الشيخ مفكرًا أن كل الأبناء سواء. يسأل عما تتناوله، وبعد سماعه يتجه إلى الباب.

– انتظر يا رجل ! الأول بالأول ! انظر، هات لى ذلك، هناك فوق الكرسى.

"ذلك". إنه شيء أسمر اللون من نسيج مطرز وبه أشرطة. يضعه فوق طي أعلى اللحاف من دون أن تخرج يدها لأخذه.

– والآن ائتني من غرفة الاستحمام بالفرجون والأمشاط ومرآة صغيرة تجدها بالقرب.

يعود الشيخ ويترك الكل على المنضدة الصغيرة إلى جانب الأدوية، قارورة صغيرة للطيب. والآن ابتسامة مسلية من المرأة تحول كل الحركات إلى لعب أطفال.

– يمكنك الآن الذهاب إلى المطبخ وتصرف كيف استطعت... هذا إن عرفت كيف...

– الراعي يعالج دومًا أموره.

– آ، الراعي الجيد !... لكن لا تكسر لي شيئًا... وفوق كل شيء – تصيح في وجه الرجل – لا تدخل هنا إن لم أدعك !

لكن تدعوه للتو تقريبًا. يجدها ووجهها منقبض، وهي تجهد نفسها للجلوس في الفراش.

– ساعدني من فضلك... فأنا في حالة من الضعف..!

صوتها المتوسل يؤثر. ولا تتغطى ولا تفكر في إصلاح هيئتها. تسلم من دون احتياط ضعفها لتلك اليدين اللتين تنهضان بها في احترام، وتزيل الغطاء عن فتحة القميص لعيني الرجولة، وتهدي

الأذنيْن النهمتيْن تنهدًا ينم عن الفرح والراحة... يجس الرجل من خلال النسيج لحمًا ثماره ناضجة ومحمومة، ولكن، ما أدهشه هو أن كل ذلك لم يثره جنسيًّا، بل أثار فيه حنانًا عميقًا. ما الذى طرأ عليه؟ هو لم يعد ذلك الذى جاء إلى ميلانو. إنه يتأكد من ذلك كل يوم... هل هو يتقدم فى السن.. أم هى الدويبة ؟ إن يديه وهما تسندان المرأة تذكرانه بالمحاربين فى المتحف، ويزيد هذا فى حيرته : يسمونها "بياتا" (رأفة) فهو إذن "المادونا"(العذراء) أم أن هناك بياتا بين الرجال؟.. يضيع حيرة.

أألنت مستريحة هكذا ؟

كيف تصدر عنه هذه الكلمات هادئة، بينما تدور فى رأسه غرائب كثيرة ؟ برونو السابق لم يكن يتردد كثيرًا.

- جيدًا جدًّا يا برونو، شكرًا.

تأخذ مخلبًا بين يديها وتضغط عليه بطريقة تنتهى بحيرة الرجل، وما نجاته إلا فى الذهاب إلى المطبخ لإعداد الفطور.

لما جاءت الابنة وجدتهما يتحدثان. تنظر بدهشة إلى الشيخ وتؤنب الأم لجلوسها فى الفراش، ولكن بدت عليها الفرحة بعد حين؛ لعدم ضياع الوقت، وتذهب بعد تسجيل ما كلفت به.

يبقيان لوحدهما والشيخ يقضى صباحًا ساحرًا متذوقًا الأعمال التى يقوم لها بها، ومطيعًا أيضًا التعليمات التى يراها مهووسة مثل

إزالة الغبار عن قطعة أثاث نظيفة جدًّا كبقية المنزل. كأنــه يعتنــى بحفيده؛ لأن المرأة أيضًا بلا دفاع ومستــسلمة ليديْــه يقــوم حتــى بمرافقتها إلى الحمام لما تحتاج ذلك ويــدخل بعــد ذلــك؛ لأخــذها وإرجاعها إلى الفراش الذى نظمه هو فى هذه الأثنــاء. ولمــا رأت السرير مفروشًا قالت :

وهذا أيضًا يا برونو ؟... يا لك من رجل !

"كيف ؟ أهذه هى الرجولة ؟ – يقول الشيخ لنفسه وهــو فــى طريقه إلى بيته بعد أن رفضت بقاءه لمرافقتهــا. لكــن مــا أعظــم الاعتناء هكذا بأحد ! النساء سعيدات الحظ.. طيب، فى هذا لا غيــر. أفهم الآن دونكا وهى تعالج جرحى وتخــدمنى، وأنــا عــاجز عــن المشى!... دونكا مخالفة كثيرًا وشبيهة بهذه !... لماذا لم أقم بــأكثر مما فعلت فى مجال العناية هذه ؟... ومن أين لى أن أعرفــه إن لــم يعلمنى أحد ؟ فقد كبرت بفضل اللكمات ضد كل شىء ؟... لا يفوت الأوان أبدًا، أليس كذلك يا روسكا؟... لقد بدأت مع برونــاتينو الــذى أتانى، زيادة على ذلك، بهورتنسيا...، فكرى يا روسكا فى الطفل من فضلك، فهو لا يزال يحتاج إلىَّ. لا تتعجلى، أسمعت؟.. لا تجزعــى الطبيب غدًا."

(٣٨)

– السيدة رونكونى، من فضلك.

الممرضة نفسها. الفحص يبدأ كالمرة الأولى. تعين عليه فى الصباح تجرع الحساء أمام عينى بروناتينو المندهشتيْن وصراخه، مطالبًا بفنجان آخر له هو أيضًا. يذهب الشيخ مسلحًا بالصبر ؛ كى يسلم نفسه لدورة الفحوص نفسها ولكنه مخطىء : فالشبه بالفحص الأول ينتهى لما يعبر باب القاعة الصغيرة. كان فى انتظاره بالجانب الآخر الأستاذ دالانوتى بنفسه، مادًّا له يده.

– كيف الحال أيها الصديق رونكونى ؟ كيف تجد نفسك ؟

يفاجأ الشيخ حتى كاد أن لا يفلح فى الرد على المجاملة.

تعال من هنا. سنزعجك أقل من المرة الأخرى. فالأمر مقتصر فقط على معرفة سير مشكلتك – يبتسم الأستاذ – الدويبة، كما قلت لى، أليس كذلك ؟ كيف تسميها؟

– روسكا يا أستاذ، روسكا – يبتسم الشيخ أيضًا – إنها تزداد سمنًا على ما أظن.

هو ذاك، روسكا. سنراها الآن. اخلع ثيابك هنا.

يقاد الشيخ وقد ارتدى الطيلسان الأخضر، إلى غرفة الأشعة؛ حيث كان الأستاذ يفحص الصور السابقة. يضع الشيخ فى الآلة ويفحصه ثم يهتف :

– آ، ها هى ! يتذكر احتلال كوزنسا. بالمناسبة، أتعرف عضو مجلس الشيوخ زامبرينى ؟

– الشيوعى ؟ لا ! أسمع عنه فقط.

– ومع هذا فهو يعرفك... طيب، انتهيت، سأراك بعد قليل.

ينسحب الأستاذ، ويلتقط مساعد الشيخ بعض الصور، ويرسله ليرتدى ثيابه.

– هذا كل ما فى الأمر ؟

– لا يحتاج الأستاذ إلى أكثر. بما أننا فحصناك جيدًا فى نوفمبر... هذه الأشياء لا تسير بسرعة كبيرة يا سيد روسكونى – يبتسم المساعد الشاب.

"أى نعم – يفكر الشيخ وهو يلبس ثيابه لامسًا صرته الصغيرة المدلاة فى عنقه – وإلا، فلم يفحصوننى؟ ذلك التيس الذى لم يمت بعد، مادونا مييا (عذرائى) !"

لا يقودونه هذه المرة إلى المكتب الكبير، بل إلى آخر صغير، به منضدة جلس إليها الأستاذ. يحتل الشيخ أمامه الكرسى الوحيد المعد. يدهشه أن يرى أن المصباح ذا الحامل المرن العادى، يكاد يكون مصباح طالب. يبتسم له الأستاذ :

– هو ذاك أيها الصديق رونكونى، الشيخ زمبرينى يعرفك. هو صديق حميم ولو أنى لست شيوعيًّا، ولا أهتم بالسياسة. أنت أيضًا تعرفه فقد قاومتما معًا فى كوزنتزا.

– لا أرى من هو ! مع أنى أتذكر كل شىء عـن الأوقـات الطيبة.

– الأمر هو أنه كان يحمل اسمًا آخر هناك. كـانوا يدعونـه ماورو، وأنت برونو، أليس كذلك ؟

بريق يلمع فى ذهن الشيخ.

– ماورو ؟ كان يقود فرقة سيلا الكبرى فى جبـل سـوربيلو وبحيرة آفو !... قل لى يا أستاذ، كيف عرفت اسمى فى المقاومـة ؟ كيف وصلت إلى التوفيق بينى وبينه؟

– قبل أسبوع، جاء زمبرينى إلى ميلانو وبينما نحن نتذكر معًا بعض الأشياء حدثنى عن كوزنتزا. فقلت له إن أحدًا مـن مرضـاى يحمل حتى الآن فى جسمه رصاصة، ووصفتك له فعرفك. "لابـد أن يكون برونو !" وقال إنه يود مقابلتك فى زيارة أخرى لميلانو.

كيف لا ؟ وأنا أيضًا... إذن زمبرينى هو ماورو.. كان رجلاً من القلائل يا أستاذ !

– ولا يزال كذلك بفضلك أنت. يبدو أنه لو لم تصل فى الوقت المناسب لشووه. هكذا قالها : "يشووننا."

– فعلاً ويستطيع قوله ! – يضحك الشيخ بصراحة – لقد اسـتلم الألمان قاذفات اللهب فكانوا يحرقوننا أحياء. لكن فاجـأتهم فرقتـى؛ فاغتصبنا منهم اثنتين وحرقناهما نحن بها. ثم ألقينا بالقاذفتين فى نهر

كراتى. لم تكن لدينا ذخيرة من ذلك الوقود. يا للأسف، إنه اختـراع عظيم !... كنا نقاوم بلا شىء، بما كنا نفتكه... مرحى، مرحـى يـا ماورو ! يقال إنه محكوم عليه بالإيقاف، ولا تزال الأحكـام معلقـة، ولو أنه صار سياسيًّا كالكل.

– قص على زمبرينى بعض بطولاتك – يرفض الشيخ كلمـة "بطولة" بحركة من يده – فأرجوك أن تعتبرنى صديقًا، وانسَ خطابى فى اليوم الأول. صدقنى، ليس كل المرضى فى شجاعتك. فمعظمهم فى حاجة إلى تلك الكلمات. إذن، هل نسى كل شىء ؟

– أنا نسيتها بعد. وبما أنك صديق ماورو فقد نسيتها أكثر.

وشىء آخر. أنا لم أكن راعيًا، بل جدى.

– أين ؟ – يسأل الشيخ مهتمًّا جدًّا.

– فى الشمال، فى جبال الدولوميت أنظر إليه فـى الـصورة الوحيدة التى أحتفظ بها.

الصورة معلقة فى الجدار وقد بهـت لونهـا. عينـا الحفيـد الفاتحتان نفسهما. له سبال ويرتدى زى أهل جبال الألب فى الحـرب الأولى، رشيق وبقبعة ناتئة ذات ريشة منتصبة.

– كما ترى، لنا أشياء مشتركة أيها الصديق رونكونى.

– إذن تفضل علىَّ بما لم تتفضل به فى المرة السابقة.. قل لى كم سأبقى ؟ هل رأيت اليوم شيئًا جديدًا ؟

- لا، الروسكا تتابع سيرها، ولكنك تقاوم مقاومة جيدة. وقد أجبتك بأنه يستحيل تأكيد أى شىء. فغيرك وبمثل ما عندك يكون قد انتهى. لكنك من حديد من حسن الحظ.

- هات حدًّا أقصى ! أريد معرفة ذلك.

- إذن سألقى عليك بعض الأسئلة.

يسأل الأستاذ الشيخ بدقة حول أحاسيسه وأوجاعه وتفاعلاته، مع بعض المأكولات وغائطه وبوله، مصيبًا بدقة كبيرة جعلت الشيخ يصيح فى النهاية :

- أهنئك يا أستاذ. أنت تتكلم كما لو أحسسته بنفسك.

يثبت الأستاذ فيه النظر. نور المصباح لا يصل إلا إلى ذقنه، ولكن تبرز فى الظلمة عيناه بضيائهما الأزرق. يجيب فى تؤدة:

- لا تهنئنى أيها الصديق العزيز. أنا أشكو مما تشكوه أنت.

لم يكن الشيخ ينتظر هذا. يحزنه ذلك ربما أكثر من حزنه على نفسه.

- لكن - يحتج - أنت لا تزال شابًّا.

يرفع الأستاذ كتفيْه... الشيخ يلاحظ بقايا سجائر فى المنفضة :

- ومع هذا تدخن ؟

يعيد الأستاذ حركته.

– كـأنك ترغـب فى التدخـين... لكننـا – نحـن الأطبـاء – علينا منعه.

– لا، تركت التدخين من أجل حفيدى.

يوافق الأستاذ برأسه ويتحدث فى حزن.

– ابنى له ستة عشر عامًا.

يسكتان منتبهيْن إلى السكون، كما لو أن حضورًا غير مرئـى سيقول آخر كلمة.

– لم أسمع حتى الآن الحد الأقصى يا أستاذ.. يلح الشيخ فـى النهاية.

– سأقوله؛ لك لأنك جدير بذلك ولكن من دون تأكيد: تسعة أو عشرة أشهر. لا أظن بلوغ العام.. ولا تسألنى عن الحد الأدنـى؛ لأن ذلك صفر ! لك ولى ولأى كان.

– تسعة أو عشرة أشهر ! – يبتهج الشيخ – أنت تعطينى يـا أستاذ الصيف بأكمله !.. شكرًا يا أستاذ، كفانى هذا !

– كى تأتى على ذلك الجار المشلول ؟ – يبتسم الطبيب بمكر – كيف حاله ؟

– فى أسوأ حال ! أريد أن أقول – يضحك الشيخ – فى تقدم، لكن ليس هذا وحده غرضى، بل هو حاجتى إلـى سـماع حفيـدى

يدعونى "تونو" كما نقول نحن هناك، وأريد أن آخذه هذا الصيف إلى روكاسيرا ؛ ليرى منزله وقريته وأرضه.

يبتسم الأستاذ فيكتشف الشيخ فجأة فى دالانونى ابتسامة السيد غايتانو طبيب كاتنزارو نفسها، إذا تكلم إلى الناس. لكن هذا تنقصه السيجارة الملتصقة بالشفة. وأما الابتسامة فهى نفسها : شجاعة ومتألمة وإنسانية بلا حدود.

(٣٩)

أنام الشيخ الطفل وجلس فى مقعده الصلب أمام النافذة. يرن جرس الهاتف فتأخذه أندرييا :

يا أبى، بل جدى، هذه روزتا.

هل لمعت عينا أندرييا بعد أن تحدثت قليلاً ؟ "إذا كان ذلك !" يفكر الشيخ وهو متجه إلى جهاز الهاتف. وكان ذلك فعلاً.

– أحقًا ؟ متى يدفنونه ؟

يسمع من دون سماع. يأتى ذلك الصوت البعيد إلى أذنه قاصًا عليه ما قد سبق وأن حدث فى تمنياته منذ زمن بعيد... منطاد ينفجر فى صدره، ولكن يضع السماعة بحركة آلية. من دون أن يشعر، جاء ريناتو وأندرييا إلى جانبه. ينظر إليهما :

– انفجر – ينطق ببطء – مات، تهشم.

يندهش الابنان من عدم اكتراثه. هو أيضًا يستغرب؛ لأن الأمر تمناه بحرص يبدو فجأة كذكرى أمر منسى، ويشعر فى الوقت نفسه بفراغ كما لو سُرِقَ منه شيء.

يمشى مفكرًا حتى غرفته، ومن دون أن يشعل النور يرتمى على سريره، يجذب الدثار إلى مستوى ذقنه منغمسًا فى رائحة تلك البقاع.. رائحة حياته كلها. ينتظر أمامه ولكنه لا يرى الجدار المقابل، بل الميدان تحت الشمس وأصدقاءه عند باب بيبو، أو فى صف تحت الواجهة. هناك سيارات كثيرة جاءت من كاتنزارو ومنها العربة الجنائزية،، أحسن واحدة هناك. يستمع إلى جوقة الموسيقى. كان يستطيع تخيل من. فى كساء المأتم، يتقدمون الجنازة، ومن يسيرون فيها. يسمع قرع النواقيس، ويحدوه الخيال حتى إلى رؤية الميت مرتجًا فى الصندوق عبر الشوارع المحفورة والثؤلول الأسود فى شحمة أذنه، التى كان عليه قطعها فى ذلك اليوم... يسأل نفسه : هل تركوا له تلك النظارات السوداء، نظارات الفاشستى...؟ يرى كل شيء كما لو كان هناك. وفى هذه الأثناء يجعله إيقاع تنفسه يتمتع بشهوة... يلمس صدره بيديْه وعضوه وفخذيْه "... شكرًا يا روسكا، أنت فتاة طيبة، شكرًا يا مادونا، سآتيك بشمعتك." يهمس... وعلى الرغم من أن الحياة أهدته الآن النصر العظيم، فإنه لا يمد يده كثيرًا للإمساك به... لا يفهم نفسه...

– من يفهم أباك ؟ – تعلق فى هذه الأثناء أندرييا وهما فى قاعة الجلوس وهى تكاد تكون ساخطة لصمت الشيخ – أتذكر فرحته لما أعلمته روزتا بأن الآخر ساءت حاله ؟ والآن كما ترى... ماذا يريد ؟ أسوف يحزن الآن؟

– لعله يفكر بأنه لاحق به قريبًا. يلاحظ ريناتو فى حزن : ماذا قال دالانوتى ذلك اليوم لما ذهبتما ؟

– سبق وأن قصصته عليك كله، فقفد قدر لأبيك عشرة أشهر وفرح هو بذلك كثيرًا... لم يفاتحه فى إجراء عملية لكن ذلك معى. إنه يحتفظ بهذه الورقة ولو أنه يشك فى جدواها. وعلى ذكر هذا – تضيف فخورة – كان الأستاذ معه فى غاية اللطف ورافقنا إلى الباب؛ فكونه زميلى بالجامعة له أهمية كبيرة.

تنسحب أندرييا إلى منضدتها ملحة على أنها لا تفهم الجد، وريناتو يتكهن أن لها آمالاً فى أن يعود الشيخ الآن إلى القرية ؛ كى يموت فى فراشه. لأنه لم ينسجم هذه المرة أيضًا فى ميلانو. فانسجامه أقل حتى من المرة الأولى للخلافات حول تربية الطفل. ومن حسن الحظ، أن أندرييا لم تعلم بالزيارات الليلية للغرفة الصغيرة، زيارات اكتشفها ريناتو صدفة. يؤسفه إخفاء ذلك عن زوجته، ويتذمر من أن الشيخ يسئ هكذا تربية الطفل. ولكن إذا كان سيحيى هذه المدة القصيرة، أين الضرر فى تركه ؟ ولو أن أندرييا لا تفهم ذلك، وهى تربى الطفل بدقة تامة. يتنهد ريناتو.

لما تترك أندريبا عملها، تذهب إلى المطبخ، يـذهب رينـاتو ليرى الشيخ. يجده مضطجعًا، والنور منطفئ دائمًا.

– ياجد، سنتعشى قريبًا.

– أنا قليل الشهية، اشرعا من دونى، سألحق بعد قليل.

– هل تشكو شيئًا يا سيدى ؟

– ماذا عساى أن أشكو ؟ أنا فى حالة جيدة.

كانا يتعشيان لما ظهر لهما وبيده زجاجة خمر. من المفروض أن أندريبا تجهل وجود هذا النبيذ الأحمر، ولكنهـا لا تقـول شـيئًا. يخرج الشيخ بعض الزيتونات.

– على نخب المتوفى، وصحة "الدتورى" الذى عالجه كما أمر الله. عاش "الدتورى". يشرب بنهم والجوزة فى عنقه النحيل، ترقص كما لو طفحت فوق السائل النازل عبر حلقه.

الابنان لا يقولان شيئًا. ماذا يقـولان لـه ؟ بعـد أن أفـرغ الزجاجة، نظر إليهما وصرَّح كما لو أصدر حكمًا :

قضية وحلت ولتحيا لإمارليتا المغـارا (الـساحرة) الطيبـة. أندريبا تنظر إليه مذهولة وتفكر: "إنى أعيش فى اللامعقـول". ومـن حسن الحظ جاء وقت الأخبار فى الإذاعة المرئية.

(٤٠)

يتحول الشيخ فى أعماق الفجر إلى الغرفة الصغيرة من دون انتظار خشخشة المهد. يتأمل الطفل فى ضوء ميلانو الملوث. فالثلج قد زال، جرفته خراطيم و البلدية وآلاتها. يغرق فى ترداداته، فتفاجئه رؤية الطفل مستيقظًا رافعًا فى صمت ذراعيْه. يأخذه ويجلس معه على الأرض، ضامًّا الدثار من الأمام كى يشمل الاثنيْن.

كما ترى يا بروناتينو، فالتيس قد مات ودفنوه هذا الصباح... وستعرف يومًا ما، ما "الدفن". أفرج فجدك كان الأقوى. ها أنا ذا حى، وأى حى !

قبل أن يغرق الطفل من جديد فى نومه، يرمى بذراعه الصغيرة حول العنق النحيل. ليونة اليد الصغيرة تؤثر فى الشيخ :

لا – لا تفزع يا طفلى الصغير ! أتظن أنى ذاهب وتاركك هنا؟ كيف يخطر على بالك مثل هذا ؟ سأغضب! كيف أتركك ؟ سيعودان إلى سجنك مع مخاوفك، تلك التى تقبض على الأعماق. مخاوف من المجهول : إنها أسوأ المخاوف... نم هانئًا يا فؤادى... نم فلى الكثير مما أريد قوله لك. وأنت أيضًا لك ما تقوله لى. قريبًا بأسرع ما يمكن. كم أنا مشتاق لسماعك.

يكبت تنهدًا عميقًا لا يكبح.

– سأقول لك الحقيقة، فأنا لا أريد خداعك. صحيح أنى فكرت فى الذهاب لما يموت هو... ما العمل؟ لا تعجبنى ميلانــوولا... ولا شىء.. ولكنى لم أكن أستطيع العودة، مادام الكانتانوتى جالسًا هنـــاك وشط الميدان... أنت لا تعرف حتى الآن ما الميدان. إن كل ما يهــم القرية يتقرر هناك... ثم إن عودتى ستكون يومًــا عظيمًــا جــدًّا ! أمبروزيو يطلق الشماريخ من أعلى المصلى، لما يرى ســيارتى قــد ظهرت فى العقبة، ولا يطلق الرصاص من رشاشته كى لا يأخــذها منه الدرك... لم يسلمها بل أخفاها، أتعرف ذلك ؟ لقد أحسن صــنعًا فقد حصل عليها بدمه. أنا أيضًا لى رشاشتى؛ لأنى ســلمت رشاشــة أخرى كى يتركونى فى سلام. سوف أريكها... سينتظروننى كلهم فى الميدان، وسيكون هناك جمهور أكبر من ذلك الذى كان عند دخــول العريف وجنوده الإنجليز.أنصارى يعــانقوننى ضــاحكين مــازحين. والآخرون يأكلهم الغيظ ويودون رميى بالعين. آه، لكن ســبقت أنــا فوضعت الكانتانوتى فى مكان أمين بواسطة مارليتا، وبهذه الــصرة التى ستصبح لك؛ فهى تحمينى. نعم، الجميع فى الميدان، القرية كلها؛ لأنى هناك ذو شأن، أتعرف ذلك ؟ لى شأن عظيم. ســترى عنــدما تقول : "كان جدى سالفاتورى رونكونى من روكاسيرا." سترى إذاك ما قيمة الاسم. وأنا صنعته لنفسى... مع أنى بلا أب، لكنى عرفــت من هو أبى، وقد اعتنى بى فى الجبل، لكن لم يقل ذلك أبــدًا. حتــى أمى لم تقله. وأب مثل هذا لا يُعد كذلك عند أطفال المدرســة. كــان علىَّ إسكاتهم رميًا بالحجارة، إلى أن عدلوا عن سبّى. لهذا صــيرت

نفسى خشنًا، وأريدك كذلك، رجلاً بحق، حفيد برونو سالفاتورى روكاسيرا.

يبدو له وكأن الطفل كبر؛ لسماعه هذه الكلمات.

"لقد فكرت فى الذهاب، أعترف لك بذلك. لكن الآن سأبقى، ولا يهمنى لو عدت إلى هناك فى صندوق، فالتيس لم يعد هناك ليراه... لا يكلفنى البقاء تعبًا ؛ فأنت روكاسيرا بالنسبة إلىَّ. وأنت عظامى ودم قلبى... أنت كل ذلك يا حملى والشيخ برونو لك. أين كان يمكن لى أن أذهب ؟ فالآن ولا الروسكا تبعدنى عنك. أرأيت؟... طيب، هى تستطيع. معذرة يا روسكا. ولكنها ليست فى عجلة، فقد قال الأستاذ ذلك، وهو يكاد يكون رفيقًا. ليته عالج الأطفال كى يعتنى بك. لكن واضح أنه ليس من أولئك البله. من أين له أن يكون أبله ؟!

صوت الشيخ يصير همسًا يكاد لا يسمع. "اسمع ! الحق والحقيقة يا طفلى أنى أبقى ؛ لأنى أحتاجك. فالآن أنهار من دونك... هو كذلك، أنا أدافع عنك ولكن أنت تدافع عنى، ومعًا سنربح حربنا، أقسم لك بذلك سيربحها الشيخ برونو مع رفيقه المقاوم : أنت بروناتينو، طفلى.

لو لم يكن الطفل غارقًا فى نومه؛ لشعر بخده المترع بالدموع التى انزلقت من خد من الجلد المتغضن.

(٤١)

"رأس قزم". هكذا يعرف الشيخ بالأستاذ بوونكونتونى؛ نظرًا إلى صلعته التى تلمع وسط هالة من خصلات بيض، ولخديه المستديرين وشفتيه الغليظتين. قد يبدو مضحكًا لو لم تكن عيناه تشعان ذكاء. بجانبه الدكتورة روسى بقامتها الطويلة، بلا صدر، وبشعر أشقر قصير جدًّا وبقصة. جلس عدد من الطلبة أمام مكاتبهم وفاليريو طبعًا أمام آلة التسجيل.

لم يكن الشيخ يتوقع أن الشاب سيدعوه؛ نظرًا إلى اهتمام الأستاذ به. فقصته التى سجلت والتى ارتجلها ملفقة ببعض من أخرى، أخجلته قليلاً بعد تسجيلها. لكن، "عجبًا، كانت العجلتان تدوران، وتدوران، ولم يكن من اللائق إهدار الشريط." ومع هذا فهم يريدون المواصلة، بما فى ذلك دفع ثلاثين ألف ليرة مقابل الحصة الواحدة، ويعتذرون عن عدم رفع العلاوة ؛ نظرًا إلى ضيق ميزانيتهم." ما أغرب هؤلاء الناس ! – فكر الشيخ لما هاتفه فاليرو – فالأمر يبدو كذبًا أنهم يقتاتون من مثل هذه التخيلات، بينما يموت آخرون عملاً وكدًّا !"

– يحييه الأستاذ : أتشرف. كان مهمًّا جدًّا ذلك التسجيل. لم أكن أعرف هذه الرواية من أسطورة تموز. أنا متأكد أنك ستحكى لنا أشياء أخرى كثيرة.

"لا، ليس قزمًا – يصحح الشيخ – إنه طفل إنهم أطفال ؛ ولهذا تعجبهم الحكايات."

– من أجل هذا أتيت... هل يهمكم المسلمون ؟ عندنا قلاع وكل شيء. لقد تركوا آثارًا.

– بكل تأكيد – يوافق الأستاذ – وكذلك البيزنطيون.

– ال... ماذا ؟ لا لم يكن لنا منه شيء.

– كاتنزارو كانت مدينة بيزنطية أيها الصديق رونكونى.

– القول ما قلت أنت... لكن لا يذكرهم أحد هناك. لعلنا لم نحاربهم كثيرًا كحربنا المسلمين.

بدأت الآلة تعمل، وأخذت العجلات العديمة الرحمة فى الدوران.

– حرب ؟ لأى سبب ؟

– لا حاجة إلى السبب. ففى تلك الأزمان كانوا مسلمين، ونحن مسيحيون. ألا يكفى هذا ؟

يلاحظ أن جمهوره لا يفهم فيشرح :

– هناك دومًا سبب إذا أراد المرء العراك، وكان علينا أن نريده... فكنا مثلاً نسرق لهم النساء، وهم يسرقونهن لنا، وهكذا، الحرب!... هه، لا يزلن يسرقن إلى اليوم – يتّمم فخورًا.

– إلى اليوم ؟ – تسأل الدكتورة وهى تسجل فى مذكرتها.

– لنرَ ! إذا لم يوافق الأبوان على الخطيب، يقوم هذا باختطافها، فيجبران على تزويجهما... فى بعض القرى السكابيلياتا.

– ماذا – يسأل بعضهم – يضحك الأستاذ فهو يعرف هذه العادة.

– عند الخروج من الكنيسة بعد الصلاة، يتقدم الشاب إلى الفتاة فيخلع لها خمارها من على رأسها، كاشفًا شعرها. فيجب طبعًا تزويجها من الشاب؛ لأنها هكذا انتهكت حرمتها، ولن يرضى بها أحد... إلا إذا قتلت عائلتها الشاب : هكذا. نعم، فبموته، تتم تسوية كل شيء.

يجرى نقاش قصير حول هذه العادة، وتعلق الدكتورة على بعض الأساطير التى تربط الشعر أو العثنون بالشرف. وتختم سائلة الشيخ إن كان اختطاف الفتاة يعد جريمة.

يزداد الشيخ اندهاشًا كل مرة :

– بل بالعكس، فالذى لا يأخذها لا يعد رجلاً. فالنساء وجدن لهذا: أنت تعرفين أن آباءهن يربونهن، ولكن لرجل آخر... أو ليس كذلك ؟

كانت الدكتورة على وشك الدخول فى جدال، ولكن الأستاذ يعيد طرح موضوع الحرب سائلاً إن كانت ثمة أسباب أخرى.

– أسباب كثيرة : الأراضى والرى والطواحين... المواشى مثلاً، كما كانت الحال مع موررودنترو.

– ماذا ؟

– هو راعٍ يقود ماعز مسلم إلى السوق، فدخلت الدابة زرع مسيحى؛ فاشتكى هذا إلى الأسقف.

– وهل كان المسلم يطيع الأسقف ؟

– طيب، كان الأساقفة آنذاك يخيفون؛ لاستطاعتهم الإدانة، لا كما هى الحال الآن؛ إذ لا اعتبار لهم... كان المسلم ينكر، والمسيحى يؤكد، والأسقف يسأل الراعى إن كانت الماعز قد دخلت الزرع أم لا . فأجاب الرجل : "كان مخطمها فى الداخل، وأكرعها خارج الزرع." لهذا أخذوا يسمونه "موررودنترو" (المخطم فى الداخل) وانتقل اللقب منه إلى أبنائه وإلى اليوم، يحيا اللقب فى روكاسيرا. حكم الأسقف بإعطاء المسيحى الماعز؛ لأن رأسها دخل الزرع، والغنم تعد بالرؤوس. وقبض طبعًا من المسيحى ثمن تعميد الماعز؛ لأنه لا يستطيع إبقاءها فى بيته قبل أن تكون مسيحية حقًا... تصرف قساوسة؛ فهم دومًا يبحثون عن كيفية الحصول على المال.

يشرع فى نقاش أكاديمى حول مثل هذا الحكم السليمانى، ويذكر أحدهم "الفابلييو" (أقاصيص منظومة) فى القرون الوسطى و"البانكاتنترا"، لكن الشيخ يقاطعهم :

مهلاً، فلم ينتهِ الأمر هناك. فقد أقسم المسلم على الانتقام. ومن ذلك الحين؛ أصبح المسلم والمسيحى فى حرب، فيهين أحدهما الآخر... قتل المسلم أفضل ما لدى المسيحى، وهى أنثى تجيد قنص الأرانب. لكن المسيحى اعتدى على شرف ابنة أخى المسلم، وقطع كذلك ذنب أحسن ضرو له؛ فلم يعد يجرى كثيرًا.

– كيف ذلك ؟ – يسأل أحدهم – لمجرد فقدان الذنب؟

– لذلك فقط – يؤكد الشيخ بحسم وباحتقار لجهل هؤلاء الحكماء : الضرو حيوان نبيل جدًّا، ومن دون ذنبه يشعر أنه نصف مخصى فيجبن... كالديك بلا نزق أتفهم؟

لا أحد يجرؤ على مناقشته. ويسأل واحد عن كيفية انتهاء تلك الحرب :

– ككل الحروب : بالموت. لما شاخ المسيحى أصيب بمرض، ففرح المسلم لذلك، فكان كل يوم يرى من أعلى برجه، وصحبة أهله، كيف يؤخذ المسيحى إلى الطبيب لعلاجه... آ، لكن تعافى المسيحى فى النهاية.

– كيف ؟

بدأ ملاك يظهر له كل ليلة... وهذا هو خطأ المسلمين؛ إذ لا ملائكة لهم. أما ملاك المسيحى فكان يعيد إليه قوته بزياراته. كان

ملاكًا صغيرًا، ويكفى أن يشم أو يلمس كى يشفى أيًّا كان... أما المسلم فلما رأى المسيحى فى أحسن حال، امتلكه الغيظ فأصابه بانفجار فمات... والمسيحى مات هو الآخر طبعًا، لكنه كان قبل ذلك سعيدًا جدًّا، فمن دون المسلم ومع الملاك، تلك قمة المجد والسعادة.

يشرع فى معالجة موضوع الملائكة لدى المسلمين والمسيحيين؛ فيلقى الأستاذ سؤالاً :

– لمس الملاك ؟ أهكذا قلت يا سيدى ؟ هل الملائكة من لحم ؟

يتأمل الشيخ القزم فى تسامح :

طبعًا ! فإن لم تكن من لحم فهى مكذوبة، أشباح من أولئك، أم لا؟ لها لحم وجسد مثلى ومثلك.. طيب، قد يكون لحمًا آخر، ولكن لها لحمًا ولهذا منها الإناث – يضيف الشيخ متذكرًا جسد دونكا.

– المعذرة يا سيد رونكونى. يتدخل طالب فائق متخرج فى معهد دينى : ليس للملائكة جنس.

يتضخم اندهاش الشيخ :

– غباوة ! من قال ذلك ؟

– الكتب المقدسة والبابا.

يطلق الشيخ ضحكة.

- وما الذى يعرفه البابا عن الجنس ؟ ثم كيف يمكن العيش من دون جنس ؟ إن كان لنا جنس - نحن البشر - فكيف لا يكون للملائكة، وهى أكثر ؟ أتظن أن الله يخلقهم معذبًا إياهم بحرمانهم من الإناث ؟ كم يخطر على بال البابا ! هذا - لا شك - يناسبه.

يفرح الشيخ كثيرًا لابتسامة الموافقة التى رآها لدى الدكتورة روسى، ولسماعه الأستاذ يذكر الطالب بأنهم ليسوا فى درس دينى، بل يجمعون معتقدات شعبية يعد السيد رونكونى بشأنها مرجعًا معترفًا به.

وهكذا يعود الشيخ إلى منزله فى سيارة فاليريو، وهو راضٍ ولو أنه يفكر كما كان يفعل عند ابتداء الحصة:

"هم كالأطفال ولكن، انظر كيف، فهم يعيشون عيشة حسنة بالقصص."

ويتلمس ثلاث ورقات مالية فى جيبه، فهى لا بأس بها أبدًا؛ فأهلاً بها دائمًا.

(٤٢)

- ادخل، ادخل، لقد يئست من قدومك. تستدعى هورتنسيا الشيخ إلى فراشها لما سمعته يدخل - وما هذا ؟ - تضيف ناظرة إلى باقة الزهور التى وضعتها على الصوان: هل عدت إلى إتيان الغباوات ؟

– هى اليوم هدية الجامعة، مصلحة التخيلات. يجيب الشيخ مجهدًا نفسه فى الكلام؛ لأنه أسرع فى سيره.

وجدها فى أحسن حال، ولكنها ليست بعد هورتنسيا المتفاخرة الرافلة، وهى من جهتها تلاحظه متعبًا ويداه ترتعشان قليلاً.

– ما الحكاية التى اخترعنها لهم هذه المرة ؟. تضحك المرأة وهى تفكر إن كان سينتبه إلى شعرها الذى سوته لها ابنتها.

– أنت جميلة جدًّا اليوم يا هورتنسيا، وقولى: هذا ليس حكاية... بخلاف ما كان بالجامعة. لكن دفعوا لى أجرًا لن تصدقيه ! ثلاثين ألف ليرة.

– وماذا فعلت مقابل ذلك ؟

لا شىء إنهم أغبياء... أقص عليهم ما يخطر ببالى فيسجلونه من دون أن يهملوا شيئًا، كما لو كان من كتاب أصول الدين... لو رأيتهم كيف يناقشون بعد ذلك فى جد بتلك الإيطالية، لغة المذياع ! فأنا لا أتكلم هكذا، يا للجهالة... كما قلت لك، هم أغبياء... أى واحد من قريتى يخدعهم.

– الحق هو أنك ملسن يا غشاش. تضحك ونجلس فى الفراش تاركة إياه يطرح على كتفيها خمارًا مدروزًا.

يضحك الشيخ مزهوًا، وهو ذاهب إلى المطبخ ويعـود منـه حاملاً زهرية بها ماء. يفك عقدة الباقة ويحاول وضع الأزهار، ولكنه يحرك رأسه غير راض على عمله.

هات يا رجل، هات... ولو أنك أجدت، مقارنة بما أنتم عليـه عادة، أنتم الرجال.

– تعلمت كثيرًا من عنايتي ببرونـاتينو... إن أزرار ثيابـه صغيرة جدًّا، وتعجبني العناية به. الآن عرفت كيف تتمتعن بهذا أنتن النساء... بلغ بي الأمر حدّ القيام بأشياء كنت أضحك مـن إتيانهـا ! تنظر إليه عرضًا، وهي تواصل ترتيب الأزهار في الزهرية وهـو ممسك بها.

تخجل لأنها أعمال نسائية، أليس كذلك ؟ كنت تفكر أن القيـام بها يحط من قيمتك.

– نحن نعيش منفصلين عنكن، أتعرفين ذلك ؟ يـسير الرجـل بعيدًا عن المرأة، ولو ناما على الفراش نفسه.

– انظر كيف صارت جميلة ! ضع الزهرية هناك، من فوق، هكذا. إنها أجمل باقة أهديتنيها !

يتردد الرجل.

– لم يصل الأمر إلى الإهمال... ولكن حقًّا لا نعرف إلا القليل عن حياة النساء... اللاتي عرفهن الواحد منا... يبتسم متبججًا.

– ذلك لأنك لم تعرفها يا غبى. تمتعت بها لا غير، ســطحيًّا، من علٍ.

– من علٍ حقًّا – يطلق قهقهة – أى وضع هو أحسن؟

– قليل الحياء !... لكن كان هناك الكثير الجدير بالتمتع، وأنت لا تشعر لا بوجوده. مثل الجميع. تعلم هذا: النساء يعجبنكم، ولكن لا يجلبن اهتمامكم. هكذا أنتم.

يفكر الرجل باحثًا فى ذكرياته :

هن أيضًا لا يفعلن شيئًا؛ كى يكن أكثــر مــن ذلــك، حــسب ظنى... واحدة فقط كان يعجبها لو أنى... نعم، واحدة..

– نعم – تحتد اللهجة – تلك المقاومة المحظوظة.

– دونكا، نعم. هى التى كانت تريد أن تغيرنى، أن تعمل على تكييفى... وانظرى، ربما تركتها من أجل ذلك... طيب، علــى أيــة حال، كانت الحرب ريحًا شديدة. كانت تحملنا جميعًا كلاً منــا إلــى ناحية... لكن دونكا كانت تريد...

– أن تقترب منها طبعًا.

يسكت الرجل معيرًا كل اهتمامه لكلمات هورتنسيا.

– وأنت هربت فزعًا... مسكين برونو، لقد أضعت الأحــسن والأجمل.

- من أين لك ذلك ؟ إن الأجمل قد تمتعت به كل وقت أردت.

ولكن الضحكة الفظة تقريبًا بدت له مغتصبة؛ فهى مجرد واقٍ دفاعى.

- نعم، لقد أضعته وتنتبه الآن لـــذلك !... طيـــب ! الأمـــور بنهايتها.

ينظر الشيخ إليها، فيطفو على فكره اكتشاف : ينتبه الآن، نعم، ولكن لأى شيء ؟ يدور ويدور فى ذهنه من دون أن يقبض عليه.

- فيم أنت تفكر ؟ - تضايقه هورتنسيا. يتنهد الرجل.

- لو عرفتك قبل الآن... تضحك المرأة، كى لا تفصح عــن موجة الحرارة التى سرت فى جسدها.

لم تكن لتنتبه إلىَّ، يا حلو. لم أكن قط أجلب الانتباه... لا تقــم بأية حركة، فهى الحقيقة... حتى أنى بكيت أحيانًا - يصبح صــوتها أكثر ودًّا - الخلاصة، اسكت وإلا كفيتنى بهروبك كما كان مع دونكا تلك.

- أهرب أنا ؟ إن معى الآن ما لم أكن أحلم بأكثر منه !

يرسم بأصابعه صليبًا فوق شفتيه، بينما صوته يتذبذب بعمــق جعل الصمت يفرض نفسه عليهما.

– يطل الرجل ليرى عبر النافذة، ثم يجلس على المقعد قـرب السرير.

– أنت متعب ! لأنك لا تنام من أجل الطفل...

– لم أنم قط كثيرًا. لست فى حاجة إلى النوم.

– خذ لك سنة، هيًا... كما فعلت فى اليوم الأول.

– إذا كان ذلك لا يهمك ؟

–لكن لا تنم جالسًا هناك يا غبى !... هنا؛ فالسرير عـريض جدًا.

تقع اليد الأنثوية فى المكان الشاغر من سرير الزوجين الكبير، ثم تصعد إلى طى الغطاء، وتشرع فى إنزاله.

يتخدر الرجل :

– فى فراشك ؟ أحسبتنى شيخًا إلى هذه الدرجة ؟

تضحك مستمتعة باستفزازه.

– هيًا يا رجل، أنا مريضة كما هى الحال.. هيا اضطجع ولو بثيابك. لو نمت فوق الغطاء لشعرت بالبرد..

يواصل الرجل تردده : لا يضع فى حسابه دخـول الفـراش صحبة أنثى، هكذا بلا شىء ! ذلك يشبه الطعن بالموسـى مـن دون إصابة... ولكنها تجد الحجة التى تجعله يذعن :

لا تخف، سبق وأن قلت لك إن التحاليل نتيجتها حسنة؛ فالـذى بى غير مُعْدٍ.

– ولو كان مُعْديًا، أنت تعرفين ! – يجيب بحزم عن التحدى، ويجلس ليخلع جواربه. ثم إن الدويبات، إن وجدت، أسممها أنا قبل أن تسممنى.

يقف ويشرع فى خلع سرواله موليًا ظهره، ويضيف باسمًا :

– لكن أنبهك، فأنا لحم شيخ يا هورتنسيا، لحم ناشف.

– يعجبنى القديد – تضحك – وهيا أنجز؛ فلن أرى شيئًا جديدًا.

يترك السروال ويتجه إلى الحمام. جواربه من صوف صنعت فى القرية، وكان يرتدى تبانًا مثل تبان توماسو، لا كذلك "السلِب" الذى يلبسه ختنه أى تلك "الفرعة" .

الركبتان الهزيلتان بعظامهما النائتة وشرايينها الخشنة توحيان بالشفقة.

– فى الأقل – يشرح عند عودته – لا أدخل الفراش بغبار الشارع على رجلى.

تشكر له المرأة ذلك. فغيره لم يكن ليفكر فى هذا. وأخيرًا يضطجع الرجل إلى جانبها، وشعره الكث الرمادى فوق الوسادة،

وعندما تجذب هى الغطاء حتى ذقنه، تشعر أصابعها بخشونة عثنونه؛ فترجع إلى الوراء، ويلاحظ هو ذلك.

مُذ تركت استعمال الموسى، ساءت نتيجة الحلاقة. لكن كانت تجرحنى. إن ثبات اليد قد...

– توماسو أيضًا كان يجرح نفسه فى النهاية (لكنه كان مدمن خمر) وكان يحزن كذلك. ثم تقول لنفسها : إن الرجال يريدون أن يكونوا دومًا ديكة... "لكن أية رفاهية هذه التى يمنحانها للرجال؟، وأى أمن هذا الذى نشعر به عند شم رائحته بجانبنا؟!"

هورتنسيا نصف مضطجعة على جنب، مستندة على مرفقها : هى فى حاجة إلى رؤيته ممددًا، ومشاهدته من علٍ.

تلمع فكرة أمام الشيخ :

– هكذا مثل الأتروريين! كانت هى مثلك تمامًا... وتبتسم مثلك الآن.

– الأتروريان ؟

إيطاليون من القدامى يبدون كأحياء وهم أموات. ترى كيف كانوا وهم أحياء قبل موتهم !

يبرز قليل من الحسد مع الكلمات الأخيرة، ولكن ينقشع بتأمل هورتنسيا : ذراعها العارية وصدرها الملتصق به...

"ما أجملها من حياة !" يتمتع الرجل وهو يشعر بهاتين العينين تلاطفانه... تتحرك يده نحوها من تحت اللحاف، ولكنها تجمد قبل لمسها لما أحست بدفء النسيج. هناك تتوقف كحاج أمام الهيكل الأخير، بينما يترك نفسه تهتز فوق أمواج هادئة من عبير أنثوى. جفونه، وهى تغمض شيئًا فشيئًا، تتحول إلى تعبير عن الغبطة.

بعد أن نام، تواصل المرأة العديمة الحراك تأمله فى حنان. ابتسامة طفلة وهى تكتشف الرجل. نظرة أم أمام الابن فى المهد. هدوء عاطفى لأنثى أترعها حبيبها.

(٤٣)

شىء لا يصدق، كيف يستطيع شىء صغير كهذا، القيام بكل هذا الإزعاج ! – تيأس آنونسياتا مبعدة بروناتينو عن صندوق القمامة.

فمُذ بدأ الطفل يجرى فى كامل البيت، لم يعد أحد يشعر بالاستقرار. لكن الشيخ يتيه سعادة. "هكذا يا طفلى، حرب– يفكر من لا يحارب ولا يتذكر !"

إن أكبر ضحية للمآثر الطفولية هى النظام المنزلى المفروض من آنونسياتا. فالطفل يقبض على كل ما يصل إليه، ثم يتركه فى أماكن بعيدة الاحتمال. ثم إنه يستطيع الآن تحريك أشياء كبيرة، وآخر اكتشافاته تحريك الكراسى. يتوجه بواحد إلى الممر بسرعة فائقة

بالنسبة إلى خطاه الصغيرة، وإذا ما سقط، يحتج بعض الوقت ببكائه الحانق، ولكنه يعود إلى متعة دفع الكرسى.

– جاء الخطر، الدبابة تتقدم ! – يصبح الجد وهو جالس فى وسط الممر – النقيب بروناتينو يسحق العدو ! إلى الأمام !

تتوقف الدبابة لاصطدامها بالشيخ، فيطلق النقيب صرخة مؤثرة، فيأخذ الشيخ فى الانسحاب، وهو يكاد يموت ضحكًا، بينما الدبابة تواصل تقدمها من دون رحمة حتى تبلغ جدار آخر الممر.

– يا إلهى ! أنت يا سيدى رونكونى طفل أكثر من هذا الصغير، لكن الشيخ لا يستمع إليها. والمساعدة تتساءل أحيانًا : من هو الأسوأ منهما ؟ فقبل حين، أمسك بروناتينو بسكين من المطبخ، وجعل يلعب بها. فلما انتبهت آنونسياتا لذلك، أطلقت صيحة فزع جعلت الشيخ يظهر بالباب فى قفزة واحدة، وكانت إذ ذاك قد جردت السكين مسببة بكاء الطفل.

– ابكِ، ابكِ، لكن لا لعب بهذا ! – تكرر المرأة.

– آ، حسن. هى سكين ؟ – علق الشيخ وقد اطمأن – هذا من خصائص الرجال يا سيدتى. فبدل أخذها منه، علميه كيفية استعمالها. لكن ماذا تعرفين أنت يا سيدتى!... انظر يا طفلى الصغير، من هنا تمسك، أترى ؟ هكذا حسنًا جدًّا. البقية تحز وتقطع وهى للطرف المقابل.أما لك فهذا، المقبض، مق – بض.

يضحك الطفل بالسكين في يده الصغيرة التـي قـبض عليهـا الشيخ بيده، وهو يطعن فى الهواء. هربت آنونسياتا مـستنكرة : لـن تنسى إخبار السيدة عندما تعود.

وهذا ما فعلته بعد فترة قصيرة، فأطلقت أندريا تنهدًا رافعـة عينيها إلى السماء راجية الصبر. ومن حسن حظ الشيخ أن سخط الأم لا يقع عليه؛ لأنه خرج منذ قليل على الرغم من أن نصف النهار قـد فات.

ألا يعتزم الغداء هنا ؟

هكذا قال... وتذكرها أنونسياتا قائلة : وليست هذه هى المـرة الأولى.

- أتعرفين أين يتناول الغداء ؟

آنونسياتا تجهل ذلك، وتبقى أندريا حائرة. لقد أصبح الـشيخ لغزًا فى المدة الأخيرة. يا رب، عسى ألا يقوده ذلك إلى فقدان عقله، يا لها، من مصيبة ! إن الأستاذ يؤكد أن هذا السرطان لا يؤثر علـى العقل، ولكن تنهار الشخصية في المرحلة الأخيرة... يا رب، يا رب! فمن المؤكد أن الشيخ يبدى خللاً أكثر فأكثر. فهو ينسى ما عليه فعله، ويبحث عن القبعة وهى فى يده.. "فماذا هو فاعل الآن فى الشارع فى عز الشتاء من دون واجبات ولا مال؛ لأن ما يرسلونه له من هنـاك يتأخر، وهو لا يقبل المعونة ؟ أو هو معه مال ؟ فبروناتينو يظهـر

فجأة بلعبة لم تشترها له أندريبا ولا ريناتو. هـي بـسيطة ولا شك، ولكنها تسلى الطفل إلى أن يحطمها إذن ؟ تبقى أندريبا حائرة.

عندما تذهب آنونسياتا، تلبس أندريبا طيلسانها، وتتهيأ للعمـل، مستغلة نوم الطفل. لكن يظهر أن اليوم مفعم بالمشكلات؛ لأن البـاب يطرق. تنهض وتذهب إلى الباب قبل أن يعاد دق الجرس. شاب غير معروف بابتسامة جذابة. تضم أندريبا على صدرها فى حركة تلقائية طيلسانها المربوط بحزام فقط.

- السيد رونكونى ؟ يسأل بصوت عذب.

- هو فى المصنع إلى الساعة الخامسة.

- لا، إنى أسأل عن الأب، السيد سالفاتورى.

"الجد ؟ ما الذى يريده منه هذا الشاب جمّ الأدب ؟"

- واعدته عند البوابة فى هذه الساعة، ولكنه لم ينزل... هـل ألمَّ به شىء ؟

إنه متغيب، لكن إذا كنتما على موعد، فهو لن يتأخر. تفـضل وانتظر قليلاً.

يدخل الزائر خالعًا تلك الكمة التى يلبسها الطلبة الآن كثيـرًا. شعره المجعد يجعل رأسه رأسًا رومانيًّا. إنه أصغر سنًّا مما بدا وهو بالباب. تشير له أندريبا إلى الأريكة فى قاعة الجلـوس الـصغيرة،

وتجلس على مقعد، ساترة ساقيْها بطرفى الطيلسان الطامحيْن إلى الانفصال.

يلاحظ الشاب المصباح الموقد والكتب المفتوحة فوق المنضدة.

– أرجوك يا سيدتى، واصلى عملك.

لكن أندريِيا نال منها الفضول مناله.

– لا، لا، هى دقائق، فحموى لم يتأخر. هل كنتما ستخرجان معًا؟

– سآخذه إلى الجامعة مثل الأيام الأخرى.

بالجامعة ؟ إنها آخر مكان بميلانو يخطر لها البحث فيه عن الشيخ. الجد فى الجامعة !

– هل تزاولان درسًا ما ؟

– إن السيد رونكونى يتعاون مع معهد الأستاذ بوونكونتوتى.

تنجح أندرييا فى إخفاء مشاعرها وحياد تعبيرات وجهها. بوونكوتتونى وما أدراك. المرجع الإيطالى فى علم أصول الأجناس البشرية. وبلا لف ولا دوران تسأل الشاب المبتسم، فيخبرها بكل سرور عن حصص التسجيل والمجادلات العلمية... إن السيد رونكونى أحد خيرة المتعاونين الذين مروا بالمعهد. فالدكتورة روسى على الأخص، مبهورة به...

"آ. ناتاليا ! – تفكر أندربيا التى تعرفها – سأسألها."

إن رواياته تفتح لنا آفاقًا جديدة لديمومة الأساطير في جبال سيلا التى لم تدرس إلا قليلاً حتى الآن، ولا تزال بها بقايا ذكريات قد انعدمت فى بقاع أخرى من كالابريا نفسها... أول أمس، مثلاً أعطانا رواية موحية، لا تعرف، عن أسطورة العذراء الأم في البحر المتوسط.

بقيت أندربيا ضالة. غير أن هذا القروى الذى يعيش فى بيتها يشرف معهد الأستاذ بوونكونتونى... حسنًا. فهى تعلم الآن، في الأقل، من أين يأتى ببعض المال وتتأثر وهى تعرف أنه يصرفه على ابنها. وعرفت أيضًا أين يقضى الوقت، فمن الواضح أنه لا يقضيه فى نادى العمر الثالث كما كانت تؤمل... لكنها لا تفهم حتى الآن أين يتغذى فى بعض الأيام. قد يكون فى بعض الحانات؛ حيث يقدمون إليه تلك القاذورات التى تعجبه وتضره... من يدرى، فقد يأكل عند الأسقف. فهى بعد معرفتها أنه فى الجامعة، باتت تنتظر منه كل مفاجأة. تبتسم لهذه الفكرة. تشعر أن الشاب يتأملها، وكي تتحاشى سوء فهم ابتسامتها، تعود فتضم طرفى طيلسانها، وتسوى وضعيتها على المقعد. تستعد لمواصلة الحديث لما يرن جرس باب الشقة. يطل الشيخ بحركة غاضبة تنقلب إلى ابتهاج عند رؤية الفتى.

- آه فاليريو ! أحسنت صنعًا بصعودك... اعذرنى، نسيت أن موعدنا اليوم... فذاكرتى هذه ! هيا بنا، هيا جريًا ! ما عساه يقول الأستاذ ؟ أسرع !

كان الشيخ كزوبعة. ترك أندربيا بكلامها معلقًا، وانتزع منها الطالب. وهذا الأخير لم يكد يجد وقتًا لمصافحة اليد التى مدتها له أندربيا، والانحناء عليها بعد تقديم نفسه :

- فرلينى فاليريو... تحت أقدامك يا سيدتى.

تشكر له أندربيا فى باطنها عدم لمس يدها بشفتيه؛ لأن ذلك لا يعجبها ولكن يسحرها احتكاك السبال... فرلينى، فرلينى... ألا يكون ابن رجل القانون الشهير ؟" تتذكر أندربيا التحقيق الصحفى الذى خصص مؤخرًا فى مجلة تعنى بالمجتمع للمنزل الممتاز الذى تملكه هذه العائلة إلى جانب البحيرة الكبرى (لاغو مادجيورى).

فى الطريق إلى الجامعة، يلزم الشيخ الصمت قلقًا لفقدانه الذاكرة. هل يخصمون له بعض الليرات لتأخره ؟ وفجأة يسمع فاليريو :

- جميلة كنتك.

- جميلة ؟ - يكرر الشيخ متعجبًا وملتفتًا فى الحال نحو الفتى أمام المقود.

– جذابة. نعم، وخفيفة الظل !

يسكت الشيخ. "وكان يبدو عاقلاً هذا الفتى."

يخلص فى ذهنه إلى قرار مؤداه أن يقص عليهم هراء أكثر من أى وقت مضى، هؤلاء أطفال الجامعة. "إنهم لا يفرقون ! ذاك جزاؤهم. فبقدر ما تكون الحكاية خيالية يكثر اهتمامهم بها ! إنهم بله، يكرر وهو يلاحظ هذا التعبير الحالم على وجه فاليريو.

(٤٤)

"انظر، انظر تلك السقوف. الشيء الوحيد الحسن فى هذا المنزل هو أنه مرتفع. إنى لا أستقر فى الأدوار السفلى." وقد تقول أنت : واضح يا جدى؛ لأنك جبلى. 'وأتشرف بذلك... بالمناسبة، متى ستدعونى "جدًا" ؟ تكثر من بررر وتكثر من أخخخ لكن لا سبيل إلى جددى، لا أسمع منك شيئًا، لدى شوق كبير لسماعك !... هو كذلك، تعلم كيف تنظر من عل، وخاصة مع الناس كى لا تصغر أبدًا... واضح أنى ابن جبل، فمن أنقذنى فى أثناء الحرب إن لم يكن هو ؟ جبلى "لافيمينا مورتا" (الأنثى الميتة)، وهى أم المقاومين، وهى الملجأ وقت الشدة. بعكسنا نحن، كان الخنازير الألمان يتحاشونه ! كانوا يحدقون فى منحدره وهم ينظرون فى خوف إلى أعلى. كانوا يعرفون أننا هناك ولكنهم لا يجرؤون على الصعود؛ فهم فى الجبل ضياع... وكذلك وسط هذا الضباب الملوث هنا دائمًا، وهو هناك

أبيض ويرقص الهوينا. إنهم لا يعرفون النظر من خلاله. كانوا يطلقون النار على الأشجار؛ ظنًّا منهم أنهم مقاومون، وهكذا نحسن نحن إصابتهم... فالضباب مثالى للهجوم المفاجئ... ألا تراه ؟ قلت لك ذلك : الضباب هنا ملوث فمُذ ظهوره، أنظر إليه... لكن أخذك النعاس ؟ لك حق فى ذلك فقد دقت ساعة التغيير، سأقوم بالحراسة. نم يا رفيقى."

يبتعد عن النافذة ويضع الطفل فى مهده. يجلس على الأرض مسندًا ظهره إلى الحائط.

"نم هانئًا فأنا حارس جيد ؟ تعجبنى الحراسة فهى تمكننى من التفكير. من دون صرف النظر طبعًا، ولكن بالتذكير وحسن الفهم. هكذا يأكل الماعز على مرتين. والآن كما ترى يعود إلى دافيد. لقد جاءنا تحت ضباب كهذا. كنت فى المقدمة، فسمعت وقع خطى. لم أطلق عليه النار من الرشاشة؛ لأنى أردت أخذه حيًّا. بقينا أولاً مندهشين : يا له من رجل فقد وجدنا وهو يجهل الدروب !ثم قال لنا إنه أضاع سبيله. لم يخجل من الاعتراف بذلك، إذ هكذا دافيد المسكين بعينيه الوديعتين الحزينتين... لماذا أقول دافيد المسكين ؟ من يعرف كيف يعيش الآخرون ؟ ألا ترى - يا رفيقى الصغير - أنى لست متأكدًا مما كنت متأكدًا منه. لم يحسن الإله صنع الأشياء، كان لزامًا أن نحيا مرات كثيرة كالأشجار التى تورق من جديد بعد عام جاف ردئ. أما نحن فربيع واحد فقط، فقط وإلى الحفرة... لهذا عليك

أن تحسن ظهور أغصانك من الآن. أنـــا ولـــدت فـــي جـــرل[1] ولا أشتكي؛ فقد وصلت إلى تغيير نفسي بنفسي، لكن كـــان بالإمكـــان أن أزهر أكثر..."

يركد تأمله عند هذه الكلمات الأخيرة.

"هو ذاك، الإزهار. كنت أظن ذلك خاصًّا بالنساء، وما الرجل إلا خشب كلما ازداد خشونة كان أحسن لكن، لم لا يكـــون زهـــرة ؟ دافيد كانت تعجبه الزهور. كان يقف في أثناء السير ليتأملها، وكـــان يمشي دائمًا سائلاً عن أسمائها. كنا نهزأ منه في الأول إلى أن رأينـــا معدنه الأصيل؛ فنال الاحترام. أنا على حق لست متأكدًا من بعـــض الأشياء، كما قلت لك. من أين لي أن أفكر بأن الرجل أيضًا يزهـــر؟! يا لها من مفاجآت ! يزهر مع المرأة طبعًا؛ فهي ربيعنا الحقيقي.

فإلى جانبها نتفتح ليلاً مثل (شب) الليل لمـــن أســـعده الحـــظ بلقائها. أنا وجدتها وهي التي أخذتني من ذقني وغرستني في فراشها : هناك كان نموي. هكذا كانت سلفينيا، تأخذ وتتـــرك الرجـــال كمـــا تريد. الوحيدة في كل البلدة التـــي أرادهـــا، حتـــى المـــاركيز، أراد إعطاءها منزلاً في كانتزارو، ولكنها احتقرته. كانت لها قوة الجبل : "أنا ملكة في طاحونتي – قالت له – فلن أهبط إلى مستوى ماركيزة." كانت تعتني وحدها بالطاحونة، سلفينيا هذه، وكانت حقًّا ملكة. ومـــن

---

(١)الجرل : هو الخشن من الأرض الكثيرة الحجارة.

أحسن معدن... كنت أسبح صحبتها فى المستنقع، أو أساعدها على وضع الحبوب فى قادوس الطاحونة، وكنا نأكل معًا. كم كان يظهر معدننا الملكى!... يا للأمسيات ويا لليالى ! كان قرع المنخل يطن طول النهار، وكذلك فرك الرحى فتهتز لذلك كل الشقة، فلا تتركنا يسمع أحدنا الآخر... ولما نقطع سيل الماء عند غروب الشمس، يا له من صمت. مادونا! كل شيء يستقر فى سكونه. المنزل، العالم، الطيور والضفادع فى سلمها، وأنا وهى فى متعتنا. كنا ننظر أحدنا إلى الآخر بشدة وقد ابيض جسدانا بغبار الدقيق؛ فنغرق فى الضحك ! كنا نشرب بعض الجرعات، ونعض على أى شيء، جبن أو تفاحة، أو لقانق وخبز. تصور، فقد كان يوجد من كل هذا ونتناوله فى الفراش. أو نقصد أولاً عرمة الأكياس؛ كى لا نصعد السلم. وإلى تبادل العض، فهكذا كانت سلفينيا.

يلمع برق آخر من الفهم فى ذاكرة الشيخ عند كبت نشيج.

"أعرف الآن لماذا أقص عليك كل هذا. فقد عرفت الآن فقط بأنها كانت من جلمود صخر، أكثر منها من خشب. كنت آنذاك لا أتروى. كنت أثب مسرورًا وكفى. هورتنسيا تفتح لى معك عينى يا بنى : تعلمانني من دون أن تبوحا لى به فأراه بنفسى. فهورتنسيا ليست صخرة بل أكثر ليونة، خشب من الصنف الجيد. لكن سلفينيا صخرة، الجبل بعينه. الآن أفهم ذلك، امرأة تمتص عظامك. وكما ترى، هى أنثى كاملة ولكنها لا تنجب. مثل النعجة العاقر... من

يدرى لعل شجاعتها نفسها كانت تستهلك لها قوتها. لا يهم ! هى التى دبرت زواجى من جدتك، وهكذا ترى أى حب أضمرته لى. مجنونة بى، تاركة الجميع من أجلى، ثم وضعتنى فى فـــراش روزا (وردة) لتجعل منى وريث التزيو (العم) مارتينو...

يتحرك الطفل، فيفرغ الشيخ منزلقًا فوق البساط؛ كـــى يقـــرب سمعه من الباب المغلق.

"ظننت أنك سمعت شيئًا، فسمعك دقيق كسمعى، لكن لا أحـــد آتٍ من هذا الدرب، وهو الدرب الوحيد للعدو.

إن وضعيتنا جيدة ويمكن تحسينها. كان دافيد يمد حبالاً علـــى وجه الأرض، ويشدها إلى قنبلة يدوية. فإذا انفجرت فهى علامة على قدوم الألمان. خطر لأمبرزيو فتح مخرج ثانٍ لكهف مندرانو، ومنـــه أفلتنا من قاذفات اللهب؛ لما خاننا ذلـــك المتـــسلل الفاشـــستى مـــن سانتينارو... قد يفكر أمبروزيو الآن أنى هربـــت، وأنـــى لا أعـــود لأموت فى موقعى... لا، لا تفزع يا بنـــى، لـــن أذهـــب. غيـــر أن أمبروزيو سيظن ذلك، بما أنى لا أراسل، وهو لا هاتف له!... لكـــن لن أتركك وحدك، ولا أذهب إلى روكاسيرا إلا معك. يا لدخولنا معًا. عليك أن تتعلم هناك سبيلنا لعبور الميدان. سبيل لا يرى ولكنه هناك. لعل أباك قد نسيه، ولكن عليك أن تعرفه؛ لأنه طريقك. وطـــأه كـــل أسلافك، وأسلافى لا يحسبون، لأنى عديم الأسلاف؛ إذا استثنينا أمى.

ولكن أنا الذى حصل لك على هذه السبيل بفضل سالفينيا التى زوجتنى من جدتك."

يسكت الشيخ ويعود إلى تدقيق السمع.

"كم من إنذار بالخطر هذه الليلة...! آ، نعم، السبيل : انظر، الميدان لا يعبر بأية طريقة. ليس الأمر سهلاً فى روكاسيرا. إنه صعب كتسللك فى الغاب وسط الأعداء. لكن بالعكس. لأن عبورك الميدان يجب أن يرى. السفلة وحدهم يلتصقون بالجدران. عليك أن تجبر الجميع على رؤيتك. تسألنى كيف ؟ جاخفا[١] بجسمك ورأسك عالٍ، والنظرة والذراعان كما لو كنت وحدك فى استعراض. هكذا ستعبر الميدان؛ لأنك أنت من أنت. وعلى الشيوخ فى مقهى بيبو وعلى النساء، وهن ينظرن من وراء ستار (فالمصونات لا يستطعن الوقوف فى الميدان) أن يقولوا : "واضح إنه حفيد سالفاتورى. "سيقولون ذلك؛ لأنك منذ اليوم الأول ستعبر معى من السبيل التى هى لك. من الوسط على يمين النبع، لا على الشمال أبدًا؛ فهى سبيل آل كانتانوتى ساكنى جهنم. أما نحن فنتبع سبيلنا التى ربحتها بفضل سالفينيا كما سبق وأن قلته لك. كانت جدتك روزا هائمة بى، وكنت آنذاك كبير الرعاة فى ضيعاتها. كنت أصعد الجبل على متن حصانى الذى يزهو المرء بركوبه، وقليل من الرعاة كانوا يركبون آنذاك.

---

(١) مفتخرًا.

لكن لم يكن يريدنى أبوها ختنًا له، ولا يريد طـردى؛ لأن دوابــه لا يحسن أحد رعايتها مثلى. ففى عمق المعرفة وحسن القيادة لا يفوقنى أحد... وهكذا كنا جميعًا فى انتظار المقدور. وآل كاتانوتى، اغتنامـا لهذا الانتظار يمنعون الماء عن مارتينو ساعات من الرى متسللين فى غابته من شجر القسطل، ويجسرون كذلك على السير فـى الـسبيل اليمنى. إن مارتينو شاخ ولا ابن له؛ إذ كان زيـر نـساء، فتـزوج متأخرًا، ولا يريدنى ختنًا له؛ لأنى لا أملك شيئًا. أمـا روزا فكانـت تخيِّب أمل الآخرين مصممِّة على الـزواج منـى، أو إلـى الـدير. ياللحماقة يا بنى، لكنها آراء نساء. وأنا كما كنت دومًـا أنجـز فـى ثبات. أمتطى حصانى وأصعد إلى المرعى، ومعى بندقيتى "اللوبارا" لمواجهة أى هلوث يخـرج إلـى، أو إلـى أى مـن آل كانتـانوتى يترصدنى؛ لأن خينارو كان راغبًا فى الحصول علـى روزا. هكـذا كان كل شىء فى الهواء، كما قلت لك، إلى أن كان يوم فُرض علـىَّ فيه النزول إلى الطاحونة، فرأيت سالفينيا وجههـا أبـيض ورقبتهـا بيضاء، وفى الوسط العينان السوداوان. رأتنى على متن الحـصان، فبادرت بمد ذراعيها لى... طيب، فقد قصصت عليك ذلك. عدت إلى هناك ليالى كثيرة وكانت هى، سالفينيا، التى رأت بوضوح؛ حيث لـم أرَ أنا. يا لها من امرأة ! أرأيت ؟ أتذكر بأنى قلته لك، ضباب ميلانو ملوث دائمًا، ها هو أمامك. لو رأيته فى الجبل، فهل كالصوف المتقن الحلج ذرتها الريح."

ينسحب الشيخ من النافذة متكدرًا.

"نعم، هى سالفينيا التى جعلت حظى مواتيًا". إنه مـــن حظـــك الزواج من روزا" كانت تردد على، وأنا فى غضبى كنت أظن أنهـــا قلقت منى، وكان الأمر عكس ذلك. ولأنها تحبنى كثيرًا، كانت تقـــول قولها، وأتردد على الطاحونة. فجدتك كانت جميلة، ولكن الحديقـــة لا أكثر من قطف أزهارها. أما سالفينيا... فذهول وإعـــصار ونـــسيان النفس... إلى أن أخذتنى من حيث أمسك دائمًا، فألقت لى بتحدٍّ وأنا لا أتراجع أبدًا أمام ذلك : "أتحداك لو عبرت الميدان بصحبتى فى إحدى الأمسيات. لكنك تهاب قول الناس. "تصور جوابى : الآن حالاً. كـــان سواء لدى ضياع روزا وكل شيء؛ لأنى فهمتُ بـــذلك متيقنًـــا مـــن ضياعها. ولكن سالفينيا تعرف أكثر منى عن العالم. فقد أعدت الأمر فى أكبر صورة، مساء يوم سبت، ساعة العودة من العمـــل ووقـــت الشاربين أمام باب بيبو، وأمام صف الرجال المنتظرين دورهم فـــى الحلاقة عند ألدو وحتى القسيس والمتدينات على سلم الكنيـــسة. هـــى الساعة الكبرى فى الميدان. إلى الأمام ! وظهرت صـــحبة ســـالفينيا. ولم تكتفِ بذلك، بل أمسكتنى من ذراعى. يا للفضيحة، هذا لا يكـــون إلا بين الأزواج. عبرنا بتؤدة من أطول سبيل، من ركن ريبيـــا إلـــى زاوية البلدية... يا له من استعراض يا بنى ! كما لو عزفت الأبواق! المتدينات ولين ظهورهن والرجال كالأصنام، جميعهم : الـــذين لـــم تقبلهم أبدًا، والذين تمتعت بهم ثم صرفتهم، فجميعهم، بـــنعم أو بـــلا،

يحملون سالفينيا فى أحشائهم. كان كل منا ينظر إلى الخلق، وكنت أفكر "الآن ينهار البرج بهذا الذى لم يشاهد من قبل." لكن ولا الناقوس.

أما الساعة فقد دقت السادسة، كما لو أنها تشير إلى مرورنا ! على مهل، كما قلت لك، وفى النهاية تجرأ بعضهم فحيَّانا لمجرد الارتباك ! يا لها من فعلة ! لا تزال تذكر..."

يرفع الشيخ يده إلى بطنه، وينظر حوله.

"أنت أيضًا يا روسكا ؟ أتستمعين إلىَّ ؟ من المؤكد أنك لا تفهمين. ولا بروناتينو طبعًا. أنتما تجهلان أن سالفينيا احترمت دومًا الميدان. من يوم أن ترملت وقد غرق زوجها فى الترعة، اتبعت هواها غير مبالية بأحد، ولكن محترمة الميدان؛ لأنه القرية والشعب. أو لعل ذلك بسبب الكنيسة؛ لأنها مهما كانت فخورة، فلا بد لها من تلك الآراء النسائية. فهى لا تذهب وحدها قط إلى هناك مساء، وكذلك لم تشأ الذهاب صحبة آخر. هو احترام أو من يدرى. لكنها صممت بصحبتى. "بصحبتك أعرِّى استى ونهدى للشمس وسط الميدان ورأسى عالٍ؛ لأنهم جميعًا أسوأ منى. أما هن فليس لأيةِ منهن ما لى. سترى كيف سيرفعك هذا إلى أعلى مستوى، وتتزوج من روزا. لا شىء يعادل عدم الاهتمام وقلة الاعتبار.." وهكذا كان. فالناس أخذوا ينظرون إلىَّ بطريقة أخرى، والتزييو مارتينو لاحظ أنى أستطيع

مواجهة آل كانتانوتى وروزا نفسها... تقاعس أولاً فى ما يخصنا؛ لأنه رآنى مع سالفينيا من خلال نافذته؛ فأدهشه ما رأى. عرفت ذلك فيما بعد. ثم قضى أيامًا باكيًا ومعدًّا جهاز ابنته لتدخل الدير. ولكن أباها متيقن من حاجته لى، وأنى قادر على إنقاذ السبيل عبر الميدان؛ فانتهى الأمر بتزويجنا... هذا ما فعلته سالفينيا. تصور أى حب حبها مع أنها تعشقنى !... واصلت الذهاب إلى الطاحونة، ولكنها أغلقت دائمًا الباب فى وجهى. أنا متأكد من أنها كانت تبكى وراء الباب. فهى من حجر كما قلت لك، صخرة، الجبل نفسه... ومن أجلها دخلت بعد ذلك المقاومة؛ لأنه لو لم يكن الأمر كذلك... ماذا كان يهمنى من الحرب ؟ الوطن يخص العسكريين الذين يأكلون من رزقه، والسياسة للأسياد؛ فهم أولاً فاشستيون مع موسولينى، وديمقراطيون بعد ذلك. لم أدخل المقاومة لكل ذلك. السبب هو أن الألمان قتلوا سالفينيا فى طاحونتها. نعم يا بنى، قتلوا تلك العظمة. وبأية طريقة يا بنى، بأية طريقة ! ببرود وهم أبشع من الوحوش. لم يكونوا رجالاً، ولا استحقوا أن تكون لهم أمهات. القتل جائز، ولكن ذلك لا. فأنا لا أستطيع رواية ذلك لنفس بريئة مثلك."

تخنقه الكلمة فى تفكيره، كالصوت فى حنجرته.

"فأصبحت مقاومًا من أجلها... طبعًا فلو توصلت إلى التعرف على أبناء العاهرة الذين عذبوها؛ لقتلتهم بأشنع مما فعلوا وعلى الدنيا السلام. لكن لم يعرف الفاعل. أى ألمانى يمكن أن يكون الجانى؟

العلاج الوحيد محاربتهم جميعًا. أتفهم ذلك ؟ القضاء علــى الجميــع وانضممت إلى المقاومة... الحقيقة هى أنى قضيت على عدد مــنهم، أكثر من الذين عذبوها، أكثر بكثير... هكذا قد تكون سالفينيا مسرورة بسالفاتورها؛ لأن الضحايا ليسوا هم الجناة، فمن أين لى أن أعــرفهم، ولكنى أنجزت... نعم، قد تكون مسرورة."

(٤٥)

ما أكبره الآن ! ما أجمله !

تعجُّب هورتنسيا يبعث فى الشيخ ذكرى ذلك الصباح، السيارة تلوثه وجريه تاركًا الطفل وحده والمرأة الحنون... لم تمضِ أربعــة أشهر، وهو يذكر ذلك كما لو كان من غابر الأيام.

إن هذا اليوم من أيام فبراير قد أصبح دافئًا؛ تظهر فيه السماء أحيانًا بزرقتها. الأشجار التى شذبها فاليريو تكاد تتفــتح براعمهــا. خرج الشيخ بالطفل، وجعل يتجول به فى الحديقة؛ إذ خطرت عليــه زيارة هورتنسيا ليقص عليها آخر مآثر بروناتينو : ففى الميدان واجه كلبًا أليفًا، يكاد يستحق أن يسمى كلبا. كان واحدًا من تلك الحيوانــات الصغيرة بدثار وجلجل تقوده امرأة عجوز، لكنه كان ينبح بفظاعــة، وهو ينظر إلى الطفل. ما أشد نباحه ! بروناتينو، بــدل أن يخــاف، ضرب برجله الأرض وبكل قواه، وأطلق صــراخًا جعــل الحيــوان يتقهقر ويحتمى تحت ربته.

خلافًا لذلك، فالآن وقد فتحت لهما هورتنسيا الباب يفقد الطفل جراته ويسند ظهره إلى ساقى الرجل. لكن لم يدم ارتيابه طويلاً. فقبل أن تمد له هورتنسيا ذراعيها، مدخلة السرور على الشيخ؛ لأنه رأى القارب الفضى مربوطًا على ذلك الصدر، نظر الطفل إلى الوراء نحو قرص الدرج المظلم، ثم قارنه بالنور فى زاوية الممر الداخلى، وأشار بسبابته نحو النور. يضحك الكبيران وترفع هورتنسيا بروناتينو فوق ذراعيها، متقدمة بالشيخ نحو القاعة. هناك تدهش لنمو الطفل، فتضيف إلى تعجبها الأول :

- أتذكر يا برونو أن ذراعه لم تكن إذاك تطوق عنقى ؟ أما الآن فانظر !

- وكيف لا أذكر !... لكن لا تبعنى نفسك. هذا أول يوم أراك فيه واقفة منذ مرضك.

- وقفت لأفتح لكما فقط. تجيب وهى واضعة الطفل على الأرض ومستقرة على الأريكة : أقضى اليوم جالسة هنا.

يجيل الطفل النظر فى الغرفة.

- هذا يحتاج إلى شغله بأى شىء، لكن فى بيت بلا أطفال - تتأمل هورتنسيا - آ، نعم، انظر يا برونو، افتح خزانتى وفى قعر الدرج الأسفل الكبير ستجد قطع الدومينو.

طوال مرض هورتنسيا، نفذ خلال زياراته، طلبــات مماثلــة، ولكن هذه الخزانة لا تزال تؤثر فيه على نحو ما كــان فــى المــرة الأولى لما فتحها ليبحث عن منديل. إنه يتذكر ذلك جيدًا. يوقفــه الآن أيضًا هذا الاستفزاز : الألوان المرحة والثياب التى تشير إلى الجــسد وفوق كل شيء، فوق كل شيء، الرائحة التــى توســع أنفــه. هــذه الخزانة ليست صندوقًا كبيرًا، بل هى أكثر من ذلك، أبوابها تفتح على غرفة سرية، على معبد للكنوز السرية. الأنــسجة المعلقــة تــذكره بالفجاج المفاجئة فى الجبل؛ حيث تنشر الشباك لصيد الحمام المطوق، وكالحمام يقع قلبــه فــى شــبكة هــذه الوعــود، أو هــذا الإفــشاء للخصوصيات. "كيف أن هذا لم يحدث لى قط ؟ - يفكر فبالنسبة إلى الخزانات المفتوحة فى غرف النوم فقد رأيت منها الكثير، ووصــلت إلى الاختفاء فيها عن الأمهات ! هى شبيهة بهذه تقريبًا، لكن لم أكــن لأهتم بها. ماذا يهمنى من الألبسة ؟ لتخلع الخرق وتلقــى بهــا إلــى الأرض !... ولتأتِ الأجساد، والبشرة إلــى يــدى!... والآن خلافًــا لذلك، ها أنا فاغر الفم أمام هذه الثياب.."

الدرج الأسفل. لما فتحه الآن لأول مرة، كانت الألفة الــسائدة فى وقعها كرؤية جسد عارٍ. لم يكن ذلك لما تــوحى بــه الجــوارب والألبسة الداخلية، بل هذا الاستسلام الأكثــر عمقًــا والمتمثــل فــى الذكريات. ولو أن الشيخ يجهل المعنى الحقيقى لهذا الظرف المملــوء بصور، أو قصة هذه الحلى الصغيرة فى علبتها؛ فهو يعرف أنه الآن

منغمس فى حياة هورتنسيا. وكابن مقرض[١]، تقبض يده وسط هـذه النعومة على فريستها.

بالنسبة إلى الطفل الجالس فوق البساط تحت المنضدة، يمثـل هذا الشلال من القطع البيضاء السوداء شؤبوبًا من الجواهر البراقـة. يشم إحداها ثم يعضها، ولما يجدها غير صالحة للأكل، يحركها كلها مسحورًا بصوت طقطقتها.

- كانت أسلى وماسو باللعب بهذا الدومينو فى أيامه الأخيرة - تشرح هورتنسيا.

"وتذكار كهذا تقدمه للطفل، يا لها من امرأة ! بأى حب تنظـر إلى الطفل ؟!..."

يكبت الشيخ تنهدًا : "لو لم تكن الملعونة روسكا تعضنى مـن أسفل إلى أسفل."

يجعله هذا يفكر فى شىء فيخرج بروناتينو من وكره.

- لا أظنك تبول على البساط - يشرح - هيا يا بنـى، دفقـة صغيرة.

يذهب به إلى الحمام، يفك له الكرات القابضة على جواربـه، ينزل سرواله ويسنده واقفًا. هورتنسيا مشت وراءه فى سكون وترمقه من دون أن يراها، وتعود إلى أريكتها قبل أن يعود الشيخ فخورًا :

---

(١) حيوان يصيد الجرذان والأرانب والعصافير.

- إنه يبول الآن مثل الرجال. اليس كذلك.

يا برونانتينو؟ إليه تدفقًا...

عاد الطفل إلى لعبه، ومضت فترة لا يسمع فيهـا إلا طقطقـة القطع.

- فيم تفكر يا برونو ؟

- لا أدرى... فى لا شىء.

- كذب، يا قليل الحياء، أنا أعرفك. أفرغ ما عندك.

يبتسم لشعوره بأنه اكتشف أمره، لما بلغنا سن المراهقـة كنـا نخرج من الحانة لنبول وراء المدرسة. كنا نعلم أن المعلمة تتجـسس علينا، فكنا نتركها ترى جيدًا أشياءنا... كانـت فـى طريقهـا إلـى النعاس، وكانت تحب اللهو ولكنها لا تجرؤ على معاشرة رجل. كان ذلك قبل الحرب. ثم إنها لا تصلح لمنزل فلاح؛ لأنها رقيقة جدًّا، بلا مال، وقبيحة فلا حل لها المسكينة.

- لم تكن تصلح، ولكن تركت لك الذكرى.

- لا، عندما رأيت الطفل الآن...

- كما لو كنت أنت المعلمة !

يتراجع المزاح البرىء فى الشيخ؛ لأن ذلك هو لب المـسألة. وتختلط أفكاره مرة أخرى. فمن ناحية، يحتاج الطفل إلى جدة، وعليه

أن يكونها، بالإضافة إلى أنه جد. ومن ناحية أخرى، تلك المعلمة بوسواسها تثير له هواجسه مع آخر عضات الروسكا في أسفل البطن.

تلاحظ هورتنسيا أن شيئًا أثر في الرجل.

-تقلقك الروسكا ؟ تؤلمك ؟

"إن هذه المرأة عرافة. يندهش مرة أخرى. من المستحيل إخفاء شيء عنها."

- أي ألم ؟، ولا ألم... لو لم يكن إلا ذلك...

لكن العينين أمامه تستحقان الحقيقة، تطالبان بها بأشد قوة من أي استنطاق. يقرر :

- اسمعي، سيكون من الأسوأ أن تظني بي الظنون؛ لأني قلت في فراشك من دون أن يحدث شيء... الأمر هو أن روسكا تطوف بداخلي نحو الأسفل؛ فلا أشعر برجولتي كاملة. ها قد قلت ما عليَّ قوله.

ينظر إليها متحديًا، وصوته مفعم بالشجاعة والتأثر ونظرة الشهوة تكمل الرسالة. هورتنسيا صامتة، وهذا أحسن. لكن لو استطاعت لقالت لهذا الرجل إن ذلك لا يمنع شيئًا، بل يجعله أكثر ودًّا... ستقول له ذلك من المستقبل.

قطع الدومينو تواصل طقطقتها بين يدى الطفل.

– أى نعم، هذا ما فى الأمر... وقد فكرت دائمًا، وأنا أنظر إلى الشيوخ، أنه لا فائدة فى الحياة هكذا، وخاصة بعد موت الكانتانوتى.

– يا للعجب ! لا تقل مثل هذه الأشياء !

– لا، لم يعد يراودنى هذا التفكير؛ لأنى لا أريد أن يبقى الطفل وحده مع القفل والجستابو. ما دام لا يستطيع الدفاع عن نفسه فأنا لها...

– حسنًا فعلت – وتضيف هورتنسيا فى عذوبة – وهل الطفل وحده يحتاجك يا غبى ؟

نقلص تلقائى على فم الشيخ... وبعد صمت تلوح ابتسامة سرعان ما تحولت إلى ابتهاج.

– آه لم أخبرك !.. هاتفتنى أمس روزيتا، وتقول بأن أبناء كانتانوتى يتخاصمون فيما بينهم وهو يقسمون الميراث. يعيش المرء ليرى. إن ما استطاعوا تحاشيه وهم يرشون الرومانيين المسؤولين عن الإصلاح الزراعى سيتكبدونه الآن بدعاويهم؛ إنهم لحمير... مهلاً، تحاشوه جزئيًا فأنا قد ضغطت على اللوالب من البلدية. لم تزل آنذاك الأوقات الطيبة، فأنقذت الربوات الجماعية لفائدة البلدة. كنا لا نزال نحكم آنذاك نحن المقاومين. لكن انتهى الأمر بقدوم السياسيين

فأزحت نفسى. ما الفائدة ؟... وانظرى الآن، سيسرق بعضهم بعضًا فيحصل عليه المحامون فيبيعونه.

– يحدث أخيرًا ما كان لزامًا أن يحدث. تعلق هورتنسيا ببساطة.

ومرة أخرى تجبر كلمات هذه المرأة الرجل على التفكير : ما الذى لا بد أن يحدث ؟...لكن لم يستطع ولا حتى الظن؛ لأن الحادث يطرأ : فبروناتينو حاول الوقوف ممسكًا بساق المنضدة؛ فصدم رأسه بأسفل اللوحة، فأخذ يبكى وهو يحك المكان المؤلم. تقفز هورتنسيا والجد ليتراجع ألمه.

(٤٦)

ينجح الشيخ باستمرار فى إدهاش علماء الأجناس البشرية بالمعهد ولكن هم أيضًا يدهشونه بمكاشفاتهم. فمن ذلك أن الروسكا مثلاً، التى تنهش جسمه ليست شيئًا جديدًا. لقد كان فى القديم من شكا العلة نفسها وأحدهم – الآن يعلم الشيخ ذلك – هو الرجل المربوط على صخرة؛ حيث تؤكل كبده لكن لم يكن يأكلها ابن مقرض بل نسر. وسريعًا ما يلتهمه !..." – يقول الشيخ مشفقًا. لكن يوضحون له أن النسر لا ينتهى من أكل الكبد.

"قد يكون النسر منحطًا أو لعله مريض. يفكر الشيخ شاكًّا في أن رجال الكتب هؤلاء قد رأوا مرة عنف النسر وهو يفترس أرنبًا بضربات منقاره، أو لعل ذلك الرجل، بروميثيوس، أو اسمًا كهذا، كان شخصًا شديدًا جدًّا، فعقابه كان لسرقته نار الآلهة وهذا كثير... آلهة تلك الأزمنة. فأولئك كانوا حقًّا آلهة لا هذا الذى يتحدث عنه القساوسة، والذى لا يُرَى له لُبٌّ من أية ناحية. كم كانوا يغتنمون ألوهيتهم ويتمتعون بالحياة، بالنساء فى الأخص. الشيخ يطلع على كل شيء..! لهذا فقصة النسر الذى أرسلوه ولا يلتهم الكبد فى ثلاث نقرات لا يصدقها، ولو كان الكبد كبد بروميثيوس: إن هذا شبيه بتلك المعجزات التى يحكيها القساوسة والتى لم يرها أحد؛ لأنها لا تؤتى إلا فى الأزمنة الغابرة. فإحدى المعجزات هى الآن موضوع تعليقات بالمعهد : تحكى عن إله لبس، كما يقال، وجه وجسم ملك ذاهب إلى الحرب؛ وذلك كى يضطجع ليلاً مع الملكة. فهذه المأثرة بالذات لا تثير حماسة الشيخ.

– هذا ليس صنع آلهة. اللطافة تكمن فى أن يغازل الواحد الفتاة بوجهه الحقيقى،، فيلعبان وهما يعتقدان أن كلاً منهما أحسن قرينٍ للآخر... وأرجو المعذرة يا سيدتى.

توجه الشيخ إلى الدكتورة روسى التى ابتسمت له :

– لا تعتذر يا صديقى سالفاتورى... أتسمح أن أدعوك سالفاتورى ؟ أنا أسمى ناتاليا... لا تعتذر، فالذى يدرس علم الأجناس

البشرية لا يفرغ من الحديث عن القرون. ثم – تتسع الابتسامة – إن الحق كله معك : فانتهاز امرأة بهذه الصفة وهى لا تدرى ليس عمل رجال.

أليس كذلك ؟ أليست هى الحقيقة ؟ يصرخ الشيخ مسرورًا.

"انظر من أين يأتى الحق – يفكر – فهذه الطويلـة النحيفـة، بالرغم من قلة نهديها، تفهم فى هذا الموضوع أكثر منهم."

– ثم إنى – يواصل – لا أرى الأمر واضحًا. إذا لبس الإلـه جسم الزوج، فالمتعة تكون لذلك الجسم، حسب ظنـى. إذن فمـن المتمتع ؟ الإله الموضوع فى الداخل أم لحم الزوج الذى يقوم بالعمل؟ فالإله لا يشعر بشىء ولا شك.

تطلق الدكتورة قهقهة موافقة، بينما الآخرون يتبادلون النظرات مبهوتين. "فهؤلاء العلماء إذن، لم يخطر لهم ولا حتى التفكير فى من ينال المتعة... إنها الأصل فى كل الموضوع !".

يعود الشيخ فينظر إلى الدكتورة متفهمًا نظرتهـا المتواطئـة. يدرك إذذاك أن ليس لها الكثير فى الصدر، لكن لها ساقيْن طـويلتيْن و حـيلتيْن! يا للعجب، ومتينة الفخـذين، كمـا تـصورهما التنـورة المشدودة نتيجة الوضعية التى هى عليها.

يتحول الحديث نحو موضوع قريب من ذلك الذى يسيطر هذه الأيام على الشيخ :موضوع الخشب والزهرة، وهل الرجـال أيـضًا يزهرون.

- هل عندكم يا سيدى قصص عرائس البحر ؟ - يسأل الأستاذ - أى تلك النساء برأس طائر أو نصفهن سمكة... أشياء مثل هذه.

-إذا كن سمكًا فهن فى البحر، والصيادون قد يعرفون عن ذلك شيئًا. أما فى الجبل فلا وجود لهن...آ! لكن عندنا الرجل الماعز، الكابروومو.

- آ، كيف كانوا ؟ ومن أين أتوْا ؟

- إنسان من الخصر إلى أعلى وماعز أسفله، فقد رأيتهم حتى فى الصور. من أين أتوْا، من أين أتوا،... خى خى.

يتوقف. يا له من سؤال ! قد يفكر المرء أن هؤلاء الأساتذة على الرغم من كثير مطالعاتهم لا يعرفون أن الجديان تخرج من حيث يخرج الأطفال. سأشرح لهم ذلك إذن : فالدكتورة قد سمحت لى، ثم إنها تبدو راضية؛ فهى لا تتوقف عن تسجيل ملاحظات.

-إنهم يأتون من حيث يأتى الجميع. من الشاة الأم. إذا جامع رجل شاة، المعذرة، وتلد هذه فالأمر طبيعى : نصف رجل ونصف شاة. لكن أظن أن الشياة اليوم لا تحسن الولادة، أو أنها لا تحمل؛ لأن الكبروومو (رجل شاة) قليل اليوم لا كما كان قديمًا... وواضح أنه لو ولدت الشياة كما يجب لملئ الجبل بالكبروومو !

– أحقًا تقول ؟ يفلت السؤال من طالب مندهش !

ينظر الشيخ إليه محتقرًا. "كالعادة : لا يعرفون الحياة."

– الفتيان يأتونه كلهم تقريبًا، وهكذا يتمرنون.

يلاحظ الشيخ وجوهًا كثيرة غير مصدقة. "وعظيم أيضًا أنى قد صدقت هذه المرة، ولم أخترع؛ فهم ينظرون إلى ككذاب."

– أصدقت يا سيدى أم كذبت – يجيب السائل – فأنا قد مازحت أول شاة لى وأنا فى الثانية عشرة، وإن لم تصدق...

– شاة أم نعجة ؟ يحاول الأستاذ التدقيق. تسمع ضحكات ! الشيخ يغضب.

– شاة ! فهى أحسن؛ لأن عظام عجزها بارزة، ألم تتثبت من ذلك؟ أما النعاج فيصعب إمساكها.

نظرة الشيخ المتحدية تفرض الصمت. يشرعون فى مناقشة الموضوع بطريقتهم، متحدثين عن المخلوقات الخرافية، أنصاف بشر، وأنصاف حيوانات، وعن أشياء الكتب الآخرى. يذكرون حالة أخرى تشبه حالة بروميثيوس: العملاق تيسيو. وبعد فترة يطرحون موضوعًا آخر أكثر أهمية عند الشيخ : موضوع الرجل المرأة ويسمى تيريسياس.

– رجل امرأة ؟ ومن منهما من الحزام إلى الأسفل؟ تشرح الدكتورة، وهى العارفة جدًّا بهذه الأساطير، أنه ليس بنصف الجسد، بل بالتداول. تيريسياس ظل سبع سنوات امرأة، ثم عاد فصار رجلاً، وقد وصل إلى أن يكون عرافًا حكيمًا جدًّا.

– طبعًا ! لا شك أنه عرف كل شيء !... لكن هذا ليس ازدواجًا.

"ازدواج ؟ – يفكر وقد خطر له – يمكن أن يكون فى الوقت نفسه جدًّا وجدة." والدكتورة، رغبة منها فى إعانته وقد رأته غارقًا فى التأمل، تشرح له أنها وجدت مخلوقات ذوات جنسين أيضًا فى الوقت نفسه، لا نصفًا بنصف.

تقول له أيضًا أسماءها ولكن الآن وهو مضطجع فى البيت لم يعد يذكرها. فالاسم لا يهم. لكن الذى لا شك فيه هو أن الأزمنة القديمة كانت أحسن بكثير بآلهتها، وبأولئك الذكور الإناث فى وقت واحد. "فهكذا لو شاخوا، واصلوا التمتع؛ لأن النساء لا تهمهن السنون. يكفى فتح الساقين وكفى ! ثم هن بعد هذا لا يحملن !... الحق يقال إنهن لمحظوظات هؤلاء الملعونات. "يفكر الشيخ وهو يشعر بهجوم، ولو غير عنيف، من الروسكا.

لكن نحن لا شيء بهذا الإله الحالى – يخطر عليه وهو بعد على ضفة النوم الغامضة – فهو لا يعطينا أكثر من حياة واحدة ولم

يفلح فى إعطائنا نهودًا، نحن الرجال... لأننا لو كنا معدين جيدًا من الأسفل وبنهدين فى الأعلى... لسعد بذلك الأطفال."

(٤٧)

كان الابنان فى غرفة نومهما يتحدثان عن الجد.

- لا بد أنه عائد من الجامعة، فهذا وقته. تؤكد أندريا وقد اضطجعت.

واضح أنه كان أكثر سرورًا فى المرات الأخيرة – يجيب ريناتو – الذى عاد بعد أن ألقى نظرة على الطفل ويدخل فراشه.

- لعل النتيجة لم ترضه هذه المرة... فكفاه أن يتكلم فى كرسى بوونكونتونى الجامعى. ألا تقدر ذلك يا ريناتو؟ لم أخرج من دهشتى من يوم أن أخبرنى ذلك الشاب. وبالمناسبة، إنه ابن الكومنداتورى فرلينى، دومينيكو فرلينى.

- هكذا نعرف – فى الأقل – أين يذهب.

- لا نعلم كل شىء. وتلك الأكلات خارج البيت ؟ فما الفائدة من صيانة نظام أكله – الشىء بالشىء يذكر الغلاء يزداد يوميًا – إذا كل أكل بعد ذلك فهو قاذورات فى الخارج!.. المهم، أبوك فى الجامعة، من كان يظن ذلك!

ولم لا ؟ إنه يعرف الكثير عن الريف بما فـــى ذلــك تقاليــد اضمحلت.

لكن، ألا تعلم أنهم يتحدثون حتى عن علم الأجنــاس البــشرية القديمة ؟ أليسوا يهزأون منه ؟ فهذا يفسر ذاك.

– أبى لا أحد يهزأ منه؛ وعلى أية حال – يضيف محزونًــا – فهو متمتع بذلك ولم يبقَ له الكثير من الوقت...!

تشارك أندرييا فى الحزن. ومن أجل هــذا الوقــت القــصير المتبقى، لم تخبر الزوج بأن الشيخ يدخل ليلاً غرفة الصغير. فيجــب الصبر ولو أفسد تربية الطفل. الأستاذ دالانوتى لا شك لديه."وعلــى كل حال، لماذا لا يعود إلى روكاسيرا الآن وقد مات الآخر ؟ تفكــر أندرييا قبل أن تجيب :

– يقاوم كثيرًا.

– ذلك لأنه كان رجلاً حقًّا وحقيقة. فأنت عرفته فى آخر أيامه فقط. لكن لو عرفته كيف صار أهم رجل فى القرية حيث ولد بلا أب ! وقد برز كثيرًا فى أثناء الحرب. وطنى جرح ثلاث مــرات. لقــد قص على صديقة أمبروزيو مآثره العجيبة. لقد حرر القريــة برفقــه حفنة من الإنجليز، وبفضله لم يعد الألمان رهائن ولا خرَّبوا شيئًا عند انسحابهم. ثم كان أحسن عميد بلدية عرف هنــاك. ســاعد الــشعب بالإصلاح الزراعى على الرغم من مقاومة الكانتانوتى ذلك : كــانوا

يرشون الموظفين، وقاموا حتى بتدبير كمينين له، ولكن قَتَلَ المعتدين... والآن مسكين أبى! أقسم لك أنى أشعر أحيانًا بتوبيخ الضمير من عدم بقائى معه هناك.

كان ريناتو محزونًا، فألجأ رأسه فوق الصدر الأنثوى الذى شعر به من خلال الثوب الشفاف وكأنه عارٍ. أما هى فتلاطف الشعر الكث الشبيه بشعر الشيخ، ولكنه أكثر سوادًا، وهو أيضًا متجعد يشبه شعر الطالب ذى الرأس الرومانى الذى جاء يبحث عن الشيخ ذات مساء.

- لكن لو أنى بقيت هناك - يبرر نفسه - لم أكن لأزيد عن أن أكون ابن سالفاتورى... كان لزامًا علىَّ الذهاب ! أتفهمين ؟

- طبعًا أفهمك يا حبيبى، لم يكن بإمكانك شىء آخر تصنعه. توافق وهى تفكر أنه على الرغم من شىء، فريناتو لم يبلغ مدى بعيدًا بهربه من القرية. كيمياوى فى مصنع، لا أكثر، فهو لم يبلغ ولا رئاسة مخبر. لن يصلا إلى روما حيث مستقبلها، إن لم تدفع هى عجلة البيت... يبدو أن وظيفة أخرى ستشغر فى الفنون الجميلة بإدارة الحفريات... فرصة جيدة. أحسن من السابقة فى فيلا دجوليا. ومدير الحفريات زميل عمى دانيال الذى كان مساعد كاتب دولة مع دى غاسبيرى، وهو لا يزال ذا سلطة كبيرة. من الضرورى الذهاب لتحريك الأمر فى روما.

تبعث الفكرة فيها النشاط، أو لعلها الأنفاس الرجولية وحركة الشفاه هى التى هيجت حلمتها. وهكذا تنزل يدها الطليقة بتؤدة، ملاطفة صدر ريناتو وبطنه الذى يستجيب لرغبة أندريبيا، كما لو شاء لحمه أن يتحرر هكذا من ظل الموت.

(٤٨)

يصعب النوم على بروناتينو. يهديه الشيخ أحسن مهد بين ذراعيه فيرتاح الطفل فيه، ولكن يصيح فجأة "no" (لا) – إنه آخر اكتشافاته – ويبحث عن وضعية أخرى. يفتح جفونه من حين إلى حين فيبرز سواد عينيه ظلمة أشعة الشارع.

"أيكون مريضًا ؟ – يخشى الشيخ – ثم إن هذا الصراخ بترديد "لا" سيوقظ الأبوين... من حسن الحظ أنهما لا يسمعان، فهما ليسا من المقاومة يا بنى. ينامان كالبرجوازيين... وعلى كل حال، لا تهرج أم الطفل فهو يصيح ":no" – هى صيحة الحقيقة بين "نو" و "تا" – بقوة انفجارية. والشيخ مسرور بأن تكون هذه أول كلمة تعلمها قبل "بابا" أو "ماما" أو "جد"P لأنه من الواجب معرفة الرفض أولاً. نعم> الدفاع عن النفس هو الأول.

ينام الطفل أخيرًا فيضعه الشيخ فى فراشه، ويشرع فى حراسته جالسًا، ويظهره إلى الحائط متأملاً ككل ليلة. "الدفاع عن النفس هو الأول. أهذا ما قلت ؟ هذا شىء آخر مما لا أراه واضحًا

يا بني. مثل موضوع الخشب والزهرة، رجال ونساء. كـــانوا ســـابقًا أضدادًا والآن هأنذا : رجل كامل الرجولة مثلى، رأى أنى لو منحـــت نهدين لكنت أحسن جد... يا للعجب ! أليس كذلك؟ هذا هـــو الواقـــع. فالآن أفهم أنهما ليسا ضدين فكثير من الأشجار تزهر، وكثيـــر مـــن الزهور تعطى خشبًا... تقول لا ؟ من أين تخرج الشجرة إن لم تكـــن من بذرة زهرتها ؟ ومن دون طول انتظار لك مثلما فى الورود. فقد قطعت نبتة ورد قديمة من أسفلها فكانت ساقها، القوية كفخذك، خشبًا خالصًا وأى خشب !"

يَلَذُّ الشيخ للذكرى.

"أتعرف أى نبتة ورد كانت ؟ نبتة ضريح آل كاتانوتى لا أكثر ولا أقل. لقد بلغت بهم قلة الحياء حَدًّ بناء ضريح متبجح فيـــه حتـــى المرمر، ولم يشاؤوه أكبر حتى لا يغضب آل الماركيز الـــذين لهـــم ضريح آخر فى المقبرة ذاتها. تصور، المرمر لمستودع جثث ذلـــك الجنس الخبيث!... فالوردة ذات السنوات الكثيرة نمت حتـــى بلغـــت قوس الباب المكسور كما فى أقواس الكنائس. كانوا يفتخرون بالوردة ربما أكثر من فخرهم بالضريح. وبما أنهم أغضبونى آنذاك بأولئـــك القتلة الراغبين فى اصطيادى قلت : "سأترك موتـــاهم بـــلا زهـــور. "فقطعت الوردة فى إحدى الليالى بضربتى فـــأس، إذا كانـــت خـــشبًا خشنًا، كما قلت لك، كانت قوة خالـــصة. وبالمناســـبة فـــالأموات لا يخرجون ليلاً فى المقابر ولا شىء من ذلك. مجرد ترهات!... هناك

قد يكون الدود الآن آكلا ذلك التيس بنظاراته. يستطيع الآن قرع الباب الذى أغلق عليه: فلست من سيذهب لإنقاذه."

يستنكر هذه الفكرة الأخيرة، فيرفضها حالاً غاضبًا من نفسه.

"إنقاذه ؟ ولا حتى التفكير فى ذلك ! شفقة لذلك الوغد؟ أفضله ميتًا وقد تأخرفى موته !... لعلى سأصبح مأبونًا لليونتى هذه؛ ليصرخ ولتتحطم عظامه الميتة قرعًا لذلك الباب. إنه محكم الإغلاق!.. شفقة ؟ كيف يخطر هذا على بالى ؟ هل يكمن الآن بداخلى شخص آخر ؟.. يجب دائمًا الحذر منهم يا بنى ومن الجواسيس. إنهم يقضون على فرقة إذا هم تسللوا فيها كما فعل جاسوس سانتينارو. لا أترك أحدًا يدخل هنا ولا فى داخلى."

لكن يشتد اندهاشه أمام الفكرة التى تراوده : "لا كلام عن الشفقة !... أنا لست خبيثًا يا بروناتينو، ولكن ذلك الرجل عدوى. كان يستغل البلدة وأراد قتلى، أتفهم؟.. كيف أشعر الآن بالشفقة ؟.. لكن، لا، لم أشعر بها، ها قد فات كل شىء... هى بلبلة مما يعترينى الآن لكن أرى كل شىء واضحًا، فحتى الحيوانات ترى أن الأقوى ينال الفريسة. والطبيعى هو أن يكون المرء قويًا يا بنى. عض أو يعضونك، تذكر هذا. لقد علمنيه ذلك الجدى فى ألعابى. لم يكن وديعًا مثل لمبرينو، بل كان دائم النطح؛ ولذلك تركوه ليصير فحلاً. ولا يزال، وقد كبر، يسير بين إناثه كالملك. نعم، تعلمته. أنا لم أستسلم

قط، ولا تركت الخصام... أتعرف ما أحسن هدية قدموها لـــى وأنـــا طفل ؟ هى موسى صغيرة ولكنها موسى ! اشتراها لى موروودنترو، أبو هذا الحالى."سيجرح نفسه، إنه لا يزال طفلاً "قال له كبير الرعاة. "أحسن، فهكذا يتعلم."لكنى لم أجرح نفسى. لم أفعل !... أتعرف كيف دشنتها ؟ كانوا يسلخون جديًا لإعداد مضيرة(١)، وقد تدهور الجـــدى بنطحة من آخر. فذهبت إلى الطباخ وتركنى أغرسها بـــين الطنـــب وعظم الساق الطويلة حيث يعلقونه لسلخه. وتذكر ذلك يعيـــد ليـــدى القوة التى يعطيها الضغط على الموسى. وخلافًا لهذا فقد نـــسيت مـــا فعلته هذا الصباح. يا للعجب !... لا شك وأن هذه الموسى لا تزال فى جوالقى لأيام الحرب، إن لم يرم بها ذلك الخنزير ختنى؛ لما يحملـــه لى من الكراهية... طيب، ليس كرهًا. للكراهيـــة تجـــب الـــشجاعة، والملعون ليس له إلا سوء النية وطول اللسان... كـــم مـــن ســـكين أصابت بعد ذلك ! منها الشيرافيليكو كنت إذذاك خطيبًا : فقد كانـــت الفتيات جميعًا يهدينه للرجل عندما تتم الخطبة. الذى أهدتنيه وردتى، جدتك، كان له مقبض من الصدف كسكين رجال المافيـــا... لكـــن لا سكين يعادل الموسى الصغيرة الأولى. إنها مثل أول امرأة، أتعرف ؟ طيب.. ستفهم فى المستقبل... لماذا تتحرك ؟ أتجـــد مـــن الظرافـــة تسميتها قاطعة السرة ؟ اسم مناسب فالضربة فى البطن هى أضـــمن

---

(١) المضيرة : هى طبيخ لحم باللبن

ضربة، فكل شيء هناك فى الأسفل طرى ليِّن. الذبح أفضل طبعًا ولكن ذلك يكون من الخلف.. أم أنت تتحرك لأنك مريض ؟"

يقترب الشيخ من المهد ويلمس جبهة الطفل، ولكنها بلا حرارة. إذذاك يسمع ضرطة فيبتسم : "آ يا نهم، أنت مصاص مجيد ! دعك، سأخفف عنك."

ينزل على ركبتيه بجانب المهد، واضعًا برتنه مفتوحًا على بطن الصغير. كانت تقول له المرحومة زوجته إن يده شافية. فقد كانت كثيرة الأوجاع على الرغم من قلة أكلها، وخاصة بعد ولادة ريناتو.

"نعم، الطعنة فى البطن هى الأحسن ضد العدو. ولكن، من هو العدو ؟ كان واضحًا لدى أنهم الألمان. لكن لا؛ فأخت هورتنسيا متزوجة من أحدهم فى ميونخ، وهى سعيدة، ولها ما لا يقل عن سبعة أبناء. رجل طيب جدًّا حتى أنهم وضعوه فى معتقل فى عهد هتلر. هكذا الأمر ولو برز لى هذا فى الجبل بزيه الملعون لقضيت عليه. شيء آخر كان واضحًا لدىَّ : لا يمكن العيش بلا قتال. لكن انظر إلى الأترورييين، فهم لم يكونوا مقاتلين حقيقة. أندرييا تقول ذلك وفى هذا أصدقها... وهكذا احتلهم الرومان ! آ، لكن كانوا يعيشون كالملوك. لا أزال أذكر ذينك الزوجين متمتعين فوق تابوتهما، المسمى ناؤوس... من المؤكد أن كانتانوتى لا يبتسم هكذا !"

إن رؤية النظارات السوداء فوق جمجمة، ومرأى السن الذهبية البغيضة يثيران ذاكرة الشيخ برهة وجيزة.

"وأنت نفسك يا طفلى الصغير، هل تخاصم ؟ طيب، إنك تقول: "لا" ضاربًا بيدك ملعقة الدواء والحق معك. لكن هذا ليس خصامًا. خلافًا فأنت تسمح بأخذك وتستريح فوق الأذرع تخرج رابحا أيها الصعلوك، وتفعل بى وما بدا لك. وما بيدى أن أصنعه غير محبتك ؟ فأنت تدخل إلى الأحشاء... لما تكون بين ذراعين أخريين وتمد إلىَّ يدك؛ كى تأتى عندى. ماذا عساى أن أقول لك عن العَبْرة فى حنجرتى ؟ إن رؤية هذه الحركة الطفولية توقف فجأة انتشاء هذه التأملات.

"لهذا، أحببنى. أنت لاتعرف أنه بقى لك وقت قصير مع الجد إلى موسم القسطل على أقصى تقدير. إن الروسكا تعضنى! وهى أيضًا "قاطعة سرة". نعم، نعم، أعرف أنك تحبنى. إذن قلة لى. فُهْ به إلىَّ قبل أن يفوت الأوان. أنت تفتح لى ذراعيك. نعم، لكن يجب التصريح به. من المعلوم أن ما يقال أحيانًا هو كذب... دونكا كانت تلاحظه علىَّ فتكرر : "لا، أنت لا تحبنى، أعجبك فقط... ويعجبنك كلهن!" كنت أقسم لها أنهاالحقيقة؛ لأن القسم بالحب لامرأة لا ينطوى على عدم وفاء بالعهد، ولو كان كذبًا. ثم كيف لا تحب، وهى طيبة جدًّا وأنثى شجاعة ؟ لكن كانت تنظر إلىَّ بحزن، فتنطفئ الشرارات الخضر فى عينيْها العسليتيْن مثل السحابة التى تخفى الشمس عند

بحيرة أرفو. مسكينة دونكا. كان دافيد مفتونًا بها وهـى تـأتى إلـى فراشى، بينما هو لم ينلها أبدًا... لكن لماذا أدعوهـا مـسكينة ؟ لقـد أحبتنى ونالتنى، فعلاً. ولكن هل نالتنى حقًّا ؟ أرى الآن أنى لم أعطها الكفاية. فيظهر أن هناك ما يعطى أكثر مما أعطيت. هورتنسيا علـى حق. كانت دونكا تشعر بذلك فتحزن كثيرًا. تعود إلىَّ بعد قليل فتنظر إلىَّ. إلى الآن أرى العينين.... "ولو كذبتنى، قل لى: أحبـك". كنـت أكرر لها ذلك وأشياء عذبة أخرى تلك التى تعجبها. فكانت. فكانـت تبتسم وتعود تلك الشرارات إلى عينيها ويمر السحاب... من المؤكـد أنها كانت سعيدة... نعم، أكيد... كان ذلك جميلاً. أتعـرف ؟ إسـعاد الغير شيء جميل. تعلم هذا أيضًا، واشرع من الآن. قل لى حالاً إنـك تحبنى. متى يا ترى تناديني بـ "تونو" (جدى) إنها أسـهل مـن بابـا وماما. ها أنت تقول نصف الكلمة، فكرر تلك "النو" وكفى : نو – نو، نو – نو.

يوم أسمعها منك تمنحنى الحياة. أتسمع ؟ تمنحنى الحياة !"

ينام الطفل الآن نومًا هادئًا.

"صحيح، إذن، أنى لا أزال أصوِّب مانالنى." يمدح الشيخ نفسه وهو يجذب يده من فوق بطن الصغير.

إذذاك يشعر بحدسه كمقاوم بحضور ما. يلتفت فجأة كـوحش متوثب. طيف بالباب المفتوح. يلعن تأملاته. لقد فاجأة الألمانى.

إنه ريناتو. الأب والابن يتبادلان النظرات بلا حـــراك. يتقــدم الشيخ ويهمس وجهًا لوجه:

- ماذا جرى ؟ أحدثت صوتًا ؟

- لا يا أبى. ظننت الطفل يشكو شيئًا لما رأيتك هنا.

- هل أنت تبحث عنى ؟

يكذب الابن.

- ظننت أنه حدث لك مكروه؛ لأننى لم أجدك فى غرفتك...

- يعانق الشيخ ابنه باندفاع ويصب فى مسمعه :

- كنت أعلم أن لك قلبًا تحب به !

- يعجز الابن عن الكلام. والآن يكذب الشيخ :

- لقد جئت من أجل الطفل... فهو يبقى وحــده هكــذا طــول الليل..!

يعجز الشيخ أيضًا عن الكلام ثم يسترد نفسه :

حسنًا، لنذهب ولننم كلنا.

هذا هو الأحسن، ليلتك سعيدة يا أبى.

يتساءل الشيخ وهو فى طريقه إلى غرفته.

"لو كنت – كما فى الأيام السالفة – لتشاجرت مع ابنى... آى، المشاجر يبقى دومًا وحده. إنه يخيف فيتنحى الجميع... حتى معهن، فبعد المتعة أبقى وحدى!... هناك شىء آخر يا هورتنسيا لعدم البقاء وحيدًا، هناك شىء آخر..."

ينتظر الشيخ قليلاً ثم يرجع عبر الممر من دون أن يشعر بابنه وهو ببابه، يراه يعود إلى الغرفة الصغيرة. آنذاك فقط. يبتسم ريناتو بإشفاق وهو يدخل فراشه فى تؤدة؛ كى لا يوقظ أندريا ولا يصيبها بعدوى حزنه.

إلى جانب الطفل، يهمس الشيخ :

"لم أعد الآن وحيدًا بيديك الصغيرتين حول عنقى وأنتَ فى أعماقى. لا صراع. ذراعاى مهد لك لأضمك إلى صدرى فأسعدك. أعرف ذلك. أنت تستسلم لى يا بنى، يا ملاكى الصغير، تستسلم بلا شروط. وهكذا أسلم لك نفسى كما علمتنى؛ وبذلك لم أعد وحيدًا

(٤٩)

مكالمة لك يا سيد رونكونى.

يلتفت ريناتو نحو العاملة.

– من يا دجوفانا ؟

– شيء يتعلق بوالدك، العجلة ! يذهب ريناتو إلى الهاتف منتظرًا أسوأ الأمور.

– أنا رونكونى، تفضل.

صوت عذب.

–أبوك أصابه دوار، لا أكثر من ذلك فلا تفزع. ولكن يجب أن تأتى.

– حالاً ! فى أى مستشفى أيتها الراهبة ؟

– هو فى بيتى. أنا صديقة أبيك. ميللى هورتنسيا، بشارع بور غوسبيسو ٥١، الطابق الأعلى على الشمال.

يحتار ريناتو فيعبر عن شكره ويضع السماعة. يعتذر لرئيسه وينزل إلى مستودع السيارات، ويرتمى فى الشارع، محاولاً ربح دقائق وسط حركة المرور المكتظة كالعادة. يبدو له الطريق بلا نهاية.

يفتح باب الشقة فى هذه العمارة المجهولة – على الرغم من حبه نفسه – عندما يخرج من المصعد، تدخله سيدة لم يتثبت من ملامحها، وهى ضد النور، وتقوده إلى غرفة نوم بسيطة لكن لطيفة، وعلى السرير الكبير أبوه مضطجع بلباسه حسب الظن، ومغطى بدثار إلى مستوى صدره . إن اصفرار وجهه يجعل ظل عثنونه أكثر

سوادًا. عيناه مغمضتان وغارقتان، ومن شفتيه نصف المفتوحتين يخرج لهاث خفيف. ينعصر قلب ريناتو.

- متى حدث هذا ؟

مُذ ساعة. تجيب المرأة مشيرة إلى كرسى إلى جانب السرير وجالسة هى أمامه.

- هاتفتك يا سيدى فى الحال... لقد جاء لزيارتى وكنا نتبادل الحديث، لما شعر فجأة بحاجة إلى الذهاب إلى المرحاض. بعد قليل سمعته يسقط، ومن حسن الحظ أنه وجد الوقت لفتح القفل، فدخلت ووضعته على فراشى.

- يحتاج إلى طبيب، أتسمحين لى باستعمال الهاتف؟

- لقد رآه بعدُ طبيب يعيش بالقرب منا. لقد أصاب أباك نزيف وهو ضعيف. لقد حقنه الطبيب وهو واثق بأنه سيفيق قريبًا، وعندها تستطيع أخذه إلى بيتك. لننتظر. ألا ترى ذلك ؟ يوافق ريناتو. يشكر من جديد هذه السيدة، محاولاً كبح فضوله أمام هذا الوجه الوديع، والشعر الأسود المشدود بنظافة، ونور العينين الفاتحتين والمغمومتين. كان يرغب فى إلقاء عدة أسئلة، ومن دون انتظار ذلك تقدم له هى الشروح وافية : اللقاء الأول فى الحديقة والصداقة مُذ ذلك الحين والتفاهم بين اثنين من الجنوب وزيارات الرجل إلى اليوم...

– كان يأكل عندك بعض المرات، أليس كذلك ؟ إنه سيرتاح لتوضيح ذلك فى النهاية.

– نعم، يعجبه كثيرًا إعداد أصناف من طعامنا.

إنها تتكلم كما لو لم يحدث شىء وأن الرجل نائم فى هدوء.

– إن أبى مريض بسرطان يستشرى بشراسة فى جسده.

– أعرف ذلك.

"ما العلاقة بينها وبين أبى ؟" يفكر ريناتو ثم يسأل :

– كيف وجدتنى ؟

– إنه حدثنى عنك دومًا... وقبل إغمائه بالذات كان يرينى رسالة من نيويورك أتته من أخيك.

آ، نعم، الرسالة التى أعادت إرسالها روزتا من عند البلدة. تلك التى بها الصورة : فرنشسكو وعائلته، وهم بلباس أثار حفيظة الشيخ؛ فصاح لما رآها : كأنهم فى سرك، إنهم مهرجون !" لكن – يفكر ريناتو – من المؤكد أن المرأة سمعت التعليق نفسه.

تشعر هى فى هذه الأثناء أنه يتأملها، فتستعيد ما كان الشيخ يقوله لها حقًا قبل أن يسرع إلى غرفة الحمام. كان يتحدث عن الكانتانوتى، وهو منذ أيام فى هوس من فكرة يرفضها –إنى بالليل أجتر كثيرًا ما بباطنى – كان يقول الرجل فى ذلك الوقت – فقد

يخطر لى حتى بعض التهاون... وحتى الشعور بالشفقة نحو الكانتانوتى ! ونظرًا إلى ما هم عليه الآن من خصومه وجفوة، فإن تلك الدار ستنهار بعدما كانت عليه فى روكاسيرا... إذن ليغرقوا !

– واضح أن هذه الأشياء تثير الشفقة.

لا تقولى هذا يا هورتنسيا ! لقد جلبوا ذلك لأنفسهم؛ بجشعهم وسرقتهم ما استطاعوا... أشفق عليهم ؟ ! لا، لو كنت شخصًا آخر !

– وإن كنته ؟ ألم تتغير قليلاً ؟

– أنا دائمًا برونو – أجاب الشيخ.

واضح، لكن برونو هذه الساعة يمكن أن يرى الأشياء بمنظار آخر.

صمت الرجل مفكرًا.

– وهل تعرف من يفتح لك عينيك ؟ قالت ملحة.

– أنت بكل تأكيد. فالنساء يغيرن ما بنا، نحن الرجال.

– ليت ذلك حقًا – تجيب هى – كم يعجبنى لو فعلت، لكن يغيرك أكثر بروناتينو؛ إذ أنت تلين كثيرًا معه!... نعم، قلت لك أشياء، لكنك تصدقنى بفضل ملاكك الصغير، فحتى تعرفك إلىَّ ؛ كان من أجله !

أكدت ابتسامته لهورتنسيا أن الرجل معترف بذلك. "الطفل هو حقيقته" فكرت هورتنسيا وأعادت :

- بروناتينو كان البادئ. أما أنا فقد جئتني بالغ النمو، لينًا.

- لين أنا ؟ زمجر الرجل غاضبًا.

لم يستطع إتمام حديثه. وقف ويده على بطنه واعتذر وخرج مسرعًا. بعد ذلك جاء الواقع الذى هذبته للابن : الشيخ يناديها من الحمام، وهى تصل فى الوقت الذى انثنى فيه فاقد الشعور من كرسى الكنيف إلى الأرض، وماء حوض الكنيف محمر، واللحم المترهل عارٍ، وهى فى كرب يملأ روحها، وفى هدوء داجن بيديها المشفقتين تغسله وتستره وترفع الجسم النحيل لتأخذه إلى الفراش. دخلت غرفة النوم، فعكست لها صورتها مرآة الخزانة : بين ذراعيها الشيخ، الرجل، الطفل. رأسه المنهمك فوق الكتف الأنثوى، ويده مدلاة والجسد كأنه منساب بين ذراعيها. لما رأت نفسها، بدأ حملها يثقل ثقلاً كبيرًا حتى خشيت الوقوع فى مكانها... شعرت بدموع على خديها، وهى تضعه فى الفراش وتغطيه. احتاجت إلى استعادة نفسها من أثر الطعنة قبل أن تستطيع المهاتفة... يا لها من تجربة صعبة.

والآن ولده هذا، ريناتو هذا يتأملها فى صمت وهو حائر، وسؤال ظاهر جدًّا يبدو فى عينيه إذن، لا حاجة للالتباس فتخاطبه وجهًا لوجه :

- يأتى كصديق، نتبادل الحديث، ونأكل معًا، ذهبنا إلى المسرح... أنا أعيش وحيدة مُذ مات زوجى، وأبوك رجل كامل بكل أوصاف أرضنا ! أتفهم ؟.. تضيف بصوت خافت - لكن هو لا يتصور كم أنا أحبه... تنظر إلى الابن قائلة : ها قد عرفت يا سيدى.

رنت الكلمات بشدة وبلا افتعال، ولكن يرى ريناتو فى هاتيْن العينيْن الصادقتيْن عمقًا هادئًا لينبوع كامل الصفاء. فيتأثر ويسلم بدوره نفسه :

- لا يعرف كذلك كم أحبه أنا يا سيدتى.

- بل قل هورتنسيا. تصحح هى مبتسمة.

- شكرًا يا هورتنسيا.

تتعانق النظرتان متواطئتين فى الهواء. تتنهد هى وتبتسم :

- كيف لا يجب ؟! يا له من رجل !...

تتسع ابتسامتها وتكلم نفسها: طفلى بروناتينو.

تكاد لا تسمع قولها ذاك لنفسها، فتندهش؛ لأنها لم تفكر فى هذا قط. وهى تكتشف فوق ذلك أن هذه الحقيقة قد حصلت عليها - قبل قليل وفى وقت آخر - أمام مرآة الخزانة لما كان الرجل يتقل ذراعيها. وتعيد فى ثبات :

- نعم، طفلى بروناتينو.

يعبر الابن عن تفهمه فى صمت. إذذاك يأتى الرجل حركـــة، فتعود هورتنسيا إلى الحاضر.

– احذر ! لن يعجبه أنك تراه مغشيًا عليه. اخرج إلى الممـــر، وتصرف كما لو أنك جئت متأخرًا. انتظر هناك فى الخارج.

يوافق الابن، وينسحب إلى البهو. بعد قليل يفتح الرجل عينيه، ويركز نظرته، ويبتسم لهورتنسيا.

– منذ وقت طويل ؟ يسأل صوت ضعيف.

– فترة قصيرة. لقد دعوت ابنك ولن يتأخر.

بحركة تبرم وصبر يأخذ فى التذكر :

– من أخرجنى من الكنيف ؟

– أنا.

– أنت وحدك ؟

– لا أحد غيرى...! أتيت بك بين ذراعى – تضيف مفتخـــرة ومتواضعة فى الوقت نفسه – سيدة وخادمة.

يخرج الشيخ يده كأنها جفن كرم، ويبحث عن يد المرأة، فتأتى لتحيته فيرفعها إلى شفتيه. وعند تقبيلها، يدفع لها دمعتين كـــضريبة، ويأخذ فى تخيل نفسه بين هاتين الذراعين، فيقفز إلى مخيلتـــه جـــسم

دافيد يحمله تورلونيو فى تلك الليلة بالجبل. وفى حيرته هذه، تتـراكم الصور : فمن دافيد إلى نفسه إلى دونكا. تلتبس فى ذهنه دونكا مـع هورتنسيا، فتتحد الأضواء المجيدة من ذلك القطار الملتهب فى أعماق السهل وسط ليل بهيم، المسيح بين ذراعى الأم.

يصبح ذلك حقيقة واحدة : النصر والموت.

(٥٠)

يعلق ريناتو قائلاً : لا أفهم كيف يبدى هذه المقاومة؟

أخذت أندريا الشيخ إلى مصحة دالانوتى، وهـى الآن تقـص على زوجها نتيجة الفحص، بينما تلاطف بحركة ترويح ذلك الـرأس المغموم اللائذ بإبطها.

يتعجب كذلك دالانوتى، ولو أنه رأى حالات متشابهة. لو كان غيره لمات هناك فى مرحاض... طيبة، تلك السيدة.

هورتنسيا تصرفت تصرفًا عجيبًا كما قلت لك. يدقق رينـاتو فهو قد قص على زوجته كل ما وقع فى تلك الدار، وبكل الجزئيات، إلى أن أتى بالشيخ. الواقع هو أن أبى...

يستعيد بعينى الذكرى ذلك الريناتو الطفل رافعًا نظـره نحـو العملاق النازل من الجبل، فيترجل فى فناء المنـزل ليرفعـه علـى ذراعيه إلى ارتفاع يحدث الدوران وهو يضحك كالسيل المنحدر. إن

هذه الذكرى ممزقة للقلب : فهى لا تصلح للتسلية؛ إذ من المعـروف أن هذا السيل بلغ نهايته.

– هل أشار ببعض الدواء ؟.. ففى الأقل لا يتألم!

– الدواء نفسه. المواصلة بالهرمونات. وصف لى، إن دعـت الحاجة، مسكنًا أحسن. علينا أن نناوله إياه فى القـارورة الأخـرى؛ لأنك تعرف كيف يصير عند الإشارة إلا أنه يتحمل الألـم، كمـا لا يتحمل أى ميلانى... وقال لى دالانوتى أيضًا إن العملية لم تعد تفيد، ولو أنه فاتح أباك بشأنها. أظن ذلك من باب الطمأنينة. يا إلهـى، إن أباك قنفذ على الرغم من أن الأستاذ لا يمكنه أن يكون أكثر لطافة.

– ماذا جرى ؟. دالانوتى يعامل أباك بطريقة تنطـوى علـى اعتبارات عدة، والنتيجة... لكن، واضح، ما لم أقصه عليـك وهـو شيء مهم !

تتحمس أندريا، فتنتصب نصف انتصاب.

– أتدرى من ذاك الذى يعرفه أبوك حتى أنه أنقذ حياته خلال الحرب ؟... لا تتصور ذلك !... إنه بياترو زمبرينى.

ومن هو هذا ؟

– من فضلك يا ريناتو ! خارج الكيمياء لا تهـتم بـشىء... زمبرينى هو عضو مجلس الشيوخ الشيوعى، رئيس اللجنة الوطنيـة

للفنون الجميلة؛ حيث يعرف بالصرامة فيخشاه الجميع. لو عرفت هذه الصداقة فى إبانها، لما سرقوا فى فيلا دجوليا الوظيفة التى استحقها.

لمَّا أعود إلى روما، ويجب أن يكون هــذا قريبًــا، ســأزوره لأشرح له حقوقى. سيقبل أبوك تقديمه لى أليس كذلك ؟ لن أطلب إلا ما هو مشروع !

– من المؤكد يا أندريا... لكن ألا تقولين لى الآن مــا الــذى حدث مع دالانوتى ؟ لماذا قلت إن أبى كان صعب المراس ؟

– لأنها الحقيقة ! تصور دالانوتى عظيم الانتباه، شــارحًا لــه العملية، ومشجعًا إياه... "بسيطة جدًّا أيها الصديق رونكونى، مجــرد خياطة صغيرة من الداخل لتحاشى المزيد من النزيف – هكذا قال له – سيكون ذلك مستقبلاً طبعًا بعد استعادة قواك من هــذه الوعكــة.." الخلاصة، طبيب يعرف كيف يعالج المرضى. ومع هذا، فأبوك كــاد أن يكون محتقرًا... أأشرح لك ذلك ؟ أنا كنت ثائرة جدًّا !

– النهاية، إن لم يكن إلا هذا...

– انتظر، انتظر. عند الخروج ونحن لا نزال فــى المــصعد، أتعرف ماذا فعل أبوك ؟

إشارة الإصبع الوسطى القبيحة، إصبعه بطريقة حيوانيــة، ألا ترى ذلك ؟..بالله يا ريناتو لا تضحك.!

لم يستطع ريناتو مقاومة الضحك.

– ثم أخذ يقول أشياء غريبة : فمن أن دالانوتى خائن، إلا أن مثله لا يخدع كى يحجزوه فى المستشفى... هذيان !... لم أصغ إليه؛ لأنى صرت.. يمكنك أن تتصورنى ! وعلى مدى الطريــق إلــى أن وصلنا وأنا أحاول إقناعه، لكنه لم يترك ترديد الشىء نفسه : هــذا الرفأ من الداخل لم يقيم به الطبيب ئى أحشائه نفسها... "يا للوحش ! المعذرة، فلا زلت أختنق لمَّا أذكر ذلك... انظر، أعترف لــك بهــذا، وهو أن كل الشفقة التى كانت عندى لأبيك قد زالت.

– ولا تهمه الشفقة. يهمس ريناتو.

– بقيت ناقمة. رجل مسكين، يا للجهالة الفظة. لقد قلت لك هذا يا ريناتو : ما لم نهذب "المتزوجورنو" (الجنوب) إيطاليا لــن ترفــع رأسها.

ريناتو يصمت، وأندريا تسير نحو الهدوء، وتعود طبعًا إلــى الشعور بالشفقة. تصبح يدها أكثر ليونة فوق شعر زوجها. نعم، تلين. تقرِّب فاها إلى أذن الرجل :

ريناتو، قل لى الحقيقة: ألنا خبيثة ؟

العناق الذى يعجبها يجيب، وزيادة خاصة بضمها فى حنان.

هل أنا لا أحسن صنعًا يا ريناتو ؟ – يضيق الصوت فى دلال
– قل لى : لماذا لا يحبنى أبوك ؟

– إنه يحبك يا امرأة... فيكفيك أنك أم بروناتينو؛ كى يحبك.

– هذا ما أتمناه... من المؤكد أنه يحب الطفل. لم تكن لى فكرة عمنْ هو الجد... والطفل يعبده هو الآخر. فيكفى مرآهما يلعبان!

الآن هى التى تلجأ إلى الرجل، باحثة عن السلوى.

– أنا أحب أباك، أقسم لك بذلك. نعم ولو لم يكن ذلك إلا لحبه الغامر لابننا، بالإضافة إلى أنه أبوك. أخدمه، أحاول إرضاءه ولكنه يصعب على الأمور، اعترف بذلك... لعلمك، ذلك النبيذ الردئ الذى يخفيه وهو يضره، أسكت عنه وأتحمل.

– لم يعد يضره شىء الآن – يجيب الرجل حزينًا – لا شىء يضره أكثر من الروسكا، كما يقول هو.

– لهذا أتحمله... والأكثر ألمًا يا ريناتو – لا تظن أنى لا أعلمه – والأكثر صعوبة عندى هو أنه يسئ تربية الطفل... أى نعم، لا تقاطعنى : فدخوله كل ليلة غرفة الصغير مانعًا إياه من التعود على النوم بمفرده... لا تنكر ذلك، حتى أنت كنت هناك ورأيته... أو أنت تظن أنى غبية ؟.. كان علينا أن لا نسمح له بذلك، ولكنى أفكر فى قصر حياته الباقية وفى الآلام، فأقبل كل شىء... غير أنه كان يستطيع من جهته أن يقلل لنا الصعوبة.

يلتفت ريناتو حتى يصل إلى معانقتها، وجعلها صغيرة بين ذراعيه؛ حيث تستكن وتقبع. وبعبرة فى صوته ولو بلا دموع يصرخ متأثرًا :

– أندرييا، يا أندرييتى !

يتعانقان بشدة؛ لأن الموت كان هناك فى الطرف الآخر من الممر فى منعطف الحياة. يتعانقان بقوة وتوحد بينهما اليوم الشفقة، كما فعل اللحم فى ليالٍ أخرى.

(٥١)

بينما هما يتعانقان ويسلى أحدهما الآخر، كان الشيخ يحضن بين ذراعيه بروناتينو، بعيدًا عن غرفة نوم الزوجين، فى الموقع المحصن، موقع المقاومين فى أعلى الجبل. هناك كان يكلمه بصوت خافت (فهذه الليلة لا يكتفى بالتفكير) بل هو يريد أن تنفذ كلماته فى الطفل نفاذًا أفضل. لا يدفعه الليلة ضباب التأملات، بل ضياع العمل.

– لقد اشتد الأمر يا رفيقى، فقد جرحونى وأضعت دمًا، فلعلك علمت بذلك، ولكن ها أنا قد تعافيت. عدت إلى القاعدة مصممًا على المقاومة. لا تجزع فقد مررت بأسوأ من هذا. بقى القليل، فهم يتقهقرون. سننتصر ونحتل روكاسيرا وسندخلها قبل الصيف الذى سيكون أعظم صيف. سترى عندما نستولى على غابة القسطل، تتم السيطرة على القرية ويتحقق لنا كل شىء. هم أيضًا يعرفون ذلك وقد

طلبوا النجدة... لن تجديهم ولا حتى الخيانة وهى أشد. خيانة ذلك الطبيب. لذلك عاملنى بالطيبة. أراد استمالتى عن طريق صداقته لزمبرينى. كذب. إنه خائن. فهو حفيد راعٍ وها هو سيد. هو فاشستى كالجميع. فالآن يريد إبعادى بالخداع؛ إذ إنه لم يقو علىَّ. نعم، يا بنى، يحاولون سحبى إلى مستشفى. اغتروا إن ظنوا أنى سأستسلم. أرى بكل وضوح، إذا ما حملونى على المحفة وقعت أنت فى أيديهم، ويحتلون هذا الموقع، ويعودون إلى سجنك وراء هذا الباب الملعون. ستصبح أسيرًا أيها الرفيق وأنت تعرف ما التعذيب عند الجستابو. تذكر كيف خرج المسكين لوتشيانو، بلا أظافر وأسوأ منه أولئك الذين لم يخرجوا. مساكين، منهم بيترونى الذى كتم السر كى ينجينى وينجى الفرقة، فقتلوه فى الزنزانة المجاورة لزنزانتى. لن أنسى صراخه ولا صراخك فى تلك الليلة الأولى التى أغلق فيها عليك الباب. صرخات متشابهة ولو عشت مائة عام فسيؤلمنى احتضاره، لكن لن يخدعونى، ولن أستسلم. لا أتركك وحدك ولا أسلم هذا الموقع؛ فقد أقسمت لك على ذلك. وبرونو يفى بوعده فأنت تعرف ذلك وأكثر منه يا ملاكى؛ فلا تشك فىَّ أبدًا !

يستنفد الهمس أنفاسه فيستعيدها : خسارة أن يضيع منى المستشفى، ألا ترى ذلك ؟ عملية متقنة ربحت ثمنها وهذا الطبيب هو الأحسن. تصور أنى أدفع للضمان الاجتماعى طيلة أربعين عامًا من دون أن يخصموا منى شيئًا. إنه مال ضائع يسمن به أكلة طعام

الحكومة. لم أمرض كل هذه المدة. لا شيء ولا حتى ضرس عند طبيب الأسنان ولا حبة أسبرين. باستثناء رصاصة الكانتانوتى، لكن ذلك ليس من شأن الضمان الاجتماعى، بل شأن العدالة. أستطيع الآن التمتع بالمستشفى بنُطس الأطباء، وممرضات معتنيات بى... الممرضات أيها الرفيق، كاملات النظافة وبجوارب بيضاء. طاهرات المظهر ولكن عديمات البراءة. كلما عدت مريضًا كانت له ممرضات، شيء جميل. هن يقلبنه فوق الفراش ويعانقنه كى ينهض، وهن له مستجيبات، كما أقول لك... خسارة أن أضيع كل هذا، نعم، لكن الحرب هى الحرب. فما نحن إلا للمقاومة. إن هم طلبوا نجدة، فليأتوا، ولكن لن يسحبونى بالكذب. سوف نرى ما يحصلون عليه. فهذا الموقع يمكن تحسينه بما فى ذلك إعداد الانسحاب، كما فعل أمبروزيو فى كهف مندرانى. فيكفى سلم من هذه النافذة؛ كى نخرج إلى الأسفل بسهولة. أنا لا أشعر بالدوران فى المرتفعات؛ فقد شبعت من أخذ الجديان فى أعلى القمم. فكما قلت لك : لن يسحبنى لا الطبيب ولا الرب.

يتأكد الصوت بعد هذا التحدى النهائى :

– أقول هذا احتياطًا وكى تطمئن. لا تزال معى أوراق كثيرة فى كمى. لا انسحاب ولا التفكير فيه، بل بالعكس، المقاومة ثم التقدم. هنا نتحمل ولا أحد معنا، لا ممرضات ولا حتى نساء. أنا أيضًا لى سلاحى السرى، أتعرف ذلك ؟ إن أنت احتجت إلى جدة فسأكونها

لك، وها أنا أتهيأ لذلك، لكن من النصف الأعلى فقط. آ. الحـــذر؛ لأن القسم السفلى هو كالعادة، ولكن الأعلى... ألم تلاحظ ذلك؟ ألم تـــشعر بأنى أكثر ليونة عندما آخذك بين ذراعى ؟ بعــض الليونـــة، ألـــيس كذلك؟ ثندؤتاى أخذتا تكبران، وسأنتهى بنهدين لك يا بنى لقــد قلـــت ذلك للطبيب، وكان ذلك كل ماقلته له؛ كى لا يغتر بأنه اكتشف هـــذا أيضًا. يضجره أن يرانى مستعدًا لكل شىء حتى إلى امتلاك نهــدين. من كان يظن ذلك ؟ ولكنه أخفى الأمر طبعًا فهو خــائن. قـــال : "لا تشغل بالك! وأخذ يتحدث عن الهرمونات كى تهدأ الروســكا، وهـــذا يأتى للرجال إذا تناولوا أدوية النساء هـــذه... تفاهـــات ! فثنـــدؤتاى تكبران من أجلك يا طفلى الصغير. إنهما إزهارى كرجل؛ كى، أنـــا وأنت معًا، لا نحتاج إلى غيرنا. كى نستمر فى التقدم محطمين كـــل أبواب الدنيا، كل الأبواب التـــى تـــسجن الأطفـــال عـــديمى الـــدفاع والمساكين المستغلين. سنقضى على الجواسيس والخونة، ثـــم نـــدخل منتصرين روكاسيرا، وسترى ما أجمل، ذلك وما أعجبه من صيف !

(٥٢)

تطل هورتنسيا من الشرفة. لا مطر، من حسن الحظ، وشـــهر أبريل يبدأ دافئًا بنسيم عليل. ترشق المرأة نظرتها فى ركـــن شـــارع ديلا سبيغا؛ حيث يقدم برونو ترافقه سيمونيتا؛ لأنه أول خروج لـــه. هورتنسيا راغبة فى معرفة هذه الفتاة التى أشار إليها الرجـــل دائمًـــا بكل حماسة.

تفقد الصبر. فقد مضى وقت مُذ هاتف ريناتو معلنًا الخروج ! هاتفها قبل أيام يدعوها لزيارة الشيخ فى فراشه الذى لا يتركونه يغادره. لكن هاتفها برونو أيضًا. لكنها تعتقد أن ذلك تم فى غياب الابنين؛ كى يطلب منها عدم المجئ.

- سوف أشرح لك ذلك، لا أريد الكلام الآن، فالهاتف قد يكون مراقبًا. كونى صبورة.

سأذهب قريبًا لرؤيتك. أنا مشتاق كثيرًا.

تتذكر هورتنسيا وهى فى الشرفة محتارة هذه الكلمات الغريبة جدًّا... وأخيرًا ظهر الاثنان عند المنعطف. يا لرجة القلب ! ويا لقصر برونو منظورًا من علٍ ! يا لشراسة الدنيا وهى تقدمه هكذا إلى جانب تلك الفتاة بمشيتها النشيطة، فتظهر بالمقارنة خطى الرجل الحذرة، وهو يكاد يستعيد قواه... لكنه هو، هو نفسه ! تذهب هورتنسيا إلى المطبخ لتفتح لهما بوابة العمارة، ثم تتقدم إلى الممر منتظرة وراء الباب صوت المصعد.

وصلا !... ولما فتحت الباب فاجأت الشيخ وإصبعه فى الهواء متجهًا نحو زر الجرس، وهو فى وضعية مضحكة مأخوذة من بعض الأشرطة المبتورة فأضحكتهما. بفضل ذلك أحسنت هورتنسيا إخفاء حزنها؛ لأن الشيخ قد هزل كثيرًا هذه الأيام. لاحظت وهى تتبعه نحو القاعة أن الكتفين قد نزلتا، والسروال اتسع، وخلا من اللحم. ولكن

الوجاهة باقية فى الأقل، والرأس مرتفع لم ينحن. "وسيمونيتا ؟" تفكر المرأة... لكنها تفرح الآن لعدم صعودها : عيون لا تـرى، قلـب لا يتألم...

- رائع يا برونو ؛ فقد أفادتك الراحة.

- أنت هى الجميلة ! وتظهر من جديد شـرارة الحيـاة فـى النظرة الرجولية؛ فيثلج قلب هورتنسيا - وأنا. طيب أقاوم، والروسكا مختفية؛ لأنها لم تفلح بتلك العـضة!... لا تـشغلى بالـك لا أنـوى الإغماء اليوم.

-ذلك أحسن - تواصل هى المزاح - لا يعجبنى حمل الرجال على ذراعى.

- تفضلين أن نحملك نحن الرجال، آه ؟ إذن لا تتحدينى.

آه، يا برونو، يا برونو - تعبر سعيدة - يا لـه مـن سـرور سماعك يا شغاب !

فعلاً، ولأن أندريا صممت على أن ترافقنى سـيمونيتا، فقـد أهملتها رافضًا ! تصورى، هل يجدر أن آتى إلـى بيتـك مرفوقًـا بحضانة؟

يتوقف قليلاً وهو ينظر إليها مستطلعًا إن هـى تـشك أم لا. ولما اطمأن واصل :

– يريدون إجراء عمليـــة لـــى، أتعـــرفين ؟ لكـــن لا أســـمح بإجرائها.

–تجيب هورتنسيا بلا اعتقاد؛ إذ هى تعرف الحقيقة من ريناتو
– "إذا كان الطبيب ينصح بذلك...

ينظر الرجل إليها مطاوعًا. هى أيضًا تقع فى شباك العدو!

– ألا تفهمين ؟ إن الطبيب قد باع نفسه يا غبيـــة. يُجْلـــوننى، ويشجنون بروناتينو مرة أخرى. ولكن برونو ثعلب كبير فلا يهمـــل حراسته.

تتظاهر هورتنسيا بأنها تعطيه الحق، ولكن تزداد حيرتها كـــل يوم لتشويهه فى الواقع. وخاصة "مواصلة الحراسة هذه" :

هل عدت هذه الليالى إلى الطفل ؟ –

لم أتخلف ولا ليلة. يقول مزهوًا.

– أنت مجنون ! لقد وصفوا لك الراحة فلا نهوض...

إنها تهاتف نزيفًا آخر عند الفجر، فلا يشعر أحد بذلك.

– لا مجنون ولا عاقل، بل نحن نقاوم حقًّا؛ ولهـــذا أســـتريح نهارًا.

– مجنون، هذا هو أنت ! لو ذهبت لأرانك لأقنعك.

– تأتين لرؤياى فى فراشى كالمريض ؟ أبدًا. لهذا هاتفتك...

– ألا تريدنى ممرضة ؟

يظهر الفرح فى عينى الرجل.

– هنا، نعم. لكن هناك مع أنونسياتا وأندرييا... لا كلام. تستطيعين الذهاب الآن ؛ فهم مبتهجون بك. لقد أحبك ريناتو، ثم إنك هكذا تساعديننى. فهما يثقلان عليك وأنا أريد أن أعلم نياتها ؛ ففى الحرب تدعو الحاجة دائمًا إلى الإخبار.

ولمَّا كتمت حركة هورتنسيا بعض الحقائق أضاف:

– هناك ترين برونانتينو.

برونانتينو هذا الاسم السحرى الذى يغير لهما الأفكار وفى مرح، مقاطعًا أحدهما الآخر، يمدحان ملاحة الطفل... يقول الشيخ : لا يكتفى الآن بدفع الكراسى، فهو يضعها مصفوفة بعناية، كل ما بها يصبح "بى!" ويلعب القطار الذى رآه فى الإذاعة المرئية... إنه يقلب البيت كله؛ مما يبعث اليأس فى أنونسياتا، لكنه لم يقل مع الأسف حتى الآن "تونو" (جدى)... ولو يبقَ لذلك الطثير ؛ فهو يرطن أكثر فأكثر !

فى هذا الجو المفعم بالسرور، يقبل الرجل تناول كأس.

– لكن من النبيذ ؛ لأن "الغرابا" يجب أن أحتاط لنفسى منها ؛ تحسبًا لما عسى أن يأتى من صعاب الأيام... إنه لذيذ – يتذوق بعد ذلك – لكنه ليس نبيذى الذى بالبيت، فهو بلا مواد كيميائية. إنه خالص صافٍ : عنب وعمل وزمن.

يتردد ثم يقرر.

– لا بد أن تذوقيه هناك فى روكاسيرا ! يا للقوة التى يعطيها. فذلك النبيذ مع الجبن والزيتون يكفى للعيش... هل يعجبك الذهاب إلى هناك ؟ لا تتخيلى كثيرًا. إنها قرية صغيرة بلا نزوات كثيرة، كما هى الحال هنا، لكن بأشياء كثيرة الجمال !... يذهب النظر إلى البعيد، والحياة أعظم، وتبدأ مبكرًا كل يوم ! ستعجبك بلا شك ! قولى: نعم .

– بروحى وحياتى ومتى شئت !

مرحى !... سترين أى صيف سيكون، أنا وأنت وبرناتينو... سأعلمه الجرى ورمى الحجارة وعدم الخوف من جدى و... الخلاصة أعلمه كيف يكون رجلاً، هذا هو!... أنت...

– أنا ماذا ؟ تبتسم مازحة: أن أكون امرأة ؟

– لا تكذبى، ليس هذا..أنا أعرف ما أفكر وأنت تفهميننى...

– تفهمه وتترجم قائلة : من المؤكد أنى أفهمك. أنا أعلمه كيف نتمنى أن يكون الرجال.

– هذا هو. أرأيت ؟ تصيبين دائمًا.

ولو أننا لا نقوله أبدًا؛ لأننا نريد أن تتنبأوا، ولكنكم غير قادرين... نعم سأعلمه كيف يتوقع رغباتنا، وهكذا يكون أكثر رجولة بكثير.

– آى يا هورتنسيا، يا هورتنسيا ! لم يسعدنى الحظ فتعلمينى.

لكن تتذكر هورتنسيا نفسها وهى شابة :

– إذذاك لم أكن أعرف أنا أيضًا... لنعدل عن التشكى يا برونو. لو التقينا قبل الآن، لكننا قليلو النضج، كلانا للآخر أترى أن ما لدينا قليل ؟ فلا أحد تقريبًا ينال فى هذه الحياة. لا فى سننا، ولا فى سن الشباب... لا أحد تقريبًا.

إن كان يراه قليلاً، فهذه الكلمات، وقد قيلت بكل الحقيقة – الواحد للآخر – لها طعم فيض العواطف؛ لأنه يفهمها أيضًا بمعنى "الواحد جنب الآخر" : لا مجابهًا للمرأة كما وضع نفسه دائمًا، بل إلى جانبها... "الزوجان الأتروريان"، يتذكرهما فجأة نتيجة انفجار داخلى.

تواصل هى الكلام.

لم أكن أستطيع تعليمك؛ لأنى لم أكن أعرف. لأنهم كانوا يخدعوننا، وفى زماننا خداعهم أكثر. كنت فتاة صغيرة أقرأ القصص عند الحفافة أنى كنت أعمل، وكنت أرى أبطال السينما، وهكذا بهرنى أول قليل حياء عرفت فيه: توماسو.

يقى الشيخ مبهوتًا لسماعها. قليل حياء ذلك الملاح لَسِن !

– نعم . هو وغد ! هذه هى الكلمة المناسبة. ولكنه لَسِن ماهر. تعلق بالفتاة الصغيرة، فأفقدنى عقلى. كان ذلك سهلاً... كانت الجنة فى البداية، فى ذلك السطح بالبندقية؛ حيث كنت أغنى كالعصفور أمام برج الناقوس، ولكن لم يدم طويلاً... كان كسولاً وقوادًا. كان يربح من الأمريكانيات العجائز، أكثر مما يربح من تحريك مجداف الجندول، ثم يصرف ما يربحه على أخريات شابات... وفى النهاية، المنحدر. جعل يسكر، وكان علىَّ العناية به أشهرًا وأعوامًا، وانظر العجب. ولما لم يعد قادرًا بنفسه، كنت أتسلى بالعناية به... لا تفسير لذلك، ولكن هذا ما كان. لقد تعلمت كثيرًا من كل ذلك. فحتى الآن لا أفهمه، ولكنى أراه طبيعيًّا... فما الذى كانت تستطيع تعليمك إياه تلك الطفلة الجاهلة ؟

يتروى الشيخ ويفكر : "تلك لا تستطيع ما أنت فاعلة الآن إياه، وأنت تروين علىَّ حياتك الحقيقية، ومعلمة إياى كيف يجب الاستسلام من دون الاحتفاظ بأية ورقة.." ويجيبها :

– أنت على حق. أنت دومًا على حق... أنا كنت أسعد حظًّا. لم أقع فى تلك الحبائل؛ لأنى تعلمت من الحيوانات، وهى قليلة الخداع. لكن كبرت بلا معلم.

– ولا حتى دونكا ؟ تجرأت هورتنسيا على التحدى.

ولا حتى دونكا – يعترف الرجل فتفرح هى – هذا مع أنها كانت شيئًا مختلفًا.

ها قد أخذت الخطوة النهائية، فالذكرى لم تعد حنينًا، بل أضحت تحررًا. فهى تعرف أنها ستستمع إليه وتتمنى ذلك ولو آلمها.

– كانت مختلفة إلى درجة أنها كانت عازفة بيانو. ألم أقل لك هذا من قبل ؟.. عازفة بيانو، ولماذا ؟ فهو لا يصلح ولا لفرق موسيقى الأعياد. لكنها كانت تعيش من ذلك هنالك فى بلادها، كرواتيا." فى الجانب الآخر" هكذا كانت تقول وتشير، ونحن على الشاطئ نحو ساحل لم نكن نراه. كانت تقول باكية :" ريبكا منزلى. هل أعود فأراه ثانية ؟"... إنها كانت فى المقاومة بدافع الوطنية. أتفهمين ذلك ؟ يا للشقاوة ! واضح أنها كانت تقول لا غير. لكنها دخلت المقاومة؛ لأنها كانت أنثى بحق، بدمها وشجاعتها!... كم كنا نتشاجر. كانت تناديني حيوانًا "حيوانها البديع". بهذا اللفظ نفسه؛ لأنها كانت تتكلم بألفاظ كهذه، كانت آنسة رقيقة.

هورتنسيا تتخيل ما لا يحكيه الرجل؛ لأنه لم يصل وإلى الشعور به على الرغم من أنه عاشه : هو هدية الحياة الرائعة التى قدمها لعازفة البيانو الرقيقة، مقدمًا لها اكتشاف النمر فى الحب، والذئب والحصان... تتنهد هورتنسيا وهى تنظر إلى اليدين الناشزتى العظام بعروقها منتفخة، واللتين كانتا إعصارًا ولا تزالان عاطفيتَيْن عند الملاطفة...

– كم وكيف كانت تغضب ؟! كانت تصيح في : "أحتملك من أجل البيانو فقط". قضت مدة من دون أن تعزف. ثم هناك في البيت وجدت بيانو من ذلك النوع المطروح الطويل. كانت تقضي اليوم عازفة موسيقى غربية... طيب، هذا إذا تركتها أنا، لأني سريعًا ما أضجر فأرمي بها على كتفي لآخذها إلى الطابق العلوي. كانت غرفتنا تفتح على سطح؛ فتستطيع هناك شربي على ظهري وضرب الأرض برجليها على السلم لكنها لا تلفت، لا.

نعم. تفهم هورتنسيا دونكا وهي تهدد بالذهاب، بصدق ولو بعدم تنفيذ. لا تود أن تحب أو بالعكس، فهي تجلس أمام البيانو لترغمه على إجبارها. "موسيقى "باخ "لتغطية" تفكر وهي تضع ابتسامة فوق النهم المؤلم الذي تستمع به.

– ملعون البيانو !.. لو كان رجلاً بدل هذه الآلة الغالية جدًّا لحطمته. بشرفي. أمر البيانو هذا قد يصلح لدافيد الذي كان يفهم ذلك. ولكنه لم يكن يصلح لدونكا، ولو للبداية. فهي في الطابق العلوي لم تكن تتعب أبدًا، وتنسى حتى البيانو. مسكين دافيد... شجاع كالقليلين. أي نعم. لكن من الذكورة لا شيء لم يكن يخالط أية واحدة لما كانت تسنح لنا الفرصة. كان رجل كتب ولديه كتاب بالعبرية لم يكن ينفك عن قراءته، ولعله من ذلك كان حسير النظر... لما أخبرت دونكا بموته، بكت يائسة. كانت تدين نفسها بعد استطاعتها محبته، كما لو كان الحب يحكم فيه. ثم غضبت عني. كم من أشياء كانت تسيرها

إليَّ." وقعت فى حبك أنت القروى، الوحش الذى لا يقدم ولا حتى على الاغتسال. "كان هذا هوسًا آخر لها تغتسل دائمًا قبل وبعد، حتى أنها تنزل البحر ليلاً غير خائفة من الماء شديد السواد وعندما تدخل حوض الحمام قبل ذلك، كنت أضجر من انتظارها وأنتصب عاريًا فى تلك الغرفة المملوءة بالمرايا. كنت أصيح بها "اخرجى من هناك، انظرى حالى !" كانت تنظر إلىَّ فترانى على وشك السقوط؛ فتغرق فى الضحك مشيرة بإصبعها. كيف كانت تضحك وكم تضحك وكم فيها من حيوية. كم... كانت... لا أدرى. أجمة تلتهب!

تتخيل هورتنسيا ذلك الجسد، جسد فتاة غاطسًا فى الحوض، والمرايا تحيط بها فتضاعف رجولة النمر الباهر فى قلة صبره القوية... وفجأة تلاحظ توتر الصمت فى أى شىء عثر على سيل الذكريات. أية صخرة يجب أن تتحداها هذه المياه المخزونة كى تتحرر كليًّا ؟ أصبح الصوت وهو يستأنف سيرة بطيئًا ورصينًا.

– تعافيت فانتهت ريمينى. أعادوا إرسالى إلى الجبل... أمَّا هى فقد قبض عليها الألمان فى المدينة. يبدو أنهم أرسلوها إلى كرواتيا، وهناك سلموها إلى أيدى "الأوستاشى" (الروس) ولم يسمع عنها بعد ذلك شىء.

ترفض الآن هورتنسيا تخيلها بين الجلادين، فهى عازفة البيانو بمدفعها الرشاش: الأجمة الملتهبة، كما قال هو... تلاحظ فجأة أن

كأس النبيذ لا تزال فى منتصفها، فتحزن. قبل إصابته بالنزيف، كان يفرغ كأسه فى جرعة واحدة. وكما لو أنه تعلم تَكَهُّنَ ما بها، شرب الرجل النبيذ فى جرعة واحدة، وهو لا يزال يلازم الصمت. ثم قال فى النهاية:

– لم يبقَ الآن كى تعرفينى معرفة كاملة؛ إلا أن تأتى إلى روكاسيرا، فى أرضى أظهر كما أنا.. ففى الصيف إذن، لقد وعدتنى بذلك.

– سأذهب طبعًا، فأنا أيضًا من الجنوب !

– نعم، ولكن من الجانب الآخر، من البحر الآخر.

– إنه أحسن من بحرك!... انتظر حتى أمالفى، فماذا ظننت نفسك؟

يضحكان، وفجأة تبرز فكرة لدى الشيخ :

– اسمعى ! أتعرفين لماذا عضتنى الروسكا تلك العضة هنا فى بيتك ؟... لأنها كانت تغار، نعم، هذا هو، كانت غائرة !

ينظر إليها فيرى ظلاً فى هاتين العينين، فيخمن ما بها مرة أخرى فيدقق :

منك أنت يا هورتنسيا. غارت منك.

"تخرج دونكا وتدخل هورتنسيا" وتفهم المرأة ذلك، وهى تمد يديها لتستقبل اليديْن الأخريين الممدودتين نحوها :

- الآن فقط أستطيع تعليمك... قد تعرف أنت الكثير عن الحروب وعن المروءات، لكن عن هذا لا شيء... استسلم، ففى هذا الأمر - نحن النساء - أعرف منكم.

- وما هذا ؟. يهمس الرجل.

لكن وإن كان قد تأخر هذه المرة فى التكهن، فهو لا يحتاج إلى سماع الجواب؛ كى يشعر مختطفًا فى الهواء نحو أعلى قمة من جبله.

(٥٣)

تهاتف أندريا هورتنسيا :

- متى يمكننا اللقاء حيث شئت ؟ فأنا مشتاقة للتعرف إليك، ولشكرك على أشياء كثيرة.

تلاحظ هورتنسيا صدقًا واستقامة فى هذا الصوت العذب، ولو أنه يعبر بدقة مهنية متناهية.

- ليس ثمة ما يستوجب الشكر، ولكنى مشتاقة، أيضًا لرؤياك. أفضل الذهاب إلى منزلك، وهكذا أرى بروناتينو.

– ولم لا يكون ذلك هذا المساء ؟ فحموى سيذهب إلى المعهد بالجامعة لأداء المحاضرة الأخيرة من الــدورة. ســنكون لوحــدنا، وسنرى ما قد نصنع به.

"هذه المرأة لها نيات حسنة – تفكر هورتنــسيا وهــى تــضع السماعة – غير أنى لو كنت مكانها لقلت : "تفعل من أجله بدل "به". لكن واضح أن الأمر عندها مغاير."

تستقبل أندرييا هورتنسيا. تتبادلان القبل والمجاملات وتدخلان. وفى أثناء المجاملة "سأعلق معطفك" ويا لها من قاعة مهيبة. لم تكــن الواحدة منهما تتصور الأخرى كما هى، ومع هذا فقــد فهمــت كــل واحدة من الاثنتين أن "الأخرى" يجب أن تكون كما تراها الآن.

بعد قليل، يطل الملك الصغير صارخًا ومتقدمًا بثبــات. تجــده هورتنسيا جميلاً جدًّا بذلك الحذاء الذى اختارته بنفسها، مع جواربــه وصداره الأحمر... لكن يا إلهى، ماذا شرب ؟ ففمه يزبد !

تنزعجان لحظة، ولكن يتضح لهما أنه صابون. تشرح أندرييا أنه تعود الآن الصعود على كرسى الحمام قرب الحوض، وفــتح الــصنبور واللعب بقطعة الصابون... لعله ترك الصنبور مفتوحًا، هذا مؤكد.

– آه، يا صعلوك. ألم أقل لك ألا تفعل هــذا ؟ تجريــان إلــى الحمام وتغلقان الصنبور، والأم تؤنب بروناتينو الــذى يــرد الفعــل بملامح ماكرة، كمن عاد من ساحة معركــة ضــروس. أمــا همــا

فتضحكان فى النهاية وينقلب كل شىء أعيادًا إلى الطفل. فى هذه الأثناء، تواصل المرأتان التفحص. هورتنسيا يعجبها تسريح شعر أندريا : خاص وبسيط وملائم لوجهها. وأندريا تثنى على فستان على الرغم مما يعيبه، ويا للأسف، ذلك القارب الفضى المشدود على الصدر فهو يشبه كثيرًا "السوفينير" (التذكار) الخاص بالسياح. هورتنسيا تفاجئ بالنظرة.

– أهدانيه هو – تعتذر وتدافع – أندريا تفهمها : هذه المرأة ذات كياسة.

فى طريقهما إلى القاعة، يشد باب مفتوح نظر هورتنسيا.

– إنها غرفته – تؤكد أندريا مضيفة اعتذارًا – صدقينى إنه لا يوافق على أن ترتيبها له خير من ذلك، وهذا الدثار القديم لا بد أن يبقى دائمًا فوق فراشه. إن له من العادات الغربية...! تدخل هورتنسيا متأثرة. هذا الدثار هو من دون شك ما يملأ الغرفة برائحة الشيخ. تنحنى وتمسح بحنان صوف الدثار بنى اللون كالقبعة. تنظر حولها وتفكر : "هناك فى الخلف يخفى مؤونته، وفى هذه الخزانة يحفظ موساه، وفى الدرج تحت الورق الحريرى المفروش فى القاع يحتفظ بالصورة التى التقطت لنا معًا فى الشارع عشية فرجتنا على "المنوعات". كل هذا أحصته فى نظرة قبل أن تخرج مفكرة. إنها زنزانة متعبد ومقاوم ورجل، وتمنت لو تركت هناك عطرها الأنثوى.

تفهم أندرييا كامل معنى تلك اليد، وهى تلامس الـدثار القـديم وتفكر. "ريناتو لم يشرحه لى جيدًا، أو أنه لا يعرف كيف يرى هـذه المرأة... فالرجال كثيرو البلادة دومًا ! "وفى الممر، تمسك بـذراع هورتنسيا فى تضامن أنثوى، وتضغط عليه برهة وهما فـى اتجـاه القاعة، وتقترح التخاطب من دون مجاملة.

تتحدثان والطفل يلعب جاذبًا ومصففًا الكراسى. تجهد أنـدرييا نفسها فى إفهام هورتنسيا إلى أية درجة تحاول إرضاء الشيخ، لكن...

– مهما صنعت لا أفلح أبدًا... حتى أنى أحتمل بقاءه فى غرفة الطفل ليلاً، خلافًا لما أوصى به طبيب الأطفال وهو أحسن واحد فى ميلانو.

تحاول هورتنسيا الاعتذار للرجل.

– نحن فى الجنوب نكوِّن نوعًا آخر من العائلات كما تعرفين.

تترك فى لهجتها ما يفهم بأنها وإن كانت جنوبية، فهى تـتفهم موقف أندرييا. وهذه الأخيرة تستمتع بدورها إلى قلق هورتنسيا.

– إن لبرونو أحيانًا حالاتٍ... لا أدرى، أهذيان هذا أو شـىء شبيه بذلك. يكاد إنه يتكلم كما لو أن الحرب مستمرة، كما لو كنا فـى عام ثلاثة وأربعين.

– إلى مَنْ تقولين هذا ؟ – تنفجر أندريا وقد استغربت من تسمية هذه حماها ببرونو – لو تعرفين المشكلة التى أثارها لى أول أمس. اسمى، إن آنونسياتا لا تنتهى من العلاج (هذه المرأة تشكو شيئًا لم يفلح الأطباء فى معرفته) وسمونيتا لها امتحانات فلجأت إلى وكالتى العادية التى أرسلت لى طالبة نمساوية تود تحسين لغتها الإيطالية؛ كى تتخصص فى أعمال المنزل... أعجبتنى الفتاه بمظهرها الجدى ولباسها غير الفاضح، وأنت تعرفين كيف يلبسن الآن بما فيهن سيمونيتا أحيانًا... إذن، كنا – نحن الاثنتين – فى المطبخ، وكنت أشرح لها ما عليها عمله، وإذا بحمى يطل من الباب، وما إن سمعها تتكلم حتى غاب. فتعجبت وأنا أسمعه يغلق غرفة الطفل النائم تمامًا، ولكنى لم أعرف ذلك اهتمامًا. جلست الفتاة لتغير الحذاء بخف أتت به وتلبس الطيلسان، وأنا رتبت نفسى كى أذهب لإلقاء دروسى...

تتوقف قليلاً؛ لأن الحكاية بلغت قمتها :

انظرى يا هورتنسيا ! أراد حسن الحظ أن يكون المصعد عاطلاً وأنا من دون أن أنتبه إلى ذلك انتظرت قليلاً فى بسطة السلم حتى المصعد. لو ذهبت نازلة السلم أو أخذت مصعد الخدم لانتهينا جميعًا فى مركز الشرطة !.. الواقع ما أحكيه لك : كنت هناك منتظرة وإذا بى أسمع الفتاة تصيح طالبة النجدة بينما حموى يقول : "خائنة، جاسوسة، الآن سترين!" وأنا، من فرط الجزع، لم أفلح فى

وضع المفتاح فى ثقبه... "النجدة، إنهم يغتصبوننى !" تصيح الفتاة بالألمانية... وأخيرًا فتحت. كانت الفتاة تهرع إلى الباب وحذاؤها فردة منه ملبوسة، والأخرى بيدها وأمامها حموى صارخ ثائر... عانقتنى الفتاة حانقة وشرحت لى : "أراد اغتصابى، وعيناه جاحظتان، إنه ماجن، ماجن!..." هذا بينما حموى يشتمنى لقبول جواسيس ألمان فى البيت... وقفت بين الاثنين كى تهدأ الفتاة التى كانت تبكى على كتفى : "هذه المرة الثانية - كانت تقول - هذه المرة الثانية. كل الإيطاليين سواسية لا يفكرون فى شىء آخر... لكن الأول فى الأقل، فتى !"

تبتسم هورتنسيا متسلية، بينما تستعيد أندرييا أنفاسها.

- نعم، الأمر ممتع الآن، ولكنى قضيت برهة مشؤومة... وفى النهاية، تقهقر حموى عبر الممر وأفلحت فى تهدئة الفتاة بفضل مخاطبتها بالألمانية. لبست الفردة الأخرى من الحذاء، وذهبت بأجرة يومها كاملة قائلة بأنها احترامًا لى لن تشكوه إلى السلطة... خرجت معها أمام البيت وحاولت إقناعها بالواقع شارحة لها مشكلة حمى، ولكن من دون جدوى. وفى أثناء انتظارها المصعد الآخر قالت لى : "إنهما نهداى يا سيدتى، أعرف ذلك، فهم يحبون النهود الكبيرة لدى الفتيات؛ فذلك يثيرهم، ولا يستطيعون مقاومته..." تصورى يا هورتنسيا، فهى، فى النهاية، فخورة على ما أظن... ما أغرب هذه الأفكار، أليس كذلك؟ إنى لا أفهم هذا... وبعد ذلك، لما عدت ودخلت

وأردت التحدث إلى الجد أجابنى باحتقار، "لا تفهمى شيئًا يا أنـــدريا. ألا تشعرين بما يجرى فى هذا البلد ؟ " ودخل غرفته.

أندريا تتنهد وهورتنسيا تشفق عليها بصدق. "كيف يمكــن أن يتفاهم ؟"

– والطفل ؟. تسأل.

– أتصدقين أنه على الرغم من كل الضوضاء وكثرة الصياح، فإنه استمر فى نومه فى كامــل الهــدوء ؟ تبتَــسم أنــدريا وتقــول هورتنسيا وهى تنظر إلى ربروناتينو صاعدًا فوق أحــد الكراســى، محاولاً الوصول إلى رتاج النافذة :

– إنه كنز.

– النافذة لا !.. تمنعه أندريا وتنهض لإبعاد الخطر.

– نو، نو، يقلدها الطفل صائحًا، ويتبع ذلك برش مقاطع خالية من المعنى.

– إنه كنز، نعم – تكرر أندريا – ولكنه أنهكنا جميعًا.

تؤكد هورتنسيا أن ذلك مرجعه العمر وتعترف أندريا بــذلك، وتقترح على هورتنسيا تناول قهوة فتذهبان مع الطفل إلـــى المطــبخ لتناول المشروب الحديث الإعداد هناك، فتتبادلان الآراء حــول آلــة إعداد القهوة عند كل منهما، فتشير هورتنسيا إلى متجر فـــى الحـــى

أسعاره أرخص؛ فتشكرها أندرييا ولو أنها لا تنوى طبعًا الذهاب إليه. يطبق على إصبع بروناتينو باب الخزانة ؛حيث كان يشاغب فيطلق صيحات مؤثرة؛ فتأخذانه مرة أخرى إلى الحمام، كى تبردا له الرضعة بالماء، ثم تدللاه وتحتفلا به...

إن المرأتيْن على الرغم من اختلافهما متفاهمتان، وكلتاهما تفكر التفكير نفسه : أندرييا فى هذا الشيخ الذى يمكن أن يكون خطرًا جنسيًّا على فتاة، وفى الوقت نفسه يثير كل هذا الحنان فى هذه المرأة التى تلامس الدثار القديم. وهورتنسيا فى هذا الرجل الذى أعطى جسده للدثار شكلاً ؛فجعل منه رفيق حياته.

تفكر فى برونو وهى خارجة من المصعد فتعطيه الحق وتتذمر :

– يا رب، لِمَ لم أكن الوحيدة مُذ البداية ؟ لِمَ لم أعش معه أيامه فى ريمينى ؟ لماذا لم أعرفه قبل الآن، قبل كل شىء، فى مستهل حياتنا ؟

لكن وهى فى الشارع وقد تقدمت مسافة، مرت بالحديقة حيث التقيا؛ فتذكرت الحدث.

"لولا ذلك لمررنا، كل فى طريقه، جنبًا إلى جنب". تقول ذلك لنفسها وهى تبتسم، وتشكر القديس سان فرانشسكو على وجود السيارات التى تلطخ باحتقار الراجلين الذين تكون معهم عربة طفل صغيرة.

(٥٤)

إن الرجل الذى تفكر فيه المرأتان، كان آنذاك يحضر نقاشًا بين الأستاذ بوونكونتونى وضيف من مونيخ هو الأستاذ بامبرغر. فهذا الأخير يؤكد أن مفتاح السلوك البشرى يراه علم النفس وهو علم الروح، مركز الاندفاعات والعقلانية والذاكرة والشخصية.. بدأ بوونكونتونى مخالفًا بشىء من المجاملة، ولكن تشبث الألمانى أغاظه شيئًا فشيئًا إلى أن ثار كلاهما فقال :

– انظر يا دكتور، إن هذا النقاش لا معنى له، علم النفس لا وجود له. إنه مثل علم الأديان وهو تضاد مفردات؛ لأنه من الغباء تعقل الإله. فمجرد محاولة ذلك، دليل على التشامخ الإكليروسكى.

– لا يوجد علم النفس ؟ – يجأر الألمانى – كيف تجرؤ يا أستاذ ؟ إذن فأنا أستاذ ماذا ؟

– طيب ! هو موجود كبنية أو تركيبة فكرية، ولكنه لا يطابق شيئًا باستثناء مطابقته تخيلاً آخر : هو الروح. وبلغة أوضح – يلمح مغتنمًا احتقان التوتونى (الألمانى) الذى يمنعه من الإجابة، كل ما هو عضوى فى السلوك البشرى هو اجتماعى. بمعنى أن ما لا يشرحه علم التناسل والوراثة، ولا يشرحه علم وظائف الأعضاء (الفيزيولوجيا) يشرحه علم الاجتماع. أى نعم يا سيدى – يواصل مهاجمًا بقوة كأنه يطلق النار – إن تصرفاتنا هى عناصر الوراثة

(الجينات) وإفراز الغدة الكظرية [الإدرينـالين] إلـخ... ممزوجـة بالتربية والشروط الاجتماعية. لا شيء غير هذا علـى الـرغم مـن الكتب التى تصف علم النفس.

– لكن الروح يا سيدى، الروح، "دى تزيلى" يمنعه – الهيـاج من مواصلة النقاش... أنت جاهل يا أستاذ، جاهل حقير !

يتبع ذلك سيل من الكلمات بالألمانية؛ لأن البافـارى لا يـتقن السُباب بالإيطالية. تنتفخ عروق عنقه وتمـسك أصـابعه بالمنـضدة وتخون شجاعة الجسد، شارب الجعة هـذا. وأمامـه بوونكونتـونى بشعره الأبيض غير الممشوط، وفى شكل هالة يمد عنقه ويطيل قامته القصيرة، كأنه ديك مصارع.

أما الشيخ فهو يقضى أمتع وقت، وهو يرى الألمـانى يتـألم فيفكر ويوغل فى التأمل: "سيقتتلان الآن. لكن يـضرب المـونيخى المنضدة بقبضة يده، ويطلق سلسلة من الكلمات الألمانيـة ويخـرج ثائرًا مطبقًا على الباب.

– ماذا قال ؟ يسأل الشيخ بصوت منخفض. غائط هى الجامعة الإيطالية. يترجم له مبتسمًا أحد مساعدى بوونكونتونى – ويـضيف بإعجاب – فى كلمة واحدة !

"لا يخرج له أحد يحطم له فمه ؟ – يتعجب الشيخ وهو مفعـم بالاحتقار – تف ! فمع هؤلاء الميلانيين لا ينفع شىء."

إن أصل هذا الشجار هو تسجيل الشيخ. فقد تحدث لهم أولاً عن الأطفال المهملين فى الريف من طرف أوليائهم، وهناك تربيهم الشياه ؛ فقلوبها أحن. أما هم فقد ربطوا قصته بحالات أخرى عتيقة كقصة ماعز شهيرة أسموها آماديبا حسب فهم الشيخ. ثم حكى عن أعياد روكاسيرا واحتفالاتها والخصومات من أجل حمل سرير القديسة كيارا، وقد لفت انتباههم كثيرًا "شيرا فيليبكو" الذى سمى به الموسى. ومن هنا تحول النقاش إلى العدوانية البشرية الحيوانية؛ فاشتبك الأستاذان حول مفتاح السلوك.

لكن لم يقع شيء طبعًا؛ فالناس فى ميلانو كالأطفال غير قادرين على تبادل الضرب كالرجال. يأسف الشيخ للأستاذ بوونكونتونى الذى استلطفه، ثم إنه يراه على حق من دون شك. فالآخر يكذب ولا جدال فى هذا الألمانى، وفوق هذا فنكران الروح يناسب الشيخ؛ لأنه فى هذه الحالة لا دور للقساوسة... لكن الحصول على الحق شيء، أما تحمل سُباب الألمانى فهو شيء آخر مخالف كلية. يغضب. لو كانت الدكتورة روسى هنا، التى لم تستطع الحضور، لخرج هو نفسه وراء المعتدى ليأخذ منه ثأر الشرف الإيطالى أمام المرأة. لكن هو فى حاجة، فى الأقل، إلى التصريح بذلك.

– ألا يوجد هنا؟ يجرى الدم فى عروقه. يفصح ناظرًا حوله – أيرعب ألمانيٌّ واحدٌ كلَّ هؤلاء الأساتذة؟... كم كنت أود أن أراكم فى

الجبهة ! لكن واضح أن لا أحد كان يذهب إليها. الجميع يكمنون في المؤخرة مع كتبهم وأوراقهم !

– أنا قاومت. يجيب بوونكونتوني بهدوء.

– أنت يا أستاذ ؟ يسأل متذكرًا في الوقت نفسه الأستاذ الذي كان معهم في الفرقة هناك في سيلا.

يحل بوونكونتوني أربته الفراشة ويفتح قميصه، ويعرض أثر جرح طويل يمتد من الرقبة إلى الثندوة.

– مقاوم في فال داووستا وبالسلاح الأبيض.

– معذرة أيها الرفيق. هذا كلام آخر.

يشرحون له أن الألماني المهان قد لقي ما يكفيه من الإفحام، وهكذا تنتهي بسلام آخر حصة للدورة. يودعون الشيخ جميعهم بكل حنان : "إلى السنة القادمة يا الكالابري، يرددون جميعًا؛ لأن القسم أصبح قسم الكلابري. يصافح الشيخ الأيدي مفتخرًا.

يأخذه بوونكونتوني إلى مكتبه صحبة فاليريو، ويريه صور مقاومين من فال داووستا.

"كانوا مثلنا – يفكر الشيخ – إلا أنهم بثياب كبيرة على ظهورهم وبأسلحة أحسن. هؤلاء الشماليون يلعبون دائمًا بالأوراق المربحة !" لكن رؤية تلك المناظر تثير ذهنه، فتتخذ عيناه تعبيرًا غريبًا.

– وكيف وصلت إلى هنا ؟ لماذ لم تقع فى أيدى الجستابو ؟

–ألعب بورقتيْن – يجيب بوونكونتونى فى غموض، وهو يعرف من فاليريو خلل عقل الشيخ – فالعدو يجب خداعه أيها الرفيق.

إن الجملة تؤثر فى الشيخ ؛ فيقرر تقديم اعتراف ساوره دومًا ليحرر ضميره.

–هذه حقيقة. يجب خداع العدو، لكن لا خداع الصديق... يجب أن أقول لك... أنا لم أسلك سلوكًا حسنًا أيها الرفيق، وأعتذر لذلك. فقد بالغت أحيانًا فى حكايتى... أعنى قليلاً، فلم يكن هذ' خداعًا. لا، بل مزاح، كما لو شرب المرء كأسًا زائدة عن الحاجة... أريد أن تعرف ذلك.. لا تحملوا محمل الجد كل ما قلت.

ينظر إليه بوونكونتونى باحترام.

مرحى لإخلاصلك ! لكن، لم كنت تخترع ؟ ليس ذلك من أجل حفنة الليرات.

– من أجل المال ؟ أنا أملك أراضى وغنمًا أكثر منك.

– هذا مؤكد ! فأنا لا أملك شيئًا... إذن.

– كان يعجبنى كثيرًا الحديث عن الجبل، عن البلاد! لا يهم هذا أحدًا من ميلانو... ثم إنى كنت متمتعًا برفقتكم... أشكركم على هذه الأوقات وإن أردتم، رددت لكم المال.

– إنك أحسنت ربحه ! صدقني... انظر، أنـــا بـدوري لـــي اعتراف وهو أني لاحظت بعض مبالغتك وشككت في أنها أخطاء... لكن اختراعاتك هي أيضًا وثائق في علم طبائع الإنسان، وهي تهمنـــا لندرس كيف يفكر أحد من زمانك ومنطقتك.

كان الشيخ مندهشًا وانتهى ساخطًا ؛ فنهض في حركة عدوانية:

– كان الألماني مصيبًا : فهذه جامعة غائط... تركتموني أتكلم لتهزأوا. أفعلت أنت هذا مع رفيق ؟... الآن أفهم لعبك على حبلـــين. تفعل ذلك ضدي وأنت مع الفاشستيين.

ينهض بوونكونتوني بدوره.

– اهدأ أيها الرفيق : أقسم لك أنك مخطئ. كنا نـــستمع إليـــك وسنستمع إلى تسجيلاتك كي نتعلم. فمن الروايات المعروفـــة تهمنـــا بالذات تغييراتك الشخصية. وهكذا عندما كنت تتحدث عن كنز فـــي نهر ربطناه بدفن ألاريكو وصناديقه تحت قعر نهر بوســنتو. وهـــل تعرف من هو الكارومانغو في تسجيلك قبل الأخير ؟ ليس هو ســـوى شارمانيو الإمبراطور. أما في ما يتعلق باختراعاتك الحـــرة، فهـــي تعكس ثقافتك لا أقل من ذلك. نعم.. أيها الرفيق، لما يتحدث رجـــل في مثل مقامك، فمهما قال فقوله تراث شعب.

يشعر الشيخ بأن هذه الكلمات تعبر عن شيء كبير، لكنه بـــاقٍ على ريبته من ميلانو وأهلها.

– أنتم تحسنون الكلام يا كتاب الأوراق : هر، هر، هر، هر، مثل السياسيين... لكن لا يهزأ بى أحد.

– أتريد برهانًا على قيمة وثائقك عندنا؟ سأعطيكه يا فرلينى، أين نحتفظ بتسجيلات رونكونى ؟

– مع وثائق توريدو وهو من كالتشيناتو.

يتأثر الشيخ. توريدو، أشهر مرتجل شعبى فى كل كالابريا. الرجل الذى تردد أشعاره وأغانيه من قرية إلى قرية.

– أحقًا هذا ؟ يبتسم فخورًا ومقتنعًا.

يوافق بوونكونتونى.

– أتينا به خلال السنة الدراسية الماضية ليسجل... ثم، من يعرف أيها الرفيق كيف يميزبين ما هو صحيح، وما هو غير ذلك من دون أن يخطئ ؟

– مهلاً ! لا أجاريك فى هذا. أنا أميز، ألاحظه. إنى أرى عربة يريدون بيعى إياها أو عينى شخص، فأشعر إن كانوا يخدعوننى أم لا. فالحقيقة تلمس. أنا ألمسها.

ينظر إليه بوونكونتونى بارتياب عجيب.

– أتعتقد ذلك ؟ – يسأل متهكمًا – قلْ شيئًا. هو، فى الحقيقة، لا يعتريها أدنى شك، قلْ شيئًا لا نقاش فيه.

يبرز الجواب منفجرًا :

طفل ! – ثم يؤكد واثقًا – نعم، طفل !

يتروى بوونكونتونى، وينتهى ضاحكًا فى حزن.

– أنت على صواب... بما أنى لم أنجب... انظر، يسرنى أنك قلته؛ لأنه هكذا سيعجبك أكثر التذكار الذى أعددناه لك. يقوم بحركة فيناوله فاليريو ظرفًا به أحد أشرطة تلك الآلة التى سجلوا بها.

– إنها كلماتك فى اليوم الأول أيها الصديق رونكونى – يقول الأستاذ وهو يقدم له الظرف – هذا لحفيدك الصغير.

"لبروناتينو ! – يحن الشيخ – ما أعظمهم هؤلاء الأصدقاء !..."

فهكذا كلماته نفسها، بصوته ذى الخمسين عامًا، ستستمر تطن لما يصبح الطفل رجلاً. بعد أن يكون هو قد ترك الكلام منذ أمد طويل... هل سيفهم الجمل باللهجة الشعبية ؟ لأنى اضطررت لتفسيرها لهؤلاء الناس فى بعض الأحيان... لكن بروناتينو سينطق ويتكلم هذا الصيف فى روكاسيرا، وسيكون كلامه باللهجة الحلية قبل أن يكون بهذه الإيطالية ! فاللهجة لغة الرجال.

يحترم الأستاذ والطالب صمت الشيخ المؤثر الذى يتأمل هذه العلبة من البلاستيك التى يقرأ على غطائها : "رونكونى سالفاتورى

(روكاسيرا)... يعود فيحفظها فى الظروف ويقرأ فوق هـذا : "إلـى بروناتينو من أصدقاء جده فى معهد أبحاث الأسـتاذ بوونكونتـونى. "أناس كرماء ! وبلا كلام يعانق الشيخ مقلم الأشجار السابق بالبلدية، وبحرارة يعانق المقاوم بفال داووستا. ثم يدعوهما من كـل قلبـه أن يذهبا فى الصيف إلى روكاسيرا. يلـى ذلـك شـىء مـن المـزاح والعبارات الودية وهم فى الطريق إلى المخرج. يقدم له بوونكونتونى بطاقة زيارته عارضًا نفسه لأية خدمة، ويرافقه إلى الكبيرة والـسلم الخارجى المؤدى إلى الشارع، يقوم بالتحيات – ويفهم الشيخ الفخور – الرفيق المحترم توريدو، شادى كالابريا الكبير.

يفتح له فاليريو باب السيارة الصغيرة، فيستقر الـشيخ علـى المقعد وهو يلامس فى جيبه الصندوق المعدنى الذى سيجعل الكلمات المهداة أبدياً إلى بروناتينو ترن فى المستقبل البعيد.

إلى الطفل : تلك الحقيقة.

(٥٥)

خطوات لطيفة وجئير خروف صغير يوقظ الشيخ ظانًا نفـسه فى الحظيرة. لكن تنفتح عيناه فى الغبش على ملاك صـغير أبـيض يرفع ذراعيه عند الباب المقابل للسرير. ينهض الشيخ ويقفز ويجرى إليه. يرفعه ويجعل له من ذراعيه مهدًا؛ فيغمـر صـدره حنـين لا يوصف عندما يلقى الطفل برأسه على كتفه. يأخذ الملاك فى إغماض

عينيه تمشيًا مع هزات الشيخ لحمله العذب واقفًا أولاً ثم جالسًا على فراشه.

"صحيح أيها الرفيق، لقد فاجأتنى نائمًا. لكن لا تظن أنى أهملت الحراسة... فالأمر هو أن العدو ينسحب. نحن فى طريق النصر فى هذه الحرب. نعم، نحن رابحان وبعضهم يستسلم الآن. ألا تصدقنى ؟ ألا ترى ذلك بنفسك؟ لننظر كيف وصلت إلى هنا ؟ هل كان عليك الصياح وضرب الباب، كما فى المرات الأخرى ؟ لا؛ لأن الباب كان مفتوحًا. أأنت سائر فى فهمك إياى ؟ هو ذاك أيها الرفيق. فالآن لا يسجنونك، ولن يسجنوك بعد الآن ! لقد انتصر جدك، فرقة برونو، نحن منتصران ! "يضع الطفل برهة، ثم يأخذه من جديد بعد أن ألقى الدثار على كتفيه؛ كى يلتحفا به معًا.

– تسأل ماذا جرى ؟ إن أندريبا استسلمت. هو كذلك، استسلمت أمس بالذات. لقد جاءت لتفاوض رافعة منديلاً أبيض كما هى العادة... تكلمت وتكلمت وتكلمت فأنت تعرفها. لقد أظهرت حتى بعض الود. الخلاصة هر، هر، هر : فالباب لنا. لقد غزونا إلى الأبد هذا الممر بالجبل. الكارومانغو الذى يسيمه صديقى الأستاذ بطريقة أخرى... هكذا قالت لى : "لا لزوم لذهابك ليلاً يا سيدى. نم هانئًا فلن نسجنه. ليفعل الطفل ما بدا له. "هكذا تكلمت وطبعًا جئت إلى. إلى مَنْ أحسن منى. إلى فرقتك المتمركزة فى هذا الموقع. لاحظ كيف نتقدم، فلم نعد نقاوم فقط. جئت عند جدك... آى يا طفلى الصغير

وملاكى. متى ستناديني "تونو" فهى أحسن كلمة سر ؟ إنها سهلة جدًا. يكفى أن تقول مرتين بلسان الوردة الصغير هذا، ذلك "تو" الذى تصيح به دائمًا. أتسمع ؟ هكذا : تو - تو.إنه كثير السهولة وستسعدنى به كثيرًا.

"من المؤكد أننا متقدمان. نعم، أعرف ذلك، لا تقله لى. فهذا الاستسلام يمكن أن يكون خديعة. لقد خطر على ذلك، لكن فى هذه الأثناء نحن نتقدم. لهذا نحن هنا، إلى الأسفل من الجبل. انظر إلى النافذة، فإنك لا ترى السماء إلا إذا أخرجت رأسك... ما تراه مقابلاً ليست صخورًا، بل منازل. نعم، بأناس نائمين فى هدوء لأنهم يعرفون أن الحرب على وشك الانتهاء. فبعد وقت قصير نحررهم، وكما قلت لك سنكون هناك فى الصيف. فالطقس الجميل يتقدم معنا أيضًا... ثم إنى وقد حررت بابك، سأسمح بأن تجرى لى عملية بالمستشفى. سيصطادون الروسكا. يحزننى ذلك، ولكن لا مناص. سأصبح قويًا للهجوم الأخير وهو احتلال روكاسيرا. بقى القليل فهم ينسحبون على كل الجبهات، وهذا وعد مقاوم. هناك ستلعب مع الخرفان، وتركب الحصان معى. سيصبح لك الشمس والقمر والجبل وخاصة الجبل بمروجه وغابات قسطله... سنعبر الميدان كما يجب، من دربنا الخاص. وسيقول الناس : "من هذا الطفل البالغ الجمال ؟" كل الناس : النساء فى الدكان، والبغالون والمنتظرون دورهم عند ألدو الحلاق، وأهل متجر التبغ، والشاربون بباب بيبو وحتى

المقابلون، أهل الكـــازينو؛ لأن آل كانتـــانوتى أصـــبحوا لا شـــىء. سيقولون جميعًا" هو ذا تزيو رونكونى مع حفيـــده البرونـــاتينو... إن هذا الطفل يعرف كيف يطأ وكيف يرفع رأسه، إنه صغير لكن انظر إليه : إنه يشبه جده..." سيحتفلون بك جميعًا. بعضهم لمحبتهم إيـــاى، وآخرون لخوفهم منى. نعم، ستتعرف على أمبروزيو؛ فهو أكثر مـــن أخ لى. سيأخذك إلى كل مكان؛ لما أعجز عـــن ذلـــك... عليـــك أن تحييهم معطيًا كلاً منهم معاملته المستحقة. ليس هذا صعبًا، سأعلمك. إن المسألة مسألة حدس، أتعرف ذلك ؟ وأنت لك الكثير منه يا طفلى. حدس لمعاملة الرجال، وسوف تتعلم بجانبى.

"والنساء ؟ معاملة النساء. ذلك يأتى من بعد وهـــو أصـــعب. كنت أظن نفسى عريفًا، وأن إعطاءهن اللذة كافٍ فى حد ذاته. فهو لا صعوبة فيه، بل بالعكس، ولكن الواقع غير ذلك... كن أعطيننى أكثر بكثير لو عرفت. فدونكا نفسها لا تـــستطيع معرفتهـــا. يـــا للعينـــيْن العسليتيْن بشرارات خضراء تظهر مرة، ومرة لا تظهر تمشيًا مع ما هى عليه!... طيب، أنا أيضًا لم أعرفها. أرى ذلك الآن. لكن تعلمت – فى النهاية – مع هورتنسيا. فهى التى تعرف وهى ذات القمة مـــن أية امرأة أخرى. عيناها الفاتحتان بين الأزرق والبنفسجى لا يتغيران أبدًا. فما أعظم أمنها. إنه شبيه بهذا الذى تحصل عليه بين ذراعـــى. ما أعظمها من حماية. عينان لا تؤثران فى البداية، لكـــن تواصـــلان النظرٍ؛ فتتغمسان شيئًا فشيئًا حتى تأخذا منك كل ما عنـــدك. تـــتكلم،

تعترف، تستسلم. ولمن أحسن ؟ موضوع النساء، حرب أخرى يا بني، ولكنها حرب معكوسة : ففيها يعذب الأسر... أنت لا تزال صغيرًا ولكن ستعرف عن عيون كهذه : طعنة تخز رويدًا رويدًا؛ كي تتمكن من النفاذ أكثر إلى أن تصل القلب... الآن أفهم الحياة. الآن ومن أجلك برز لي صدري. أنت أيضًا ستفهم، لكن قبل الأوان. فما لا أعرفه أنا الآن، ستعلمك هي إياه. فهي كثيرة الثبات واللين. قوية حتى أنها حملتني على ذراعيها... فكلمات فكرت في ذلك تمنيت لو كنت بمشاعري في ذلك اليوم. لكن لو كان كذلك لانتصبت لأحملها أنا... ما تم هو الأحسن : وهو أن أعرف ما حدث، وأن أكون فيها كما لم أكنه قط. فهذه المرأة ليست أجمة تلتهب، بل هي ينبوع دائم. فلا ظمأ هي غير قادرة على إطفائه. وستكون معلمتك؛ لأنها ستأتي معنا. سأحملها إلى روكاسيرا، ستصير جدتك ! نعم يا بني، ترافقنا إلى روكاسيرا التي هي قمنا بغزوها لك. هناك ستضحك من العالم بأكمله...

"نم هانئًا لأننا منتصران. حتى الروسكا استسلمت؛ فهي لا تكاد تعض. فمن هذا الموقع بقي القليل. نم إلى صدر جدك؛ فهو من صخر كالجبل. نم وتهيأ للدفعة الأخيرة. سنهجم بعد عودتي من المستشفى، وقد تحررت من روسكا. وهذا الصيف في روكاسيرا، الطواف في الصباح، والجلوس في المضحاة عند المساء. ففي هذه الساعة، تظهر النجوم الواحدة تلو الأخرى، وعن بعد يغني أحد

العائدين من الحقول. الهواء يعبق برائحة المحاصيل الحديثة الجنى، وإنه لمن العذوبة، العذوبة، العذوبة التنفس. إنها الحياة..."

(٥٦)

"ما هذا الميدان ؟... ينظر الشيخ حوله حائرًا. "أين أنا ؟ كيف وصلت إلى هنا ؟ نزلت من الحافلة، نعم، لكن أيها ؟ لم أتثبت من الرقم، لقد سهوت... ما الذى أزعجنى خلال الرحلة حتى أنزل فجأة؟ هناك سبب ولا شك؛ فحدسى لا يخطئ. هم لاحقون بى ولا شك... الآن، لا، وإلا لشعرت بذلك."

"الهدوء قبل كل شىء... أولاً، ما هذه المدينة؟... إنهم يرسلون المرء إلى أماكن مختلفة جدًّا... الاسترشاد مستحيل : فهو يوقظ الريبة... من المؤكد أنى جئت فى مهمة ما... أو أنا مارٌّ هاربًا كما فى مرّات أخرى ؟ الهدوء، الهدوء، سوف أوضحه كله فقد عشت ظروفًا أحرج. يا للعنة، هذه ألعوبة أخرى نتيجة الصدمة فى رأسى لما ألقيت بنفسى من وهدة أولديرا لأنجو من الحصار. كان ذلك منذ... كم ؟ ثلاثة أشهر أو ما شابهها لكنى لا أزال أعانى أثر ذلك."

"طيب ولقد نجوت من غيرها... هناك فى أولديرا بالذات حيث لم ينجُ غيرى... سأرى إن وجدت فى هذا الكشك ما يدلنى... غريب ولا جريدة واحدة تتكلم عن الحرب. الرقابة طبعًا، أو لأنهم سيخسرون. قبل الآن كانوا يتبجحون بتقدمهم ورميهم القنابل

وبالأسرى، معلنين ذلك على الصفحات الأولى. والآن هم صـــامتون، لكن هذا لا ينجيهم... آ، ماذا قال عندما مر صحبة فتاته ؟... "أنا لن أتحرك من روما – هذا ما قاله – فأنا راضٍ هنا"... إذن هى رومـــا، وما الذى جئت أفعله فى روما ؟ ســأرى هــل يــدلنى اسـم هــذا الميدان...؟"

يتقدم شرطى من هذا الشيخ الذى يبدو عليه الضياع:

– هل تبحث عن شىء يا سيدى ؟ هل أستطيع مساعدتك ؟

"الحذر ! لكن السؤال هو أحسن للمحافظة على الشكل العام".

– نعم، شكرًا أيها الشرطى، ما هذا الميدان ؟

– ميدان لودوفيكات.

وأمام هاتين العينين الحائرتين يضيف الشرطى :

– إلى أين تريد ؟

"أتظنني غبيًّا ؟ فأول شرط هو عدم الإدلاء بأية معلومة."

– هل أستطيع مساعدتك ؟ يلح الشرطى الذى تشجعه عدم ثقة الشيخ.

– لا تتعب نفسك، شكرًا، إنى أعرف روما جيدًا.

"روما ؟ يندهش الشرطى ويتأمل الشيخ بأكثر دقة... لا يبـدو عليه الإجرام ولو ظهر منه بعض العنف. لكن إن ظن نفسه فى روما

فشيء ينقصه في رأسه... وإن كان هاربًا من مستـشفى. فالمعاهـد الطبية قريبة، هي وراء كورسو بورتا رومانا.

– هل تشكو شيئًا أيها الرجل الطيب ؟ أين تسكن يا سيدى ؟

– ولماذا علىَّ أن أقول لك ؟ يجيب مخفيًا ضجره.

سوء الحظ شاء أن يلفت نظر بعض المارة العاطلين، فيـشعر الشرطي بأنه في خطر. إنه شاب ولا يسمح بالتبجح، ثم إنه يدعو إلى إقرار القانون. يجيب بقوة:

– لأنى سلطة.

"سيتجبر على الآن هذا الصبي الذى كان عليه أن يكـون فـي الجبهة. يفكر الشيخ ويجيب متهكمًا :

– سلطة ؟ وسلطة أية حكومة ؟

يحار الشرطي ويغضب ويتشدد في الاستجواب. يكبر تجمـع المتطفلين فيأخذ الشرطي الشيخ إلى هاتف يستشير بواسطته رؤساء، من دون أن يجرؤ الشيخ على الجرى هاربًا؛ لأن الهرب يفشي سره، ثم إن الدم الذى أضاعه بسبب الجرح الأخير قد أضعف قواه.

"سأظهر الغباء. يقرر وقد تركه الشرطي منتظرًا داخل سيارة الدورية، شيء سهل فهؤلاء الرومانيون يظنوننا أغبياء نحـن أهـل الريف... رومانيون، نعم، ولو أن هذا الشرطي يكرر أنها ميلانـو؛

كى يربكنى فأعترف... لن يأخذوا منى شيئًا، والآن أقل من أى وقت آخر "يواصل راضيًا عن نفسه ؛ إذ إنه قد حطم الأدلة مغتنمًا فرصة مهاتفة الشرطى للإلقاء ببطاقة هويته خفية فى إحدى البالوعات. لهذا لم يجدوا الوثيقة وهو بعد فى مركز الشرطة رافضًا الإدلاء باسمه، وعبثًا بحثوا عن البطاقة فى محفظته. ومن سوء الحظ، لم يكن للشيخ الصبر الكافى لمتابعة مسلسل غبائه هذا؛ لأن الرقيب المدعى الذى يستنطقه قد أثار حنقه.

– لا تخدعنى أيها الفاشستى الخائن... –لفظها أخيرًا – نعم، خائن ولو ارتديت زيًّا إيطاليًّا... اذهب وأخبر مولاك الألمانى المختبئ هناك فى الداخل. ليخرج، ولن أعترف بشىء ولو أمام الجستابو.

ما من شك، يفكر الرقيب، أنه مختبل، أو هو يتظاهر بذلك كى يخفى شيئًا أخطر. يأمر بسجن الشيخ فى غرفة انتظار ويتحاور مع كاتبه؛ لأن رئيس المركز قد خرج فى مسعى. ما العمل؟ غير أنه شرع فى المهاتفات الروتينية مع المارستانات والمصحات والمستشفيات.

– اسمع يارقيب، ألا يمكن أن نستطيع شيئًا عن طريق هذا الأستاذ بوونكونتونى ؟ – يقترح الكاتب الذى وجد بطاقة الأستاذ فى المحفظة، وهى تقول : "عالم أصول الأجناس البشرية."

– فلعله الإخصائى الذى يباشره.

من حسن الحظ، أن الأستاذ كان بمنزله، وبالأوصاف الخاصة يتعرف إلى الشيخ بسرعة. لا، ليس مجرمًا ولا مصطنعًا، لا شك أنه يشكو خللاً فى الذاكرة. لا أستطيع مدكم بعنوانه، ولكن يعرفه فاليريو فرلينى ابن المحامى ويعطيهم رقم هاتفه. إن لم يجدوا عائلته فالأستاذ نفسه مستعد لأخذ الشيخ من مركز الشرطة ويتحمل مسؤوليته.

بفضل فاليريو يستطيع الرقيب فى النهاية من المتحدث إلى ريناتو فى المصنع، ويطلب منه القدوم بأسرع ما يكون. يقدمون للشيخ فى هذه الأثناء قهوة وبعض البقسماط. إن اسم دومينيكو فرلينى بطل المحاكم له وزنه فى مراكز الشرطة، وابن المحامى كان حاسمًا لفائدة الموقوف.

"هذا من أجل أن ألين. يتروى متأملاً الصينية فوق المنضدة، ويتساءل إن كانت بالقهوة بعض المخدرات. يقرر – فى النهاية – تناولها. هؤلاء ليسوا علماء، فهذه الحيلة المعتادة : التلطف أولاً، ثم تأتى الصفعات... إن كل ما آسف له هو قضائى الليلة سجينًا. لى فكرة وهى أن مهمتى تتم ليلاً... نعم، أنا واثق، فى ليلة، لكن أيها ؟ لو احتفظوا بى لا أستطيع العمل. لو استطعت التذكر !... الثابت هو أنى ضحية خيانة؛ لأنى لم أقم بشىء يثير الشكوك. لعله الطبيب؛ لأنى لم أسمح بإفراغى... لا، عرفت الآن، لقد خانتنى الجاسوسة، الجاسوسة الألمانية صاحبة النهدين الكبيرين. تلك التى جاءت بعذر... ما هو ؟ نعم، عذر العناية بـ... ببروناتينو !"

يزيل هذا الاسم السحرى كل اضطرابات الذاكرة ويعيد النظام. هذه هى مهمته الليلية :

حمايته ! إذن عليه الخروج وحالا؛ فمن النافذة يرى بداية غروب المساء الربيعى.

يقف الشيخ. يضع قبعته ويطرق الباب، وبما أنهم لم يفتحوا له يصيح :

– افتحوا من فضلكم، لقد عرفت، تذكرت، سأقول كل شىء. افتحوا، اسمى رونكونى سالفاتورى، وأسكن عند ابنى بشارع بيافى، ويعرفنى الأستاذ بوونكونتونى!... نعم، وعضو مجلس الشيوخ زمبرينى. افتحوا من فضلكم، أنا...

يفتح الباب ويظهر ريناتو الذى يعانق أباه، بينما الشرطى بالعتبة.

– أنت بخير يا أبى ؟

– طبعًا !... لعلك انزعجت، ليس بى شىء – يهمهم بثبات حنون – ليس من السهل أن يصيبنى شىء. غير أن هؤلاء الناس يرون المرتاب فيهم فى كل مكان، ويعجبهم التسلط، لكن لا بد أن ينتهى بهم الأمر بسراحى.

ينسحب الشرطى برصانة، وريناتو لا يجيب، ويخرج صحبة أبيه، ويعطيه محفظته التى سلموها له. عند مروره يعيد الاعتذار للرقيب الذى عنفه قبل تسليمه الشيخ عن هذا الإهمال، تجاه مريض عقلى يتركونه يخرج بلا بطاقة هوية. فمن حسن الحظ أن لقب فرلينى، ولو أنه مزج عرضًا فى القضية، قد سهل الحل.

يخرجان إلى الشارع. يقول الحارس الذى فتح له الباب إلى الرقيب :

-هل سمعته يا سيدى ؟ فهو أيضًا صديق لعضو مجلس الشيوخ زمبرينى... الواقع هو أن مظهره لا يدل على قيمته.

- لا تخدعك المظاهر - يقضى الرقيب - إنه مختبل، وكان فى استطاعته القول بأنه ابن الأب المقدس... لا تصدق أبدًا كل من يمر من هنا.

لا يتحدث ريناتو خلال الرحلة إلى البيت إلا عن أشياء غير ذات أهمية ؛ خوفًا من أن يضاعف من مضايقة أبيه. وهو فى هذا مخطئ تمامًا : فالشيخ ليس نادمًا، بل بالعكس. إنه يعيش انتصاره فى عظمة ؛ لأنه عاد فخرج من مركز الشرطة، وكالعادة من دون خضوع. لم يحصلوا منه ولا على كلمة وما هو أهم. فالطفل يستمر فى أمان ؛ لأنه عائد إلى جنبه هذه الليلة، وسيحميه من كل خطر فى الموقع المتقدم الجديد.

(٥٧)

إن الحجارة المنحوته لغز وضجة صامتة. صورتان بشريتان فى حالة ولادة، حالة موت. لم يتمم الإزميل خلقها. الجسد الرجولى العارى خائرة قواه، والمرأة تسنده وسط ردائها، بذراعين عاشقتين ووجه يائس... ما أعمق فهم هورتنسيا لهذا النحت وقد واجهها به رجلها !

– هما هناك. انظرى محاربى – يصرخ الشيخ – هما ليسا "بياتا" (شفقة) أليس كذلك ؟ لكن يا له من تمثال ! ما أعظمه أنجيلو !

من المؤكد أن "البياتا" كانت دائمًا بالنسبة إلى هورتنسيا صورة مختلفة : حب مجروح، حنان متألم، وعلى الرغم من هذا، ففى هذا النحت ترى وضعيتها الخاصة تجاه الشيخ لا يستطيع أى تمثال آخر أن يحدث لها حزنًا كبيرًا؛ لأنها هكذا رأت نفسها ذلك اليوم وهى تحمله امام مرآة خزانتها. إن هذه الحالة المؤثرة النابعة من التمثال الذى يترجمه الشيخ إلى بطولة حربية تمزق لها قلبها وتعزيها فى آن واحد. وهكذا يريد إفهامه هورتنسيا لأنها له. لقد أقنعها و سيتزوجان بعد إتمام الإجراءات وأوراقها.

– تبقين شاغرة الفم، أليس كذلك ؟

– لم أكن أنتظر هذا، ثم إنى ظننت أنك أتيت بى لترينى ذيْنك الأتروريين اللذيْن يعجبانك.

- كيف، وفى ميلانو لا يوجدان ؟... لكن هذا يستحق الزيارة. هذا... يا له من ميجل أنجلو وما له من أشياء.

لا يستطيع قول أكثر من هذا، ولكنه يرخى قبضتيْه ويقطب الجبين ويركز النظر.

- هل الأترورريان مثل هذا ؟

- بالعكس ! هذان يصارعان، والأترورريان يعيشان، ولكن بشجاعة هذيْن نفسهما، يخالجه الألم ؛ وذلك إثر خروجه من المتحف. فالعيون تملؤها سماء صافية زرقاء ويقبل الوجوه نسيم دافئ، والشمس تطرح ظلالاً راقصة تحت الأشجار وكثيفة عند أقدام العمارات. وفى الحافلة يحكى الشيخ آخر حيلة له وهو يشم رائحة هورتنسيا، ويشعر بيدها اللينة فوق قبضته الناتئة العظام.

لقد نجا برونانتينو إلى الأبد ! لقد أخبرتك أليس كذلك، بأن أندريا استسلمت ووعدت بأنها لن تعود إلى سجنه؟... ومن باب الاحتياط أنجزت العمل. لا أثق بالمنقذين أبدًا مثل موسولينى وحكاياته. لا فالمرء ينقذ نفسه بنفسه؛ ولهذا علمت برونانتينو كيف يفتح الباب مقربًا كرسيًا من الجدار ؛ لأنه لا يصل إلى القفل فيركب على الكرسى، وهكذا يصل. ملاكى العزيز، لقد أصاب من أول مرة، إنه أكثر ذكاء !... فالآن لا يهمنى الذهاب إلى المستشفى، فالطفل أخذ يدافع عن نفسه، ثم إنك موجودة.

بعد ذلك، وهما فى مصلى سان كرستوفورو، وبينما تستعد هورتنسيا للصلاة، يتأمل اللوحة فيرى فيها صورته رافعًا بروناتينو إلى الأعلى فوق يده. فهذه الصورة وضعتها على العرش فى أقدس مكان من خزانتها ؛ لأنها لم تشأ تأطيرها فتبقى على مرأى الجميع. ويفكر الشيخ فى هذه الأثناء أن بين اثنيْن يسهل العبور إلى الضفة الأخرى: "أنا وهورتنسيا نعبر النهر معًا، جنبًا إلى جنب، وبروناتينو جالس فوق أذرعنا المتشابكة وهو يطوق عنقيْنا بذراعيه الصغيرتين يتعطف مكررًا : هكذا، هكذا، جنبًا إلى جنب".

تلتفت هورتنسيا إلى الرجل :

– أتتذكر أول ما أتيْنا إلى هنا ؟

– نعم، بعد أن رأينا سان فرنشسكو. كيف لا أذكر؟ لهذا سنتزوج هنا، ولكن لم يكن الخورى معاديًا للفاشستية أبدًا مثل دون دجوزبى الذى أخفانى فى القبة، المسكين، ثم ألقى ذلك الوعظ.

(لأنه يدعى دون دجوزبى، فالآن فقط مر الاسم المنسى بذاكرته).

إنه مصمم ولو أن هورتنسيا بدأت بمقاومة الفكرة. ثم إن أوراق الشيخ ستصل سريعًا ؛ فقد كلف بها أمبروزيو. إن الرجل يتحمس متخيلاً ضجر ختنه وقد نزلت عليه مولاة غير منتظرة، ويتمتع مسبقًا بوصوله إلى البلدة صحبة المرأة العجيبة... لكن الأمر

الجوهرى هى هورتنسيا التى تبعث فيه الحياة وستبعثها فى بروناتينو الذى وإن كان يدافع عن نفسه بنفسه ؛ فهو يحتاج إلى امرأة. سيعتنى به أبواه طبعًا، لكن كيف ستعلمه أندريبا ما لا تقدر حتى على تخيله ؟ يجب أن لا يمر الطفل بما مر به هو. يجب أن لا يضيع شــيئًا، وأن يعرف مُذ البداية كيف يتكهن النساء !

- فهكذا ستصبحين جدته، وستواصــلين تعليمـــه مـــن بعـــد. ويضيف : الطفل يحتاجك.

- وأنت ألا تحتاجنى ؟ تجيب هى متظاهرة بالغضب.

- ألا تعرفين ذلك ؟ يجيب مغتاظًا.

- واضح أنى أعرفه يا غبى، لكن أريدك أن تقوله!

- إذن ها قد قلته.

تعود هورتنسيا إلى صلاتها بعد إثراء إعجابها بكلمات الشيخ. "سنتزوج هنا، نعم، لقد حسم الأمر. إنها لا تحتاج إلى الزواج وهمـــا على ما هما عليه. فما الذى سيضيفه الاحتفال ؟ لكـــن ذلـــك يـــسره كثيرًا! ولما يعودان إلى الشقة - يا لفرحة الخروج فـــى هـــذا اليـــوم المضيء - يدخلان المطبخ ليحضرا عجينًا حسنًا (مكرونـــة) علـــى طريقة الجنوب. بالطريقة الأمالفية أم الكالابرية ؟ يتناقشان مـــازحين إن كان هـــذا النبيذ أكثر مناسبة، أو ينزل هو لشراء صنف محلـــى،

أو إن كانت ستأخذ معها "الكونتشرتو" للزواج، وهو مجموعة حلى العروس فى روكاسيرا بما فيها الخاتم "بالبريللوكو" (الحجر الثمين) والأقراط والقلادة والسوار... فوق السطح المقابل، تنقر بعض العصافير فى حيوية ما تلقيه هى من لباب الخبز.

فى غرفة الأكل، وبعد أن فرغت الأطباق، ينظر الرجل حوله. منظر من أمالفى وآلة المندولين والنباتات النضرة فى أصائصها النظيفة. يا له من سكون، مثل اليوم الأول.

"لكن أين صورة توماسو ؟... زالت كما زالت دونكا... إن هذه المرأة تفكر فى كل شىء. نعم مثل دونكا، دخل التاريخ" يكرر الشيخ لنفسه. يجرى فى عروقه توتر فاتر، فينهضه من كرسيه، ويقربه من المرأة وهى تنظف المائدة.

– لكن، ما أنت فاعل يا برونو ؟ تقول وقد شعرت بخصرها يطوق.

– تقبلها الشفاه الأخرى، والآن هى التى تشعر بعودة مشاعر قديمة. تضحك سعيدة مستسلمة.

– يالك من مجنون !... هيا، هيا، إلى قيلولتك؛ فأنت مشاغب كبير ومن الأفضل لك الراحة.

نعم، مشاغب، فقد مضى زمن طويل والقبلة ليست قبلة. "انظر، لو استسلم أيضًا العدو الآخر، الروسكا !... مجرد آمال، فعضاتها الأخيرة لا دواء لها."

– طيب، لكن تنامين أنتَ أيضًا.

– تنزعج هورتنسيا وتحزن أمام هذه النظرة الرجولية. "إنه لم يعد يصلح لشيء !"

تأسف مفكرة في جسدها. الشيخ لا يقبل كتمان الحقائق.

– لا ترفضي. ليست هذه هي المرة الأولى.

– كنت مريضة ذلك اليوم.

– ألا تثقين بي ؟

لقد شعر برهة بسرور فيواصل :

– لم نعد في سن الشباب يا امرأة. لا تمنِ نفسك فقد قلت لك ذلك... ثم إن الفراش هو أحسن مكان يجمع بين رجل وامرأة.

كلام وصمت في غبش الربيع في المضجع، غبش تتخلله الستائر المطبوعة. يضطجعان جنبًا إلى جنب تحت الجوخ والدثار ونصف عاريين والكلمات نجوم في مغرب كل يوم، جمرات حمراء في نار هادئة وألغاز مشتركة. والصمت يحكي كل شيء؛ فهو حياة كل واحد منهما كاملة تبعث فتتركب من جديد باحثة عن الأخرى كي تكتمل. إنه وجود الاثنين المتعانقين في ضفير أشواق وآمال. لهذا تتدفق الاعترافات بعد كل صمت :

- لقد غرت من دونكا إلى ذلك المساء - تعترف هورتنسيا - ولا أزال.

يصاب الرجل بنوبة تبجح :

- ولمَ تغيريين من الأخريات؟

- أنا أعرف أنك حصلت على الكثيرات، لكن دونكا حصلت عليك... فى الأقل، إلى المدى الذى سمحت به.

أنت ملكتنى كليًّا، مستسلمًا كليًّا من دون شروط... فانظرى هنا، لم أعد أخجل من الحصول على امرأة فى الفراش من دون أن أذوقها. فانظرى إلى أى مدى غيرتنى...! كان الأمر معها بالعكس، تلذذتها ولم أفكر أن هناك ما هو أكثر.

تنهض هورتنسيا مندفعة فتسند مرفقها إلى الوسادة واضعة فى عينيها كل اعتقادها :

- لا تتألم، لقد أعطيتها ما كانت تريده ! "الحيوان البديع !" أعطيتها ما لم تكن لتعرفه قط.

تترك كلماتها تنغمس فى الرجل ثم تواصل :

- انسَ، لقد كان كما يجب أن يكون. فللحنان كان دافيد وهى رفضته... نعم، أعطيت كل ما هو أنت، ولم تعرف إلا الآن أنك أكثر من ذلك.

"إلا الآن – يجتر الرجل – وما الذى جرى الآن ؟ هى ميلانو أى الطفل وهى : فلا شيء غير هذا فى ميلانو."

– نعم، الآن أعرف ذلك وبفضلك أنت.

– بفضل بروناتينو.

– عشيقاى.

–عشق واخد وأنت المحبتان، فأنت تعطيهما.

صمت آخر فسيح.

"أنا المسلم نفسى"، يفكر الرجل : شيء جديد جدًّا فــى عقلــه، شيء ولد حديثًا خلال هذه الأسابيع. يتسلى بأن ينظر إليه من علٍ كما هو الآن، ولم يكن ذلك يعجبه قط. إنه يحب هذا الوجه فوق وجهــه، وهذا البدن المسيطر عليه، والذى يطل من طوقه المفتــوح، تقــوّس صدر ممتلئ مائل نحوه.

يتأمله مسرورًا وهذا ما فكره دائمًا "ما سلطة لحــم المــرأة ؟ مكور وأبيض كالقمر الذى يقولون إنه يهيج البحر."

– ما سلطة لحم المرأة ؟ لقد رنت هذه الكلمات. لقد فــاه بهــا بصوت عالٍ من دون أن يشعر.

سلطة لحم الرجل نفسها تهمس هى وقد التهبت وهــى تــشعر باليد تصور فى لطف صدرها، وتسمع التنهد العميق.

صمت من جديد. نعم، ولكن ما أبلغ اللمس !

يتذمر. التذمر نفسه، الوحيد :

– ألا يؤسفك أن تأخذى فى فراشك لحمًا ميتًا لا غير ؟

– ميت ؟ يحتج هذا الحنان الكامل – بل حى. ألا يشعر هذا اللحم بملاطفاتى ؟.. يا له من شعرٍ هذا الذى فى صدرك ! يا له من تجعيد خشن، فكأنه يلتف فتبطئ أصابعى. وإلى الأسفل قلبك، قلبك الذى يتكلم، الذى يصيح بى : أنا حى !

صمت أكبر، أعلى، يشمل صدى الأصوات والضغوطات اللطيفة والاستكشافات العاشقة، وفى القمة شكوى رجولية متألمة :

– كم كنت أتمنى لو أنك عرفتنى كما كنت فى هذه المبارزة ! لو استطعت...

تترك اليد الأنثوية هذا الصدر الجعد، ويختم بإصبع ثابت شفتيْن نهمتين دومًا.

– اسكت، لا تطلب من الحياة أكثر مما أنت فيه.

وتعيد مخفية ضيقها المفاجئ.

– لا تطلب أكثر... حتى لا ينهار !

صحيح، يجب تركه كما هو، والتمتع به كما هو. تواصل هى الاستناد إلى مرفقها. "السيدة الأترورية"، يفكر الرجل. لكن لا فوق ناؤوس. الفراش محيط هادئ؛ حيث يعيش مد المحبين. حرية قصوى للاستسلام، فالرجل لم يعد يقيده شبح دونكا، ولا حتى ألم ما ضاع فى عضات روسكا الأخيرة – وهذا بفضل هورتنسيا – إنه هادئ أمام الباب الذى سيلجه قريبًا؛ لأنه يعرف كيف يغلب القدر وذلك بالاحتماء فى خندق ما لا يهدم، هو الزمن الحاضر. عيش الحاضر بكل عمقه.

هورتنسيا فى هذه الأثناء، وهى عارفة بما تعرفه، تشعر بدمعات، لها وله، تسيل فى داخلها خانقة صدرها، وتمنت لو أخذته مرة أخرى على ذراعيْها مثل تلك "البيبيتا" (الشفقة) فى المرأة – بروناتينها خفيف الوزن ! – لكنه سيشك.

تكبح أنفاسها، وتلجأ هى أيضًا إلى الزمن الحاضر وتدعو : "لا تجعله يتحطم."

(٥٨)

بحركة ماهرة؛ تتجنب السيارة الصغيرة صدمة شاحنة كانت لها الأسبقية.

– كيف تسوقين يا أندريبا ؟!

توجه المعينة بالسؤال نظرتها وابتسامتها برهة إلى هورتنسيا.

- وأنت كيف تشترين !

- لقد كنت بائعة... لكن فتيات هذه الأيام في مغازة "لاريناشنسا" لا يعرفن المهنة. لا يقمن إلا بمرافقتك إلى الصندوق للدفع. وخلافًا لذلك، فمن المتعة التوقف للاختيار بين يدى عارفة بالمهنة، أو بالعكس تقديم البضاعة إلى مشترية بارعة. كنت أتمتع كثيرًا بهذا فى أيامى.

من دون شك. فمساء المشتريات هذا قد تمتعت فيه أندرييا بذوق هورتنسيا الرفيع، وبمهارتها فى الحصول على أحسن الأنواع بأحسن الأسعار. فى قسم "الفرص" كانت يدها تغوص فى عرمة الثياب كالنورس فى البحر، فتخرج بالصفقة الحقيقية.

تتساءل أندرييا وهى منتبهة لحركة المرور كيف يمكن لحميها أن يجعل هذه المرأة تحبه وهى العاقلة والرقيقة، حسب مفهوم ما، والكل فى بساطة. إنها لا تنكر خصال الشيخ، ولكنه مزعج بدرجة ! كيف استطاع أن يوحى بكل هذا الحب ؟ ليس من أجل المال، فأندرييا تعترف أنها لما تحدثنا للمرة الأولى عن الزواج، أكدت هورتنسيا قاطعة بأنها لا تقبل ميراثًا.

- ولا ليرة واحدة. أكدت: لا أريد إلا الأشياء الخاصة التى رأيته يستعملها : الدثار والموسى...

لم تستطع هورتنسيا المواصلة ؛ لأن نشيجًا قطع لها صوتها.

لا، ليس من أجل المال، تكرر أندريبيا لنفسها. ومع هذا فإن ابنتها منزعجة ؛ لأنها وضعت بعدُ في حسابها في الميراث. يا لها من فتاة مبتذلة، لم تشبه أمها.

– سأكون العرابة[1] فهما مصممان. هكذا قالت الابنة لأندريبيا باحتقار على حدة. لكن أمي لا شك وأنها جنت ؛ كي تذهب الآن لتدفن نفسها مع شيخ في قرية حقيرة من دون أدنى مقابل.

تفهم أندريبيا خيبة أمل هذه الفتاة، فكلتاهما ستخسر لو احتفظت هورتنسيا بالميراث. وعلى أية حال، إن فكرة "القرية الحقيرة "تتسجم وأندريبيا، إنها لا تكف عن التساؤل حول جاذبيات الشيخ. لا بد أنه كان فتى رائعًا، من دون أي شك، لكن لقد مر كل ذلك، ثم إنه غير مثقف ولا رقيق ولا... لعلها حيويته. فهذه، نعم، فهو يتركهم هذه الأيام مندهشين جميعًا، وهو من شارع إلى آخر من دون هوادة؛ من أجل الإجراءات والأوراق. فأمبروزيو وصل مؤخرًا من الجنوب، ليكون العرّاب الذي يعترف بالتعب، ويمدح طاقة الشيخ، وهو يناقش الموظفين، وخاصة في مكاتب المطرانية. فالخوري الذي بالشباك يهابه.

---

(١) العراب والعرابة : هما لدى النصارى الكفيل والكفيلة يختاران من بين الأقارب عند تعميد الأبناء، أو عند الزواج، فيصبحان كالأبوين.

أعرب دالانوتى أيضًا عن دهشته؛ لما ذهبت أندرييا وحـدها لتستشيره حول مشروع الزيجة.

– لو كان آخر فى الحالة التى عليها مرضه، لكان ساجدًا فـى فراشه. ولكن نشاطه، أو مزاجه إن فضلت ذلك، أو أى شىء آخـر هو أقوى من المرض، وهو الذى يسنده... دعيه، دعيـه يتـزوج : فالأمل يدفعه... بعد ذلك... لا شك وأن كل شىء سيتم بسرعة وهـو خير له. نعم، أحسن بكثير. لا تزال أندرييا تتذكر كم فاجأها صـوت الطبيب، وهو يتم تلك الجملة بنغمة حزينة فجأة، متألمة لا أثر للمهنة فيها. كما لو أن الأمر يمسه. لماذا ؟

فى طريقها فى شارع بياقى، تدخل الـسيارة الـصغيرة مـن شارع ديلا سبيغا، وأمام الركن مـع شـارع بورغوبيـسو تتوقـف هورتنسيا عن تأملاتها، حول التغييرات الكبيرة فـى أسـاليب البيـع بالمقارنة مع تلك الأزمنة الماضية.

"وأنا تغيرت أكثر. تقول لنفسها وهى تمر تحـت شـرفتها – كنت أرى نفسى وحيدة نهائيًّا فى هذه الشقة الصغيرة، وها أنـا الآن سأغلقها وسأذهب إلى الجنوب وبـصحبتى رجـل وحفيـد، عائلـة أخرى... يالمفاجآت الحياة ! قبل أسابيع لم أكن أعرف هـذه المـرأة التى تحملنى فى سيارتها، ولم أرَ قط ريناتو... ريناتو، لو وهبنى الله ولدًا مثله. كم يفهم أحدنا الآخر؟ وكم يثق بى؟ يبدو لى وكأنى عرفت

أمه من كثرة سماعى له كابن، فصرت وكأنى أخت لهـا... آى يـا برونو، كم عندك من السلطة؟ كيف تربط بيننا جميعًا؟ هذا ولا أحـد يناقشك يا عنيدى. لا حيلة إلا اتباعك. لقد فتنتنا. أنت وبرونوتينـك، بروناتيننا. إن له مزاجك نفسه، وهو له مزاجه الخاص، فلم يكبر...؟

تخرجان من شارع ديـلا سـبيغا مـن بـاب البندقيـة، ثـم تختصرأندريا الطريق نحو منزلها، مرورًا بشارع سالفينى. تتـذكر هورتنسيا عند المرور أمام متجر البقول فى اليوم الأول الذى رافقت فيه رجلها إليه. يا للنظرة الثاقبة التى استلمتها مـن تلـك المتباهيـة بسنيها الأربعين، السيدة مادالينا. نظرة عرفت كل شيء. لـم تتـأثر هورتنسيا وبدت باسمة، وهى تعرف ما تعرف مـن قـصة بائعـة الخضر؛ لأنها لمحت فى العينيْن الأخرييْن الحـسد والأسـف لعـدم الحصول على برونو.

لم تعد تفكر فى هذا لما وصلتا إلى المنزل. تدخلـه بابتـسامة أثارتها رؤى أخرى : شاب فى المستقبل مثل ريناتو، ولكـن بقـوة حيوية ورشاقة رجولية كتلك التى كانت للجد وهو شاب.

لما فتحت أندريا الباب، شاب المستقبل هذا، يجـرى نحوهـا مالئًا الممر بصراخه، ويمد ذراعيه الصغيرتين لهورتنسيا.

– إنه يحبك أكثر منى. تعلق أندريا المبتهجة على الرغم مـن ذلك بهذا الحب ؛ لأنها تأمل فى مساعدة كبيرة من هورتنسيا لتربيته.

- لا تقولى هكذا، ليس صحيحًا ما تقولين. تجيب هورتنسيا رافعة بروناتينو من الأرض، وواضعة إياه جالسًا فوق ذراعها: لست إلا الجديد. لوخير فأنت دائمًا الأم، كما تعلمين جيدًا.

- لا، لا أعلم، تجيب أندرييا برصانة: فأمى ماتت قبل أن أتم عامى الثالث.

تنظر هورتنسيا إليها، وتفهم أشياء كثيرة.

تطوق بذراعها الحرة خصر أندرييا، وهى تشعر بذراعى الطفل تلتفان حول عنقها. "رجلى هو بروناتينو - تفكر هورتنسيا متأثرة - بينما أنت يا بنى، يا ملاكى، أنت صرت برونوى مقبلاً إياى... أحبك من أجله، كما أحبه من أجلك. عسانى أراك كما كان هو وبعدها تغمض عيناى."

(٥٩)

زمبرينى متواجد بميلانو لبضعة أيام من أجل أمور حزبية، وبفضل دالانوتى استطاع تنظيم غداء مع الشيخ فى تراتوريا (مطعم مبسط) من تلك التى تعجب عضو مجلس الشيوخ، وهو دائمًا عدو الفنادق الكبيرة التى لا مناص الآن من إنزاله فيها. يرافقهما أمبروزيو الذى جاء وفى فمه كالعادة غصين أخضر، فاستعاد قدماء المقاومين الثلاثة، الأوقات الجميلة وهم يتذوقون قهوة بعد الغداء.

يذكرون اللحظات الصعبة، وكذلك ضربات الحظ وأوقات الانتصار.

يناقشون بتعجب شيوعية زمبرينى، ولكن يتفقون فى شعورهم بانحطاط البلاد والشباب بالمقارنة مع الحماسة الشعبية فى منتصف الأربعينيات. وفى النهاية، عرّجوا بطبيعة الحال على الزواج القريب؛ فأسف زمبرينى على عدم استطاعته الحضور.

شيء عجيب – يقول أمبروزيو – هذا ما لم يكن أحد ينتظره هناك، وهو تتمة للنصر. فأهل القرية فاغرة أفواههم. فبين هذا وصراعك الخاص من أجل الأراضى بقى آل كانتانوتى بلا أصدقاء. إنك تمسك بالناس فى جيبك يا برونو. شيء لا تتصوره. حتى المتعبدات بدأن يفكرن بأنك فى النهاية، ستعتنق حياة مسيحية. لقد بلغ بهن الأمر الدعاء لك. هذا مؤكد ! وخاصة بعضهن التى أخذتها إلى البستان وهى فتاة.

يضحكون.

– أتعرف الشيء الذى يغضبهن ؟ – يضيف – هو أنك لا تتزوج فى روكاسيرا. يا له من احتفال يخسرنه. – للتزوج فى أسقفية أخرى سيطالبوننى بمزيد من الأوراق – يعتذر الشيخ ثم يرد الهجوم وبعد كل شيء، فلا رغبة لى فى أن يباركنى راهب روكاسيرا. أو لعله يعجبك ذلك المسرف فى التعبد ؟ إنه طبعًا لا يعجب أمبروزيو أيضًا.

– تزوج كيف شئت يا رجل – يتدخل زمبرينى – فالعرس عرسك... لكن استعد "للثننثيرادا"... (جلبة للاستهزاء فى عرس الأرامل). يبتسم الشيخ كما لو قدمت إليه هدية.

– سوف أشحن اللوبارا (البندقية) بالخردق وبالملح كذلك ؛ تحسبًا لخروج بعضهم عن الحدود. إنى أقبل الثننثيرادا فهى ما يلزم إذا تزوج أرمل، وخاصة خارج البلدة، لكن ثننثيرادا كما يجب ؛ فالمزاح الثقيل مع زوجتى لا يقبل.

– لا فائدة فى إطلاق النار يا برونو – يؤكد أمبروزيو – فلا أحد فى القرية يريد الآن بك سوءًا. أو لا أحد يجرؤ على التصريح به كما يتبجح الشيخ.

– نعم، هو ذاك، أو لا يجرؤ.

يرفع الشيخ كتفيه مزدريًا، ثم يتوجه إلى زمبرينى بعبارة وقورة :

– لعلك تظن أنى مجنون يا ماورو ؛ لأنى سأبقى قليلاً. لعل دالانوتى قاله لك. وبالمناسبة إنه رجل طيب.

نعم، شرحه لى وقال لى كذلك إنه يحسدك ؛ لأنه خلافًا لك لم تبق له طموحات... أنت لست مجنونًا يا برونو، أنت عاقل جدًا. أنا أفهمك.

– وفعلاً يحسن صنعًا – يقفز أمبروزيو – أنا هذا، وقد عرفت هورتنسيا. لو رأيتها يا ماورو... إنها المرأة التى يحتاجها أى رجل... إن لم تتزوج أنت فسأعرض نفسى – يضيق أمبروزيو الأعزب، وهو يُبدى للشيخ تصعُّرًا مضحكًا كما فى الأيام الغابرة.

– لا تعشق، فهى تحبنى أنا. يتبجح الشيخ وهو يواصل التوجه لزمبرينى: هكذا، أتعرف ؟ هذا الصيف فى منزلى مع هورتنسيا وبروناتينو وسأعيش كل ساعة بأكثر مما يعيش الميلانيون فى عام كامل... يوم ينادينى بروناتينو "تونو" أقيم حفلاً عظيمًا؛ فأنا مشتاق لسماعه. وهو يوشك، يوشك. سيمهلنى وقتًا قبل الضربة الكبرى.

يسكت قليلاً ثم يسترسل فى وقار :

– نعم، سيكون لى متسع من الوقت ! سوف ينطق فى القرية... ثم إنه بعد.. بعد، أنت تفهمنى يا ماورو...

يخفض من صوته، ويقرب رأسه من رفيقه، ويبتسم فى ذكاء ؛ فخورًا باستراتيجيته الحياتية :

– بعد ذلك ستكون لبروناتينو، ملاكى، كنزى، أحسن جدة فى الدنيا، المرأة التى تجعل منه رجلاً.

ينغمس الشيخ فى صمت ؛ كى يحسن تخيل هورتنسيا وهى تنوبه بجانب الطفل. نعم، جالسة فى غرفته فوق أريكة السرير؛

فتستقبل هناك زيارة الملاك الصغير الأبيض الليلية، فتأخذه بين ذراعيْها لتحدثه عن جده برونو؛ كى تحكى له كيف كان، وكم وكم وكم كان يحبهما.

(٦٠)

يظهر الملاك الأبيض فى الباب المظلم، ويرفع ذراعيْه إلى السماء.ومندهشًا لعدم الشعور بأنه يطير نحو صدر الشيخ، ككل ليلة، ينطلق ببعض المقاطع من لغته المبهمة، ويخطو خطوات حتى يلمس السرير.

يفتح الشيخ عينيْه، فيرى ذلك الحضور الساطع، فيجلس : لماذا كل هذا التعب اليوم ؟ ويرفع الملاك إلى الفراش ويجلسه بجانبه.

– أنا يقظ يا بنى، كنت فى انتظارك... تعال اركب السيارة وسنخرج. إنها محطمة، ولكنها لا تزال تسير. من نوع "لانشيا" المحجوزة للماركيز. من كان يقول ذلك، وهو يتبجج بسيارته !... جئت بالأوامر، أليس كذلك ؟ لا حاجة لك بتسليمى إياها. أنا على علم؛ فالأخبار تصعد بسرعة إلى الجبل وخاصة منها الحسنة ! إنهم ينهارون : انتصرنا يا ملاكى. لقد ركلوا موسولينى وهم يشعرون بالضياع. يهربون كالفئران. فمقاومو كوزنتسا يلقون بالألمان العاجزين عن المقاومة إلى البحر. دافيد نسف لهم القطار وتركهم بلا ذخيرة... سعيد دافيد وهو يتعافى من جرحه فى ريمينى، مع دونكا،

لقد استحقا ذلك... يا لعظمة الدنيا الآن. فكما ترى، نحن نتقدم حتى بالسيارة مثل الفرقاء. لقد انتهى السير فى المسالك الوعرة من عشب إلى عشب. انتهى البقاء داخل الحصار، كما كنا أنا وأنت فى موقعنا، أتذكر ذلك ؟ لن يعود ذلك أبدًا... إلى الأمام فوق العجلات، إلى أسفل الجبل، مع اليقظة طبعًا؛ فقد يكون هناك رماة، فاشستيون يائسون.. لكن استوى الآن الأمر، لقد خسروا.

يقرب الطفل جسمه من بدن الشيخ؛ باحثًا عن الذراعين المرحبتين ككل ليلة.

– يا ملاكى، تلتصق مثل "لامبرينو" ! ويا لك من شجاع ! أنت صغير هكذا، وتأتى بالأوامر... لكن لعلك تشعر بالبرد. يجب الاحتماء من رطوبة الليل... لا تخف! سأغطيك جيدًا. يتناول الشيخ الدثار المطروح عند قدميه، ويلف به الطفل الذى يدمدم ويحرك بقوة يديْه الصغيرتيْن رافضًا الدثار.

– نا – نا – يحتج.

يضحك الشيخ، ويضمه بين ذراعيْه.

– لقد أصبت. هكذا أحسن، بقربى وأنا أهدهدك فلهذا لك جد... كيف لا أعانقك ؟! أنا قوى ولا أتعب خاصة فى السيارة. إذا كانت هذه هى الحرب؛ فلتأتِ الرصاصات. لكن لا تصرف انتباهك ؛ فالصباح على وشك وهى ساعة الهجومات المفاجئة، وهذا المكان

مناسب. نحن نعبر غابة القسطل. انظر، أنت تتعرف عليها، أليس كذلك ؟ لقد حدثتك عنها مرات كثيرة. يا للجمال ! إنها مخاطرة فقد يختفي فيها أحد، أو فيها حبالة : سلك من شجرة إلى أخرى، يمسك بقنبلة يدوية، فإن لمسته فلا تشعر ولا حتى بنفسك... ها قد ظهر النور، نحن خارجان من الغابة. سنرى القرية بعد المنعطف عند المرتفع... الآن، ألا تراها ؟ ألا تراها ؟ برج الكنيسة على يسار منزلي. أترى المضحاة ؟... روكاسيرا، روكاس برتي... لتحيى !... الإشارة.

لقد أضيئت نافذة في الفناء. يقف الشيخ بتعب، ولكن مأخوذاً بحماسته، يقف فوق السرير والطفل على ذراعيْه.

- الإشارة ! تقدم !... والنفير، أتسمعه ؟ انشد، لننشد جميعًا، نشيد المقاومين !

يبعث الصوت الهرم ضد السكون بنشيد حربي.

يملأ الجو سهم من نور آتٍ من نافذة أخرى غير مرئية. يتوقف الشيخ عن النشيد وينفجر فرحًا :

- شمروخ ! إنه أمبروزيو ؛ فالشماريخ تأخذ عقله...! إنه أمبروزيو، روكاسيرا لنا !

ذهول في صمت.

يثقل حمله فجأة ثقلاً كبيرًا ؛ فلم يعد الشيخ يقدر على حملـه. "مثل ما كان عند سان كريستوفورو" يفكر، بينما يجرحـه ألـم فـى صدره، ويقتلع من ذراعه تشنجًا قويًا. يـسقط علـى ركبتيْـه فـوق الفراش مطلقًا الطفل.

لقد رمونى يا بنى. فاشستى كامن، لكن لا تخـف فأنـت مـع برونو... مع برونو ! وأنا محظوظ دائمًا مع الرصاصات... سنصل قريبًا وهورتنسيا فى انتظارنا. ستعتنى بك ريثما أبرأ... فأنت تحبها، ثم هى الآن جدتك. أتعرف ذلك ؟ أحسن جدة فى الدنيا !... لا تجزع يا كنزى؛ سأحملك إلى ذراعيها.

بحثًا عن إزالة الألم، يضرب بقوة علـى صـدره ؛ حتـى إن الصرة التى تضم التمائم سقطت فوق الفراش، وقد تمزق رباطها.

– تيس هذا الرامى. يزأر، ولكن الزئير ينتهى إلـى شـكوى مكتومة.

يجلس ويسند ظهره إلى رأس الفراش، يهمس :

– لا أرى جيدًا !... فالشمس تعمينى وقد خرجت من الظل...

يسكت كى يدخر قواه، ولكن عقله يواصل، بينما الألم يزيد فى كبس كلابة على صدره لا ترحم.

"لا شيء، هذا لا شيء... يا للسرور بالشماريخ... كم من شرارات فى السماء. والأبواق، والموسيقى. أتسمع؟ أعود كما أردت: منتصرًا وبصحبتك يا ملاكى الصغير !"

أما الطفل الحائر أمام هذه الليلة المختلفة كثيرًا؛ فهو يحبو فوق الفراش نحو الشيخ. يتشبث خائفًا بالذراع التى صارت مشلولة، وينهض واقفًا ووجهه الصغير بجانب وجه الجد منتظرًا، ومنتظرًا!..

وفجأة يكشف له حدسه عن انهيار العالم، وعن الظلام الفارغ. وإذا بخفقة الوحدة تقتلع منه الكلمة التى سمعها كثيرًا :

– نونو – ينطق بها واضحة أمام هذا الوجه الذى تبحث عيناه عن الطفل من دون أن تراه، ولكن سمعه لا يزال ينصت وقد غمرته الفرحة.

ويعيد التوسل نداءه كالكليب الضائع: نونو، نونو، نونو، (جدى)

وها هو أخيرًا هذا النشيد السماوى !

ألوان من وراء الدنيا، ونور آلاف النجوم تغمر القلب المسن وتنتزع من هذا الجلال، من هذه العظمة، هذه الكلمة البعيدة الغور :

! نونو !

يستسلم لها الشيخ إلى الأبد، وهو يذكر اسم الطفل الذى لم تعد شفتاه تستطيعان النطق به.

يبدأ الطفل الفاقد الحماية فى الأنين. لكنه يهدأ وهو يشم فى الدثار أثر الذراعيْن اللتيْن كانتا تهدهدانه. يلتف واثقًا فى طياته، فى هذه الرائحة التى تعيد بناء العالم وهى تعيد له جده، فيهتف مفتخرًا بمأثرته مرة أخرى :

– نونو، نونو، نونو، نونو !...

وفى هذه الأثناء، تلعب يداه الصغيرتان بالتمائم. أزهرت فى طين لحم وجه الشيخ ابتسامة تتحجر شيئًا فشيئًا فوق خلفية دموية لتمثال خزف قديم.

ريناتو الذى جلبه النشيد الحربى وصراخ الطفل، تعرف حالا على تلك الابتسامة :

الابتسامة الأترورية.

المؤلف فى سطور:

خوسى لويس سامبيدرو

- ولد فى برشلونة عام ١٩١٧م.
- درس العلوم الاقتصادية فى جامعة مدريد.
- عين أستاذًا فى الجامعة نفسها.
- عمل أستاذًا زائرًا بجامعتى سالفورد وليفربول.
- عين عام ١٩٧٧ بمرسوم ملكى عضوًابمجلس الشيوخ الإسبانى.

عين عام ١٩٧٧ بمرسوم ملكى عضوًا بمجلس الشيوخ الإسبانى.
عين عام ١٩٩٠ عضوًا بالمجمع الملكى للغة الإسبانية.
من أهم مؤلفاته فى مجال تخصصه العلمى:

- الواقع الاقتصادى والتحليل الهيكلى ١٩٥٩.
- قوى هذا الزمان ١٩٦٧.
- الوعى بالتخلف ١٩٧٣.
- التضخم: رؤية شاملة ١٩٧٦.

إلى جانب مؤلفاته فى مجال الاقتصاد كتب العديد من الأعمال الروائية منها:

"تمثال أدولفو إسبيخو عام ١٩٣٩، ظل الأيام ١٩٤٧، الجواد العارى ١٩٧٠، أكتوبر، أكتوبر ١٩٨١ ، الابتسامة الأترورية ١٩٨٥، عروس البحر العجوز ١٩٩٠، طالما تدور الأرض مجموعة قصصية ١٩٩٣، العاشق الشاذ ٢٠٠٠.

وتعد هذه الرواية "الابتسامة الأترورية" من أهم أعماله، التى حققت نجاحًا كبيرًا ووضعته فى مصاف كبار الروائيين الإسبان.

المترجم فى سطور:

محمد عبد الكافى

إذاعى قديم، عاش متأرجحًا فى عمله بين الصحافة والتدريس. تعلم خمس أو ست لغات فكتب ونشر ببعضها وبالعربية طبعًا، وشارك بها فى الملتقيات والندوات وإلقاء المحاضرات والبرامج الإذاعية والتلفزيونية عبر عدد من البلدان ، التى أخذته إليها هجرته المستمرة حتى الساعة.

بدأ حياته التأليفية بالقصة القصيرة ثم استجاب إلى الدوافع الوطنية؛ فتنوعت كتاباته تماشيًا مع الأوضاع التى مرت بها وتمر بلداننا العربية والإسلامية . نشر له العديد من القصائد الشعرية وكلمات الأغانى والمقالات فى كثير من الصحف والمجلات العربية.

ونشرت له دار لبنان بيروت قصة طويلة عنوانها "بين قلبين" ثم أصدر بالفرنسية "الزواج بطرابلس" (دار النش الليبية، طرابلس ١٩٦٤) وترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية ونشر مرتين (دالر الفرجانى، طرابلس ليبيا ١٩٧٧) كما أصدرت كتيبًا بالإنجليزية عنوانه "مائة مثل عربى من ليبيا" (دار فرنون وياتس المحدودة – لندن ١٩٦٨) جاء بعد ذلك وبالعربية، "إسبانيا من الدكتاتورية إلى الديموقراطية" (دار الكتاب – إسبانيا – ١٩٩١) و"ثلاثة أقلام إسبانية"

والمرأة الإسلامية عبر الزواج" (فولكانو – مدريد ١٩٩٨) وصدر له أيضًا ترجمة قصة "الابتسامة الأترورية" للكاتب الإسـبانى الـشهير خوسى لويس سامبيدرو (يست الحكمة – تونس)

وترجمة قصة لأحد مشاهير القصاصين الإسبان حاليًا "أرتورو بيرث ريباتى". أما القصة فهى "معلم المبارزة" (دار سحر بتـونس). وبعد أيام ستصدر بمدريد وبالإسبانية عن (دار كانتارابيـا) ترجمـة قصة الكاتب التونسى عبد الواحد براهم" تغريبة أحمد الحجرى".

المراجع فى سطور:

أ. د محمود السيد على

- أستاذ الأدب الإسبانى ، كلية الآداب – جامعة القاهرة.
- جائزة الدولة التشجيعية فى الترجمة ١٩٩١.
- عضو الجمعية الدولية للمترجمين الفوريين.
- أستاذ زائر بجامعة قرطبة – إسبانيا، ماجستير الحلول السلمية للنزاعات.
- أستاذ زائر بجامعة روفيرا إى فيرجيلى – إسبانيا، دكتوراه دراسات ثقافات البحر الأبيض المتوسط.
- أستاذزائر بكلية القانون ، الدراسات العليا، جامعة ميسينا ، إيطاليا.
- أستاذ زائر بالجامعة الوطنية، سانتياجو – شيلى.
- أستاذ زائر جامعة الثالث من فبراير وبوينوس أيريس، الأرجنتين.

المحرر فى سطور:

أسامة عرابــى

- حصل على ليسانس الآداب مــن قــسم الفلــسفة – جامعــة القاهرة.
- عمل إحدى عشرة سنة مشرفًا لجمعية النداء الجديدة، التــى أسسها الراحل الكبير والمفكر الاقتصادى د. سعيد النجار .
- رئيس اللجنة الأدبية لأتلييــه القــاهرة – جماعــة الكتــاب والفنانيين المصريين(٢٠٠٤ – ٢٠٠٧)
- مدير المنتدى الأدبى والثقافى بحزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى.
- كاتب وناقد .. له دراساته الأدبية والفكرية المنــشورة فــى مجلات: فصول وإبداع والهلال وسطور ونزوى والمجلــة وصامد .. وصحف: الحياة والقدس العربى اللندنيتين وأخبار الأدب القاهرية واليوم السابع الفلسطينية ... إلخ.
- قام التحرير الأدبى فــى المركــز القــومى للترجمــة ودار الشروق، وسواهما مــن دور النــشر والمراكــز العلميــة المتخصصة.

الإشراف اللغوى: **حسام عبد العزيز**

الإشـــراف الفنى: **حســــن كـــامـــل**

ونظرًا إلى أنه لا يفهم؛ فهو لا يجرؤ على الانسحاب عسى أن يحدث شىء فجأة. فهذا الصباح قد بدأ كغيره، وها هو يصير مختلفًا كثيرًا. لكن الحارس لا يجرؤ كذلك على الدخول، يمنعه احترام غامض. ويواصل البقاء بالباب، ناظرًا إلى الشيخ الذى يركز نظره، بلا اكتراث لحضور الحارس، إلى الضريح الذى مال فوق غطائه الزوجان.

فالمرأة متكئة على مرفقها الأيسر، وشعرها يتدلى فى ضفيرتين على نهديها. تقوست يدها فى جمال مقربة إياها من شفتيها الغليظتين. وخلفها الرجل متكئ هو الآخر بلحيته المدببة تحت فمه الفونى (الشبيه بفم فانون نصف الإله) وهو يحتوى القوام الأنثوى بذراعه اليمنى. إن لون الطفل المحمر فى هذين الجسدين يدل على خلفية دموية لا تبلى على مر القرون. وتحت الأعين المستطيلة الزائغة شرقيًا، تزهو فى الوجهين الابتسامة نفسها التى لا توصف: ملهمة.. مبهمة وهادئة.. متنعمة. كانت بؤر نور خفية تنير بذكاء متقن ذينك الشكلين معطية إياها جلاء وحدة وتملأهما بالحياة.

Bibliotheca Alexandrina
07749538

تصميم الغلاف: شيماء عزيز